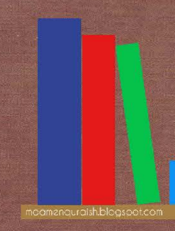


رحلة الحاج المعاصر إلى مكة عام 1908م

للرحّالة البريطاني
آرثر جون واڤل
(الحاج علي الزّنجباري)
ترجمة: ريم بوزين الدّين
تحرير وتعليق: د. أحمد إيبش



روّاد المشرق العربي

رحلة الحاج المعاصر إلى مكة

عام 1908م

للرحّالة البريطاني

آرثر جون واڤل

(الحاج علي الزّنجباري)

ترجمة

ريم بو زين الدّين

مراجعة وتحرير

د. أحمد إيبش



© هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، دار الكتب الوطنية.
فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر.

DS207. W312 2011
Wavell A. J. B. (Arthur John Byng) 1881 -1916
[A modern pilgrim in Mecca]

رحلة الحاج المعاصر إلى مكة عام 1908م/ للرحالة البريطاني آرثر جون وافل (الحاج علي الزنجباري)؛ ترجمة: ريم بو زين الدين؛ مراجعة وتحرير: أحمد إيبش. ط. 1. - أبوظبي: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، دار الكتب الوطنية، 2011.

201 ص. : مص. ، خارطة؛ 24 سم. -- (رواد المشرق العربي)
يتضمن مراجع ببليوجرافية.

ت د م ك: 8 - 971 - 01 - 9948 - 978

1. Wavell, A. J. B., (Arthur John Byng) --1881 -1916
2. الحج. 3. مكة المكرمة -- وصف ورحلات. 4. شبه الجزيرة العربية -- وصف ورحلات. أ. بو زين الدين، ريم. ب. إيبش، أحمد. ج. السلسلة. د. العنوان.

ترجمة كتاب: A modern pilgrim in Mecca



أبوظبي للثقافة و التراث
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE

الطبعة الأولى: 1432 هـ = 2011م

أبو ظبي - الإمارات العربية المتحدة
ص . ب: 2380
publication@adach.ae
www.adach.ae

رحلة الحاج المعاصر إلى مكة
عام 1908م

سلسلة

روّاد المشرق العربي

تقـدّم «هيئة أبوظبي للثقافـة والتّراث» للمكتبة العربيّة بوجـه العموم، ومكتبة تراث جزيـرة العـرب بوجه الخصـوص، باكـورة نتاجها من هـذه السّلسـلة الثقافيّـة التّراثيّة تحـت عنـوان: «روّاد المشـرق العربـي». وهـي مـن خلالها تعكـس اهتمامهـا بتراث الآباء والأجداد، كمصدر فخر لشـعب الإمـارات وإلهامهم وعنوان أصالتهم وهويّتهم الوطنيّـة، وذلك من خـلال الحرص على جمع كافّـة المصادر المتعلّقـة بتراث منطقة الخليج العربي وجزيرة العرب والعالم العربي في آن معاً.

فإذا اسـتعرضنا تاريخ الحركة العلميّة بنشـر التّراث العربي المخطوط، الذي يصل مجموعـه إلى قرابة 3 ملايين مخطوطة في مكتبات الشـرق والغرب، نجد أنّ جامعاتنا ومعاهدنا العلميّة ومؤسّساتنا الثقافيّة على امتداد الوطن العربي، أسهمت بنصيب وافر في خدمة هذا التّراث ونشـر أصوله، وخاصّة خلال القرن العشرين. فتألّفت من خلال ذلك مكتبة تُراثيّة عريقة ثمينة وواسـعة للغاية، حفظت تراث لغتنا العربيّة في مجالات شـتّى، منها على وجه المثال: الأدب العربي، الشّعر، النّحو، الحديث الشريف، الفقه، التاريخ، الفلسـفة والفكر الإنساني، الفنون، وسـائر العلوم عند العرب من فلك وطبّ وهندسـة ورياضيّـات وصيدلـة وكيمياء. ومنها أيضـاً الأدب الجغرافـي العربي وأدب الرّحلات.

ومـا دُمنـا بصدد ذكـر تُراثنا الجغرافي، فلا بُـدّ أن نوكّد على أنّ ثمّة تيّـاراً موازياً له، يضارعه ويستقي منه ويتمّمه، يُضفي بالغ الفائدة والمتعة على تُراث العروبة، ألا وهو:

أدب رحلات الأوروپيين إلى مشرقنا العربي! هذا المبحث مع الأسف لم يتمّ التّركيز الكافي عليه حتى الآن، رغم ما يستحقّه وما يقدّمه من فوائد لمثقّفي العربيّة ودارسي تراثها وتاريخها الحضاري والسّياسي والاجتماعي.

هذه الرّحلات لم تتوقّف أبداً منذ أقدم العصور وإلى انبلاج دعوة الإسلام الحنيف، فطفقت جموع الرّحّالين تتناوب على زيارة المشرق منذ عصر حضارة الإغريق (كرحلة آناباسيس لزينوفون الأثيني، ورحلة هيرودوتوس)، والرّومان (كرحلة إيليوس غالوس). ثمّ في القرون الوسطى حلّ الطمع محلّ الفضول، واجتاحت جحافل الغزو اللاتيني مشرقنا الإسلامي في موجة الحملات الصّليبيّة، فمكثت فيه على الشّريط السّاحلي لبلاد الشام مدّة 200 سنة، وحاولت احتلال مصر وتونس لكنّها ارتدّت على أعقابها.

فلمّا أطلّ القرن السّادس عشر، بدأت مرحلة جديدة في هذه الملحمة الثقافيّة والحضاريّة من علاقات الشرق بالغرب، فتضاعف إلى حدّ كبير عدد الرّحّالين الأوروپيّين، الذين قصدوا المشرق إمّا للتّجارة أو المغامرة أو الاستطلاع، أو لمجرّد الخروج بمؤلّفات إبداعيّة فريدة. أمّا جزيرة العرب، معدن العروبة وأرومة قبائلها، ومهبط الوحي وموئل لغة القرآن الكريم، فلا غرو أنّها نالت من اهتمام رحّالي الغرب وجهودهم المُضنية ومغامراتهم الشائقة الشيء الكثير، عبر خمسة قرون (من القرن السّادس عشر إلى القرن العشرين).. فجابوا بواديها وفيافيها ومجاهلها، ناهيك عن مدنها وبلداتها وقُراها ومضارب بدوها.

هذا الإرث الإنساني الثمين والممتع والمفيد، الذي يضمّ المئات من نصوص الرّحلات النّادرة، تقوم «هيئة أبوظبي للثقافة والتّراث» اليوم بنشر باكورة أجزائه بالعربيّة، في مشروع طموح يهدف إلى نشر أكبر عدد منه، وتقديمه للقارئ العربي بأرقى مستوى علمي من التّحقيق والبحث، وأجمل حلّة فنيّة من جودة الطباعة وتقديم الوثائق والخرائط والصّور النّادرة.

هيئة أبوظبي للثقافة والتّراث

هذا الكتاب

الحاج علي الزَّنجباري ورحلته
إلى الحجاز عام 1908 م

آرثـر جون واڤـل كان أحد الرّحّاليـن الإنكليز الجريئيـن الذين قامـوا برحلة الحجّ متنكّرين بثياب المسلمين ومتقمّصين شخصياتهم، وإذا استعرضنا أشهر هؤلاء لوجب علينا أن نذكر: جوزف پتس، ريتشارد بُرتون (الحاج عبد الله)، جون فراير كين (الحاج محمّـد أمين)، وأخيـراً صاحبنا واڤل هذا (الحاج علي الزّنجبـاري).. والجدير بالذكر أنه كان آخر إنكليزي يشـهد مشـاعر الحجّ بأمّ عينيه أواخر أيام الحكم العثماني، الذي وصل إلى نهايته في عام 1918.

هـذا بالنسـبة إلى الإنكليز، أمّا عـن الأوروپيين عموماً فهنـاك الإيطالي البولونييزي لودوڤيكـو دي ڤارتيمـا (الحاج يونس المصري)، والإسـپاني دومينغو باديا (علي باي العبّاسـي)، والألمانـي أولريخ ياسـپَر زيتسِـن (الحاج موسـى)، والسّويسـري يوهان لودڤيـك بوركهـارت (الحاج إبراهيـم)، والإيطالي جوڤانّي فيناتـي (الحجّي محمّد)، والفرنسـي جيل جرڤيه كورتيلّمون (الحاج عبد الغفّار)، والهولندي كريسـتيان سـنوك هورخرونيِه (الحاج عبد الغفّار).. وغيرهم.

لم تكن غايات هؤلاء الرّحّالين واحدة، فمنهم من كان يتظاهر في رحلته بالسّياحة، ومنهم كان العالم البحّاثة، أو المكلّف بالاستكشـاف والتجسّـس، ومنهم الباحث عن الشهرة، أو المغرم بكرائم الخيل العربيّة، أو المغامر لمجرّد المغامرة. ويبلغ عدد هؤلاء

الرّحاليـن الأوروپيين 54 مغامراً دخلوا مكّة المكرّمـة والمدينة المنوّرة، وعادوا منهما ليكتبوا عن تجربتهم، وكان منهم من أسـلم فعلاً وحسُـن إسـلامه (كما رأينا في سـيرة الحاج وليَمسـون، وسـنرى لدى فيناتي)، ومنهم من لم يُسـلم لكنه نظر إلى الإسـلام بعين الإعجاب والتعاطف والاحترام، وكتب لأبناء وطنه صورة حسنة ووصفاً إيجابياً. ينتمـي إلى هذه الزّمـرة بوركهارت وكورتيلّمون، ومنهم أيضـاً رحالتنا في هذا الكتاب واڤل.

* * *

ولد آرثر جون بينغ واڤل عام 1882 وكان ينتمي إلى أسـرة ضبّاط عسـكريين، فتابع سـيره على خطى أبيه وجدّه وجدّه لأمّه، وتخرّج من الكليّة الحربيّة، وسرعان ما انضمّ إلى فصيل ويلز سنة 1900، وأبحر إلى جنوب إفريقيا في السنة ذاتها، فشارك في العمل العسكري قبل أن يتمّ التاسعة عشرة من عمره.

بعـد أن خـدم إلـى نهاية الحرب فـي فصيله وفي فصيـل الخيالة، عُيّـن في عدد من مسـتعمرات جنوب إفريقيا البريطانية في مواطن سـوازيلاند والتونغا وزولو الشـمالية مـا بين يوليو 1904 وأكتوبر 1905، وشـهد من المخاطر ما أصلب عوده وقوّى عزيمته. ولمّا كان في الثالثة والعشـرين من العمر قام برحلة في مجاهل الصّحراء إلى شـلّالات ڤيكتوريـا وعـاش تجربة ممتعة للغاية، إلـى أن وصل إلى منحـدرات زامبيزي المائية، فغرق زورقه، وخسر جميع ما يملك.

بعـد أن تذوّق واڤـل حياة المغامرات والاسـتقلال، أصبح نظام الجيش بالنسـبة له مملاً، فترك الخدمة سـنة 1906 ليبحث عن حياة جديدة فـي أراضٍ بعيدة. فتوجّه أولاً إلى شـرق إفريقيا، لممارسـة رياضتـه المفضلة ألا وهي الصيـد. وعندما وجد أن تلك البـلاد تفتح بسـرعة، ابتاع لنفسـه أرضاً في نيالـي بالقرب من مومباسـا، وراح يمارس التجارة في سيسـال، التي أصبحت مركزاً مهمّاً لتجارة تلك المنطقة. لكنّه لمّا وجد أن حياته الرّتيبة لا تقدّم له إثارة كافية، خطرت بباله فكرة زيارة مكّة، المدينة المحرّمة على الأجانب وعُقر دار الإسلام.

ربّمـا كانت تلك أخطر المغامرات التـي اختار القيام بها في حياته، فالدّيار المكرّمة في الحجاز كما هو معروف لا يمكن دخولها إلاّ لأبناء الدّين الإسلامي، أو لمن أعلنوا إسلامهم. زِد على ذلك أنّ المنطقة كانت برمّتها في قبضة الدّولة العثمانيّة، التي دخلت في السـنة ذاتهـا (1908 م) بمنعطف جذري إبّان إعلان الدّسـتور وخلع السّـلطان عبد الحميـد الثانـي، وغلبة ضبّاط جمعيّة الاتحاد والترقّي علـى الحكم. صحيح أنّ العداء الشـديد ما بين الأتراك والإنكليز إبّان الحرب العالميّة الأولى لم يكن قد آن أوانه بعد، ولكنّ فكرة واڤل تبقى مخاطرة جسيمة.

برغم ذلك عقد صاحبنا العزم، ورأى أن يقوم بالرّحلة متنكراً بثياب وشخصيّة رجل مسلم، فاتّخذ لنفسه اسم «علي الزَّنجباري»، على اعتباره أقام لسنتين في مومباسا قرب ساحل زنجبار الذي يقطنه مسلمون، وكان تعلّم هناك العربيّة والسّواحليّة. كانت نقطة بداية الرّحلة في مرفأ مارسـيليا الفرنسـي في 23 أغسـطس من عـام 1908، واصطحب معه مرافقين رئيسـيين: شاب زنجباري من مومباسا يدعى مسعودي، وشاب عربي من حلب ترعرع في برلين يدعى عبد الواحد.

تضمّ أخبار هذه الرّحلة تفاصيل حيّة شـائقة للأحداث والمخاطر والمآزق الطريفة التي عاشـها مؤلفنا الشـاب (وكان له من العمر 26 عاماً) ودوّنها بلغته السّـرديّة الشائقة والممتعـة، فأجـاد فيها في الوصـف، وقدّم لنا ولأبنـاء وطنه صورة غايـة في الاحترام والإيجابيّة للإسلام، بجوهره الرّوحي والفكري النبيل، وسموّ فضائله وعباداته المفعمة بالوجـدان والخير.. فكان بحق واحداً من خيار مستشـرقي الإنكليز في أعقاب العصر الڤيكتوري، فذكّرنا بمن سبقه من الإنكليز في ذلك وعلى رأسهم ولفريد سكاون بلَنت Wilfred Scawen Blunt ووليَم مارمادوك پيكثول William Marmaduke Pikthall.

على ذلك كلّه، تبقى لهذا الكتاب وهذه الرّحلة قيمة كبيرة حقاً، لا من حيث المغامرة والمتعة وحسب، بل ومن حيث كونها جاءت في فترة مفصليّة من العلاقات بين الغرب والمشـرق الإسـلامي، ثمّ تلتها أحداث أكثر دراماتيكيّة وسيناريوهات حربيّة وسياسيّة بعد 8 أعوام و 12 عاماً.. أعني أولاً اشـتباك الإنكليز وقوّات شـريف مكّة الحسـين ابن

علي مع الأتراك 1916–1918 إبّان الحرب العالميّة الأولى، ثم قيام الإنكليز والفرنسيين عقب انتصارهم في الحرب باجتياح المشرق العربي تحت مظلّة الانتداب، الذي كان غطاءً لاستعمار سياسي بحت.

هـذه الأحداث تمخّضت عن أحداث جسيمة، سنرى وقائعها في كتب قادمة في هذه السّلسلة، وأفسحت المجال لظهور شخصيات مهمّة من الإنكليز لعبت أدواراً محوريّة في سياسة المنطقة، من أمثال الفيلد مارشال آلِنبي والكولونيل توماس إدوارد لورَنس، ومِس غرترود بِل، والسّير پرسي كوكس، والجنرال جون باغوت غلوب، وهاري سَنت جون فيلبي وبرترام توماس.

لقد كان هؤلاء نتيجة حتميّة للطموح البريطاني الذي نما وتعاظم إبّان العصر الڤيكتوري (عصر پالغريڤ وپيلي وبُرتون وداوتي وبلَنت)، هذا الطموح الذي سار في تنافس محموم إلى جانب الطموح الفرنسي فبزّه وفاقه، ثم لم ينجح التنافس الألماني العدائي في إيقافه رغم المعارك الطاحنة إبّان الحرب العالميّة الأولى. لقد كان رحّالو العصر الڤيكتوري إرهاصاً لهذا الطموح العلمي والسّياسي في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر، وكان يقود التنافس آنذاك الجمعيّات الجغرافيّة في كلّ من لندن وپاريس وبرلين.

أمّا تلك الطبقة من الرّحّالين العسكريين والسّياسيين والجواسيس التي ازدحم بها مشرقنا العربي في أعقاب الحرب الأولى بعشرينيات القرن العشرين، فكانت مؤهّلة لتقطف ثمار النّصر، ولتحكم سيطرة بلادها الثقافية والسّياسيّة والاقتصادية على مشرقنا العربي. وبين هاتين الطبقتين، من عام 1863 إلى 1918 وعشرينيات القرن العشرين، مرّت فترة هدوء مريبة تشبه الهدوء قبل العاصفة، يوم لم يكن أحد يعرف إلامَ ستؤول إليه أحوال المشرق ومتى يسقط «رجل أوروبا المريض» (الدّولة العثمانيّة)، وكيف ستقتطع دول أوروبا تركتها الثمينة..

في هذه الفترة الحرجة من الهدوء المشوب بالحذر، جرت الرحلة التي نقدّمها اليوم لقرّاء العربيّة للمرّة الأولى، وقلّ من سمع بآرثر جون واڤل. وسيكون من الممتع

جـداً للقارئ مقارنتها برحلـة الألمانيّة دوروتيا فون لينكِه (الكونتيسـة مالمينياتي) إلى المدينة المنوّرة عام 1914، ورحلة البريطاني جون فراير كين إلى مكّة والمدينة في عام 1877 وكان عمـره 23 عاماً. وأغرب ما فـي الأمر أن كين ظلّ حياً حتى عام 1937، بينما لقي واڤل حتفه شاباً في إفريقيا عام 1916 على يد الألمان.

* * *

صدرت الطبعة الأولى للكتاب بلندن في حياة المؤلف عام 1913، بعد قيامه بالرّحلة بخمسة أعوام، وهذه الطبعة تضمّنت قسمين: رحلة الحجّ إلى مكّة عام 1908، وحكاية حصـار الأتراك لصنعاء في عام 1910. وفي هذه الطبعـة بضعة صور فوتوغرافيّة يروي واڤل أنه طلب تصويرها من موظف تركي. وصدر الكتاب عن دار كونستابل للنشر في 345 صفحة بعنوان:

A Pilgrim in Mecca and a Siege in Sanaa

Constable, London, 1913.

ثم في عام 1918، صدرت طبعة أخرى للكتاب، بعد سـنتين من وفاة واڤل، مصدّرة بمقدمة للميجور داروين Leonard Darwin الرئيس السّابق للجمعيّة الجغرافيّة الملكيّة Royal Geographical Society الـذي تعـرّف بواڤـل عقب قيامـه برحلة حجّه، فأعجب بـه ودعمه. وهذه الطبعة تقتصر على القسـم الأول، الذي يضمّ أخبار رحلة الحجّ التي تمّت في خريف عام 1908، وهو ما ننشره اليوم.

نشـير هنـا إلـى أنّ المؤلف قد صـدّر كتابه بمقدمة عن نشـوء الإسـلام، وعن دوره الحضاري قديماً وفي عصر الرّحلة، ولا بدّ للإنصاف من أن نقول إنّ كلامه كان ضمن حـدود ملائمـة جداً من التجـرّد والإنصـاف والموضوعيّة والاحتـرام. ولمّا كان يذكر سـيّدنا ونبيّنا محمّداً باسـمه المجرّد، فيشـرّفنا هنا في المقدّمـة أن نضيف: عليه أفضل الصّلاة وأتمّ التّسليم، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

* * *

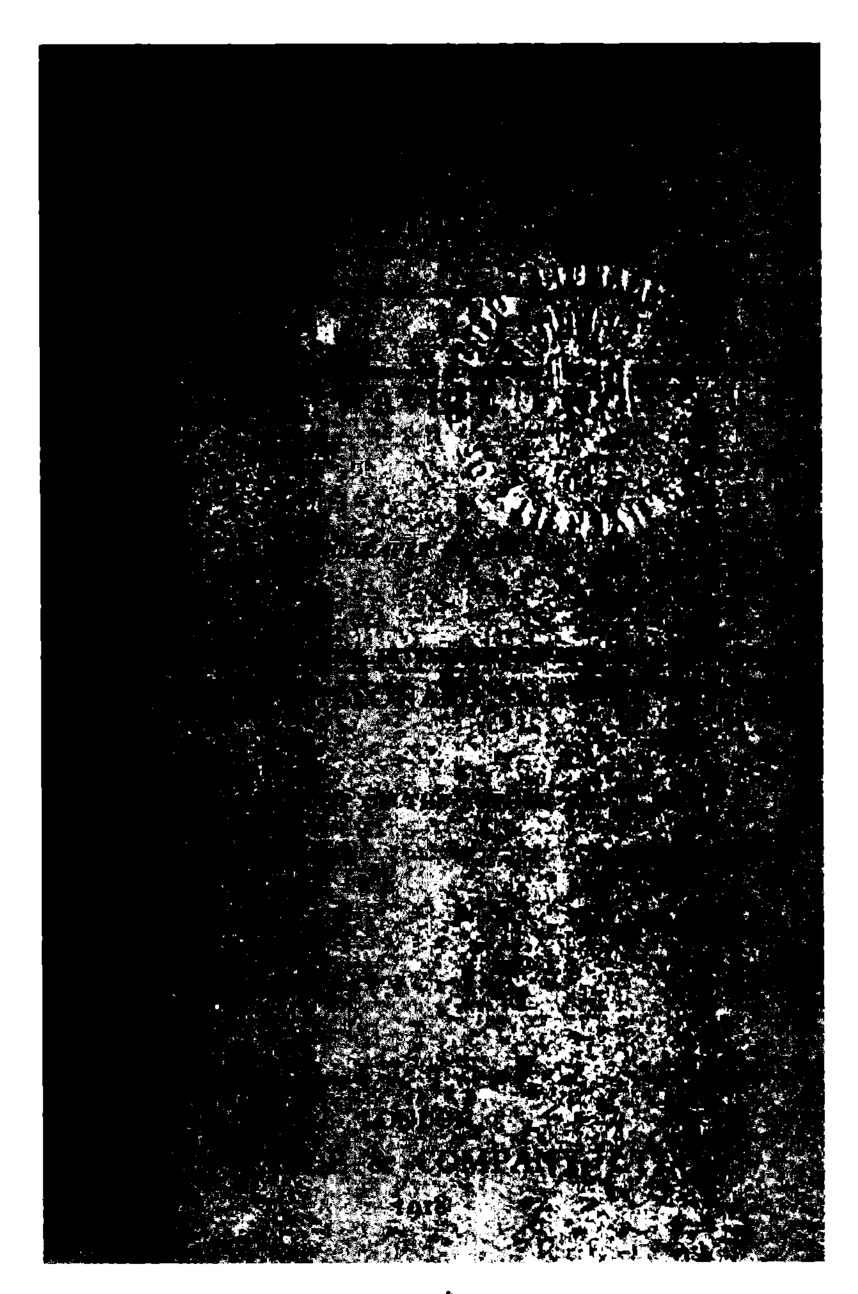
أخيراً، ستكون لنا عودة مع بطلنا الجريء خفيف الظلّ، بأسلوبه السّاحر وأحداثه الغريبة، في حكاية مغامرته الشائقة باليمن عام 1910، استناداً إلى الطبعة الأولى للكتاب.

ولله جلّ وعلا الحمد على ما وفّق وأعان.

بيروت، غرّة فبراير 2011

د. أحمد إيبش

* * *



نموذج عنوان الطبعة الأصلية للكتاب، لندن 1918



الميجور آرثر جون بينغ وافل، دمشق 1908

الميجور آرثر جون بينغ واڤل
من فرقة عرب واڤل

عندما كنتُ رئيساً للجمعية الجغرافية الملكية، طلب أحدهم مقابلتي بغرض اقتراح رحلة استكشافية في مجاهل جزيرة العرب. فدخل غرفتي يافعٌ قد لوّحته الشمس، مربوع القامة، خفيف الوزن بشكل لافت، وأخذ يناقش اقتراحه للاقتراض من الجمعية لشراء بعض معدّات الرحلات، ببعض من الخجل والقليل من الثقة بالنفس إن اسعفتني الذاكرة جيداً. كان كلما تابع في حديثه، راودتني نفسي أن ألقي عليه محاضرة حول المهارة المطلوبة لرحلات من هذا الطراز، إلى أن، ولحسن حظي، قال بهدوء، وكأن الكلمات خرجت من فيه قسراً للمناسبة: «لقد دخلتُ مكة والمدينة متنكراً». بعد هذه المقابلة، تابعتُ سيرة آرثر واڤل باهتمام بالغ، حيث أني شعرت أنني كنت على اتصال بشخصية فذّة.

لم يكن التعرّف على هذا الرحّالة، الذي ما نشر مذكراته إلا بعد عودته، وسبر أغواره سهلاً حتى من قبل شخص أكبر منه سناً، لقد كان خجولاً وقليل الكلام خصوصاً في اللقاءات العامة. إنما حتى خلال هذه اللقاءات، كانت سرعة بديهته تظهر من حين إلى آخر بقصد منه أو دون قصد. أمّا في محيط من الأصدقاء المقرّبين وأجواء لطيفة، فقد كان حديثه ممتعاً وذكياً وكان يظهر أشد حماسة في سرد تفاصيل مواجهة الأخطار. من لا يعرفه جيداً يخطئ في وصف ما يتحلّى به، حيث أن بنيته الضعيفة لا تفصح عن قدرته الفائقة على التحمّل. أما بالنسبة لقدراته العقلية فقد كان متمكناً من اللغة العربية، بالإضافة إلى معرفته باللغة الفرنسية المحكية، واللغة الإيطالية واللغة

السّـواحليّة. أضـف إلى ذلك معرفـة فائقة بالطب، وامتلاكه كل تلـك الخصائص التي تجعـل منه رجل أعمال ثاقـب النظر. إنما مع هذا كله، فإن قدراتـه العقلية النيّرة كانت قليلاً ما تظهر إلا أمام من تعرّف عليه عن كثب في تلك البلاد البعيدة.

* * *

يتحـدّر آرثـر جون بينغ واڤل، الذي ولد في 27 مايو سـنة 1882، مـن عائلة محاربة. فوالده الجنرال أ. هـ. واڤل، خدم إبّان شـبابه في شـبه جزيرة القِرَم ومن ثم في أكثر من حملـة في جنوب إفريقيـا، وجدّه، الجنرال أ. ج. واڤل، خدم في شـبه الجزيرة وأماكن أخـرى. أما من جهة عائلة والدته، السـيدة بينـغ، فإنه ينحدر من سـلالة أدميرال بنفس الاسـم انما بسـمعة سـيئة. درس واڤل في ونشسـتر وساندهرسـت، وبعدما انضم إلى فصيـل ويلز سـنة 1900، أبحر إلـى جنوب إفريقيا في السـنة ذاتها، فعلى ذلك، وسـيراً على خطى والده، فقد شـارك في العمل العسكري قبل أن يصبح في التاسعة عشرة من عمره.

بعـد أن خـدم إلى نهايـة الحرب في فصيله وفـي فصيل الخيالة، اسـتُخدم واڤل في معاينة إرسـال التقارير عن عدد من مسـتعمرات جنوب إفريقيا البريطانية التي لا يُعرف عنها الكثير، ممّا كان برهاناً أنه قد أظهر مقدرة متميّزة. بدأ عمله هذا أولاً بالسـفر لمدة سـتة أشهر في مواطن سوازيلاند والتونغا وزولو الشـمالية، حيث ألّفت تقاريره الجزء المهم لمعلومات المكتب الحربي السـرّية عن هذه المناطق. وثمّة وثيقة سـرّية أخرى له سجّلت نتائج رحلة شاقة وطويلة إلى بلاد غير معروفة في شمال بيكوانالاند، «وقيل عنها رسـمياً إنها نمّت بنتائـج مقبولة». في المدة بين يوليـو 1904 ونهاية أكتوبر 1905، كان الميجـور يسـافر مـع أهالي المنطقـة فقط، ولـم يشـاهد أي رجل «أبيـض»: فبينما أهمل نتائج هكذا تنقل بين الأهالي على نفسـه، لم يكن ليعرّض أهالي جنسـه لمخاطر من هذا النوع، حيث كانت هذه المخاطر جسـيمة. ففي إحدى المناسـبات، حين كان يتنقل في أراض تابعة لقبيلة معادية، تسبّب في تعرّض نجل رئيسها لعقاب أمام العامة، لاعتقـاده أن الوسـيلة الوحيـدة لحماية نفسـه وأمّته هي فـي إدهاش كافة أفـراد القبيلة

عـن طريـق الإيمان بقدرة الرجل الأبيض حتى لو كان في الثالثة والعشـرين من العمر. بعـد هـذا العقاب، أصبح الرئيس أكثر ليناً وأكثر مسـاعدة، وبالفعـل، فقد بلّغ واڤل في تقاريره أنه وجد السـكان المحليين «في كل مكان مسـالمين»، وهذه حالة استثنائية، إنمـا تواجـه في إفريقيا كثيراً من قبل الذين يعاملون السـكان المحليين جيداً (رحلة في مجاهل الصّحراء إلى شـلّالات ڤيكتوريا دون مواجهات)، وفي الواقع، بالإشـاره إلى طبعـه المميّـز، فقد عاش تجربـة ممتعة للغاية، إلـى أن وصل إلى منحـدرات زامبيزي المائيـة، حيث غرق زورقه، وخسـر ما يملـك. إنما وبمعجزة تقريبـاً، طافت ممتلكاته الثمينـة، وخرائطـه ومدوّناته، على الماء وكان سـهلاً التقاطها، متضـرّرة من الماء إنما مقروءة. لكن للأسـف، لم يُنشـر أي مقـال عن تلك الرحلات المثيـرة والتي قد تكون مثيرة للاهتمام.

* * *

بعـد أن تـذوق واڤل حيـاة المغامرات والاسـتقلال، أصبح نظـام الجيش لا يطاق، ولذا، ترك الخدمة سـنة 1906 ليلاحق عملاً أكثر قبولاً له في أراضٍ بعيدة. فتوجه أولاً إلى شـرق إفريقيا، لممارسـة رياضتـه المفضلة ألا وهي الصيـد. وعندما وجد أن تلك البلاد تفتح بسـرعة، ابتاع لنفسـه أرضاً في نيالي بالقرب من مومباسا، حيث أصبح من روادي اقتصاد سيسـال، والتي أصبحت مركزاً مهمّـاً لتجارة تلك المنطقة. وهنا، تعلّم اللغـة العربية، وهنـا أيضاً، وجد أن حياته لا تقدّم له إثارة كافيـة، فقام بتبني فكرة زيارة مكّة، المدينة الإسلاميّة المحرّمة، متنكراً، حيث كانت من أخطر المغامرات التي اختار القيام بها.

إن النجاح الذي توّج مسـاعيه سـنة 1908 مدوّن في هذا المجلد، والذي هو عمل لا يحتـاج إلـى مقدّمات. وإذا لم يجد أيّ من قرّائه متعة في قراءة أسـلوبه السـاحر، أو لم يقدّروا ومضات الفكاهة فيه، أو لـم يشـعروا بدافع لتتبعه في مغامراته، فإنني إذن أعجز عـن تقديـم أيّ مديح لكتاباته لجـذب اهتمامهم، ولهذا فلن أقـوم بهكذا مقدمات. في النصف الثاني من هذا العمل، والذي أعيد نشره في هذه السلسلة في تاريخ لاحق، قدّم

وصفاً واضحاً لمحاولة فاشلة سنة 1910 ليتقدّم من صنعاء، التي كانت تحت سيطرة الأتراك حينذاك، إلى المنطقة المحتلة من قبل العرب الذين كانوا يحاربون لاسترجاع حريّتهم من الأتراك المستبّدين، وقد نالوا حريتهم منذ وقت قريب. وفي هذا المقام أيضاً، فإنّ أيّة مقدمات أو ملاحظات على الكتاب قد تقلل من الإثارة في مدوناته عن سوء معاملة الأتراك له خلال أسره.

* * *

في سنة 1913، سُجّل اسم واڤل كملتحق في الاحتياطي الخاص لفرقته السابقة، وعندما بدأت الحرب في السنة التالية، وجد واڤل نفسه بعيداً عن موطنه في مزرعته الشرق إفريقية. كانت ردّة فعله الأولى أن يعود إلى إنكلترا للاشتراك في الحرب، إنما لم تكن السلطات المحلية لتسمح له بهذا، حيث أنّ الدّفاع عن مومباسا، نقطة انطلاق ونهاية السكة الحديدية، كان أمراً بالغ الأهمية ويتطلب الاستحواذ على الجنود المدرّبين في المنطقة.

تكوّنت في البلدة فرقة صغيرة من المتطوّعين، ثمّ، وبمبادرة شخصية، قام واڤل فوراً بالعمل على تجنيد العرب المحليين، وكان معظمهم من العاملين بنقل الماء. لم يكن واڤل أبداً عمياً عن المهمة الخطرة أمام المدافعين، وكأنما مواجهة الصعوبات القادمة أيقظت روحاً مرحة فيه بدلاً من أن تقتلها. لقد كان أمر تكوين هذه الفرقة بالنسبة له أمراً مضحكاً، وبالرغم من كل شيء، فلقد ضحك واڤل خلال هذه الفترة أكثر من سنوات خلت، هذا ما أخبر به أصدقاءه. كان أفراده مسلحين ببنادق قديمة منسية لفترة طويلة في مخزن محلي للجيش. «معظم هذه البنادق كان يطلق النار بشكل لا بأس به، وبالمقابل، فإن كمية منها كانت تنفجر عند الاستعمال». كان هذا سرداً غير رسمي لتكوين وتسليح «فرقة واڤل من العرب»، التسمية التي عُرفت بها الفرقة بداية، ثم طلب واڤل لاحقاً أن تسمّى «بنادق العرب».

هذه الفرقة الصغيرة، والتي بدأت بأقل من مئة محارب، استحقّت التقدير بوقت قصير في حرب شرق إفريقيا. في هذه الأثناء، كانت الخطة الألمانية للهجوم تتبلوّر،

فقد قرّر الألمان التقدم بسرّية برّاً بمحاذاة الطريق إلى مومباسا، وفي الحقيقة كانت هذه الطريق من أوحش ما يمكن تصوره، وفي نفس الوقت كانت البلدة تُقصف من البحر. قدّر واڤل خطر انتظار الهجوم قرب البلدة حين حصل التهديد، ولذا، ومع مئة رجل أو يزيدون من فرقته المكوّنة من العرب، ومن عدد قليل من الأوروپيين المتطوعين، وبعض أفراد الشرطة المحلية، قام واڤل بالتمركز في مارجوريني مقابل سواحل مومباسا، حيث أنّ مومباسا تقع على جزيرة.

وقع الهجوم الألماني على واڤل في 25 أغسطس سنة 1914، لعدّة ساعات من قبل قوّة تفوقه عدداً وعتاداً، حيث أن الألمان كانوا يمتلكون أسلحة حديثة الصنع حُرمت منها فرقته. حارب رجاله كأنهم كانوا جنوداً طوال حياتهم، وما أدّى إلى هزيمة الألمان في ذلك اليوم كان فشلهم في السيطرة على الموقع الذي تراجعت إليه فرقة واڤل. هنا، أصيب واڤل في كتفه وتحطم القسم الأعلى من عظام ذراعه بشكل سيّء، أما أسلحته فقد كان عملها مما أثاره من الضحك لدرجة أن جراحه أوشكت أن تنزف من جديد. بالرغم من ذلك، فقد أثبتت فرقته جدارة في العمل، حيث نسمع من واڤل أن العدو لم يقاوم وابل الرّصاص منهم، لكن عندما تتالت القطع الحديدية الصغيرة كل بضع دقائق، قرّر العدو أن «يرجع إلى دياره».

لقد صدّ واڤل هجوماً بمزيج من الشجاعة، والمهارة، والخداع، حيث يُعدّ هذا الهجوم مقارنة بعدد أفراده، قادراً على أن ينهي المعركة بسيطرته على البلدة مدمّراً جسر السكة الحديدية الطويل. ليس كثيراً أن يقال إن مسؤولية سلامة مومباسا وقعت على واڤل، وعليه وحده.

* * *

بعد قضائه حوالي شهرين في المستشفى، وقبيل شفائه، انضم واڤل إلى فرقته ثانيةً، ومُنح لقب ميجور (رائد) تقديراً له على خدماته. لا غرو أنه كان يودّ العودة إلى فرقته ورجاله، فقد كان حائزاً على جزيل الحب والاحترام، حيث اجتمعت عدّه ظروف لتعطيه تأثيراً كبيراً على جنوده المسلمين، من ضمنها إلمامه باللغة العربية، وشجاعته

وسـجاياه، ورحلته إلى مكة المكرّمة. وبالرغم من أن ذراعه لا زالت عديمة النفع بعد الإصابة، فإن الوطن لا يسـتطيع الاسـتغناء عن خدمات أمثاله من القادة. فأعطي واقل مركزاً قيادياً في مويلِه Mwele، استُحدث لحراسة خمسين ميلاً من السكة الحديدية في أوغندا، وهنا كان ولعدة اشهر على الجبهة الأمامية مع العدو، الذي كان يشنّ هجومات متوالية على وسيلة التنقل الهامة هذه.

فـي ينايـر 1916، وصل تقريـر بأن فرقة مـن الألمان وصلـت إلى نقطة تبعـد ثمانية أميال من مركزه، وفي اليوم التالي، الثامن من يناير، انطلق واقل مع ثمانية رجال لسـبر غورها أو للهجوم عليها، بحسـب مقتضى الحاجة. فما فتئت فرقته أن أصبحت تحت وابـل كثيـف من النيران من قـوّة معادية مختبئة في دغل، ولسـوء حظه، فجّرت إحدى الرصاصات الأوليات صندوقاً من القنابل كان قريباً منه فأصيب في سـاقه ووقع. لكنه سـرعان مـا انتصب قائماً وبدأ باطلاق النـار من بندقيته خفيفة الوزن بذراعه السـليمة، لكنـه أصيب في صدره وقُتل، فاضطرّت فرقته إلـى أن تتقهقر، ودُفن واقل هناك، قريباً مـن الألمان، الذين وضعوا صليباً على قبره وكتابة تقول: «هنا يرقد ضابط شـجاع قدّم عملاً رائعاً منذ بداية الحرب».

هنا انتهت حياة بأقل من أربع وثلاثين عاماً. حياة، لو استمرّت، لكانت مهمّة لوطننا، حيث أنه كان رجلاً من بنّائي الإمبراطوريات.

1918 ليونارد داروين

* * *

من مقدمة الكاتب إلى الانطباع الأول

قد تُعدّ الرّحلة من مكة إلى المدينة تجربة غير اعتيادية، خصوصاً أنه قد مرّت سنون كثيرة منذ أن تحدّث رجل إنكليزي عن تطفله على تلك المناطق.

ليس باستطاعتي إعطاء قيمة علمية لهذا العمل، سوى اعتباره عملاً تمهيدياً.

أما من حيث كتابة الكلمات العربية، فإنني لم اتّبع أيّة طريقة معروفة. يبدو لي أن تعلّم الاستعمال الصحيح للّهجات والعلامات المميزة مصدر عناء أكثر من تعلّم الحروف العربية نفسها. لذا، وفي حالة أسماء العلم، التزمتُ بالتهجئة المتبعة، وللكلمات الأخرى، حاولتُ أن أعرض الأصوات الصحيحة بقدر المستطاع بالأحرف الإنكليزية. والنتيجة - كما أعترف بها - ليست مرضية، والتطابق ليس تاماً دائماً. إنما من المفيد هنا توضيح الحاجة إلى وسائل جديدة في هذا المضمار. لقد قمت بأفضل ما عندي في إدراج أقل عدد ممكن من الكلمات العربية في النصّ، وحاولتُ تجنّب العادة المزعجة في قولبة العبارات الاصطلاحية الشرقية بكلمات إنكليزية.

إنني مدين لكتاب السيد د. ج. هوغارث، «ارتياد جزيرة العرب» للكثير من المعلومات الجغرافية، وأما بخصوص الحقائق التاريخية فأنني مدين لكتاب البروفسور د. مرغوليوث «محمّد»، وكتاب «محمّد وخلفائه» لواشنطُن إرڤينغ، ولكثير من الكتّاب العرب.

أ. ج. ب. و.

رحلة حديثة إلى مكة

مقدمة

إنــه لمن الواجب تقديم الاعتــذار في مقام كتاب من هذا النــوع يبحث في جغرافية جزيــرة العــرب والأقوام الذن يتبعون أحد الأديان الأكثر انتشــاراً فــي العالــم، حيث أن حيثيــات الاثنيــن تعتبر معرفة عامــة. إنما، ومن خبرتــي الخاصة، أعتبــر أن الأمر ليس كذلــك، وحيث أن فهماً عاماً لهذه المســائل ما برح ضروريــاً لأي اهتمام قد تؤدّي إليه هــذه التجارب، فإني أفســح بعضاً من المجال هنا لإطلاع قرائــي الذين لم يجدوا وقتاً لدراسة مواضيع تتعلق بالشرق.

إن جهلنــا بجزيــرة العرب قد يُعــزى إلى ندرة الأدب المكتوب فــي هذا الموضوع، وخصوصــاً فــي الأدب الإنكليــزي. ولا تُعــدّ هــذه النــدرة مســتغربة، فعندمــا ننظر في شــخصية جزيرة العرب وســكانها. بالرغم من أنّ مســاحة شــبه الجزيرة تقارب مليوناً ونيّفاً من الأميال المربعة، أي بمعنى آخر، بالرغــم من أنها أكبر مساحة من الهند جنوباً، فإنها تحوي على خمس من المدن الداخلية الأكثر أهلية بتسمية مدينة. هذه المدن هي، بحســب أهميتها: مكــة، المدينة، صنعاء، حائــل، الرياض. أما حائــل والرياض فإنهما تســمّيان مدينتين لأنهمــا عاصمتان للحاضــرة. وبالإمكان تعداد الزائريــن الأوروپيين لجميع هذه المدن بغير صعوبة.

ومن نافل القول: أولاً، قطع الشــك بزيارة أيّ مســيحي مجاهر بمســيحيته لمكة أو للمدينة المنورة منذ عصر النبي. إن الأوروپيين الذين دخلوا مكة خلال مئات الســنين

الماضية لا يتعدّون الاثني عشر[1]، وأربعة منهم، بما فيهم الكاتب، كانوا من الإنكليز. أمـا زائـرو المدينة المنوّرة فـإنّ عددهم أقل من ذلك. إن المسـافرين إلى تلك الأماكن قد قاموا برحلاتهم تحت غطاء إحدى طريقتين: الأولى إشـهار إسلامهم علناً، والثانية بالتنكّر. أما بالنسـبة للطريقة الأولى، فإن عدداً من الغربيين الذين أشهروا إسلامهم قد قاموا برحلة الحج هذه دون شـك، وعلى الأرجح أن العديد من الأوروپيين الملحقين في الخدمة في مصر، والذين ارتدّوا عن المسيحية، وجدوا طريقهم إلى هناك في عهد احتلال محمّد علي باشا للحجاز، إنما لم يسجل أي منهم تجربته تلك[2].

إن أول وصـف دقيـق لمكـة مدوّن بلغـة أوروپية هـو للمدعو «علي باي»، إسـپاني الجنسـية، في سـنة 1807. أما الرحالة السويسـري المعـروف بوركهـارت، والذي عُدّ مسـلماً حقيقياً من خلال إقامته الطويلة في الشـرق، فقد ذهب إلى مكة في 1814 وترك لنا بياناً علمياً مفصلاً لرحلته. وتبع بوركهارت عام 1853 السيد ريتشارد بُرتون، والذي قام بتلك الرّحلة متنكراً بزيّ طبيب هندي، ومن ثم كين، إنكليزي آخر، عام 1877.

وفي عام 1885، قضى الطبيب الهولندي هورخرونْيِه عدّة أشهر في مكة خارج موسم الحج. إن كتابه، العمل الأكثر شمولاً في هذا الموضوع الذي بين أيدينا، مكتوب باللغة الألمانية، وللأسـف لم تتم ترجمته. وقائمة الزوّار إلى صنعاء تضم عدداً أكبر، إنما قد لا يتعـدّى العشـرين، بينما ليس هناك أكثر من سـتة أوروپيين قـد رأوا حائل في العصر الحديـث، واثنان فقـط وصلا إلى الرياض، وهما پالغريف سـنة 1863، والجنرال پيلي

---

(1) كتب المؤلف: هذا الكلام يستثني الأوروپيين المسلمين، مثل الألبان والروس، وأيضاً معتنقي الإسلام، وعددهم غير مؤكد. ولا يتضمن العدد أولئك الذي أجبروا على التواجد هناك كأسرى، وكمثال على ذلك السيدة الانكليزية التي وجدها «كين»، ولا البعض الذين يُعتقد أنهم هلكوا هناك.

(2) معنى ذلك أن واڤل لم يدر بالإيطالي جوڤانّي فيناتي Giovanni Finati (الحجّي محمّد)، الذي أسلم ورافق قوّات طوسون باشا في عسير والحجاز عام 1811. وقد دوّن فيناتي أخبار مغامراته ثم نشرت بالإنكليزية في جزئين:

Narrative of the Life and Adventures of Giovanni Finati, edited by William John Banks, London, 1830.

سنة 1864[1].

بناء على ما سبق، يكون من المفهوم لمَ بقيت هذه الأماكن غير معروفة إلى العالم مع أنها وصفت، ووصفت جيّداً من قبل الرحّالين الغربيين من عدّة جنسيات. إن جزيرة العرب، بالرغم من قربها من أوروپا، تُعدّ نسبياً غير مكتشفة، حتى من وجهة نظر جغرافية، والقليل من الأخبار المتعلقة بما يحصل هناك، حتى في الأجزاء الأكثر تمدناً، تجد طريقها إلى الظهور في الصحافة الأوروپية.

* * *

إن الشكل الطبيعي العام لشبه الجزيرة يبيّن بوضوح عند وصفها بأنها منبسط مستطيل الشكل، مع بعض النتوء عند زاويتها الجنوبيّة الغربية. ساعدت الأحوال الجوية على تفتيت النتوء ونشره فوق باقي شبه الجزيرة. إن تواجد هذه المرتفعات يساعد أيضاً على ترسّب للرطوبة التي تحملها الرياح الموسمية الجنوبيّة الغربية من المحيط الهندي في غير أوانه، مقارنة مع الوسط شحيح المطر. وثمّة سلسلة جبال حقيقية واحدة، بحسب معرفتنا إلى الآن، وهي «الجبل الأخضر» في عُمان، حيث أن الهضاب الجبلية في الجنوب الغربي لشبه الجزيرة هي مجرّد الحافة المكسورة للمنبسط. أما المجاري المائية الرئيسة، والتي تتّجه، كقاعدة، باتجاه شمالي شرقي نحو الخليج العربي، فهي مجرّد قيعان للسيول لا تتضمن مياهاً دائمة فوق الأرض، بالرغم من أنّ الكثير منها تمدّ السكّان الحَضَر بمحاذاتها على مياه كافية بشكل أو بآخر عن طريق آبار غائرة فيها.

وكما قد يكون متوقعاً، وتحت هذه الظروف، فإن معظم هذه الأرض عبارة عن صحراء. وفي الواقع، هناك عدة أنواع من الصحارى في جزيرة العرب، تتفاوت نسبة الجفاف فيها. فمثلاً، صحراء النّفود، وبسبب شحّ الماء، لا تجد فيها مجموعات سكّانية مستقرّة، لكنها ليست جدباء تماماً، بل تتيح مراعي للقطعان في بعض المواسم

(1) بل الأصح في عام 1865، ولقد قمت بترجمة كتابه *A Journey to Riyadh*، وصدر في هذه السلسلة «روّاد المشرق العربي» عام 2010.

خلال السنة. وهناك صحارى من الحمم البركانية، وصحارى جبلية وأخيراً «الرّبع الخالي» كما يسميه العرب، الذي يمتد على كامل القطاع الجنوبي الأوسط. نعرف القليل أو لا شيء عن الرّبع الخالي، فهو غير مستكشف[1]، وحتى الجغرافيّون العرب صامتون إزاءه، ممّا يدعو إلى الافتراض أنه قَفر منيع من الرّمال، إنما قد يتواجد فيه جبال وبحيرات أو حتّى مُدن إلى أن يثبت العكس. يمتدّ الربع الخالي ثمانمئة ميلاً، ممّا يسمح بتكهّنات مثل هذه، حتى لو كانت بعيدة الاحتمال.

إن الصّحارى في جزيرة العرب منتشرة على مساحات واسعة، تتخللها مناطق بظروف أفضل باستطاعتها أن تعيل البدو الرُّحّل وفي حالات نادرة، تسمح باستقرار مجموعات سكانية. إن الزاوية الجنوبية الغربية المرتفعة مرتوية جيّداً وخصبة عموماً. أما الوادي الكبير في حضرموت، الذي هو امتداد لهذه الزاوية وينتهي عند بحر العرب، فهو مكتظّ بالسكّان على نحو مقبول. والوديان التى تنتهي إلى الخليج مأهولة في مناطق متفرّقة. ولا غرو أن تجد الواحات في تلك الصّحارى ما عدا في الصحراء الجنوبية الكبيرة.

بالنظر إلى تساقط الأمطار، فإن الحدود الغربيّة وعُمان هي أكثر المناطق المُنعم عليها. فالحدود الغربية تستقي كل ما تحتاج إليه، لكنها تفتقد هذه النعمة كلّما اتجهت شمالاً، فتصبح الأرض جدباء. أما في الحجاز، فلا تتوافر الخصوبة كثيراً خلا بعض الواحات القليلة، كما في الطّائف والمدينة. ويُعزى توافر المياه في عُمان بالمقارنة إلى

---

(1) طالما أنّ هذا الكلام كان قبل عام 1916، فمن الصحيح أن الرّبع الخالي كان ما يزال آنذاك في حكم المجهول بالنسبة إلى الرّحالين. لكن هذه الغاية والمغامرة العُظمى لبثت تتردّد في أذهان رحّالي الإنكليز كافّة، إلى أن تمكّن منها في النّهاية المغامر الجسور برترام توماس Bertram Thomas الذي كان وزيراً لدى سُلطان عُمان، فتوجّه إلى ظُفار عام 1928 ثم اجتاز الرّبع الخالي عام 1930. ودوّن وقائع رحلته هذ في كتاب نفيس له بعنوان: *Arabia Felix* (قمت بترجمته لهذه السّلسلة). تلاه هاري سنت جون فيلبي Harry St. John Philby في عام 1932، ثم ولفريد ثِسيجَر Wilfred Thesiger الذي اجتازه مراراً بين 1946-1948 ، فكان بحقّ آخر جيل رحّالي أوروبا الأصيلين في جزيرة العرب (توفي مؤخراً 2005).

سلسلة جبال شامخة تتكوّن من صخور بركانيّة، وما عدا ذلك، فإن السواحل الجنوبية والشرقية جافّة وقاحلة.

* * *

بالانتقال من الدراسة الطبيعية إلى الجغرافية السياسية لشبه الجزيرة، نلاحظ أن البلاد المحاذية للساحل تدار أعمالها أو بالأحرى هي «محميّة» من قبل القوى الأوروپية، بينما تبقى المجتمعات في المناطق الوسطى مستقلة. أما ساحل البحر الأحمر بكامله وما خلفه، فيشتمل على أقاليم عثمانية ثلاثة: الحجاز، وعسير، واليمن. وتتبنّى بريطانيا العظمى شبه جزيرة عَدَن، وتحمي منطقة صغيرة من البرّ الرئيسي بالإضافة إلى بعض المدن الأخرى على الساحل الجنوبي. وتُعدّ مسقط سلطنة مستقلة بهيمنة بريطانية. وتعود السلطة في ساحل الخليج إلى شيوخ القبائل المتصالحة، ومنهم من توصّل إلى ترتيبات مع حكومة الهند، وآخرون في الشمال يعترفون بالسيادة التركية.

إنّ حائل والرياض عاصمتان لدولتين عربيتين مستقلتين تفصلهما صحراء نَجد، وهي القسم الأوسط المأهول في جزيرة العرب. وهما إمارتان، تدينان بالمذهب الوهابي[1]، الذي سيُفصّل بشأنه لاحقاً، وهما في حالة حرب مستمرّة. تبنّت الحكومة العثمانيّة حماية هذه البلاد على أساس مقاربة السّلطان إلى الخليفة. ولذا، فإنّ سلطان تركية، كونه «أميراً للمؤمنين»، يستطيع المطالبة بولاء المسلمين له، والقبول الذي قد يلاقيه في الهند أو بلاد فارس يعادل ما يلقاه في أيّ جزء من صحراء نجد.

إنّ سكّان شبه الجزيرة ينتمون إلى العرق السّامي، بمعنى آخر، هم من نفس عرق اليهود، والذين يشبهونهم في كثير من النواحي.

كتب أحد الأدباء العرب عنهم ما يلي: «تاريخ هذا العرق من أغمض ما يكون، لكنهم مصنّفون في ثلاثة اقسام: العرب البائدة، والعرب العاربة، والعرب المُستعربة.

---

(1) هكذا كتب المؤلف، والتسمية الصحيحة: حركة الإصلاح السّلفي، التي هي على المذهب السّنّي الحنبلي، ومؤسسها الشيخ محمّد بن عبد الوهاب.

أمـا البائدة فهـم الأقدم، ويُعرف عنهـم القليل، مثل قـوم عاد وثَمـود وجُرْهُم الأولى. والعاربـة، وهـم العرب الحقيقيّون، فهـم أهل اليمن، أي بنو قحطان. والمسـتعربة، أو العـرب بالتبنّـي، فهم ذريّة إسـماعيل بن إبراهيم، حيـث اتصل بجُرْهُـم الثانية من بني قحطـان وتـزوّج من تلـك القبيلة. تسـمّى ذريّته بالعـرب المتبنّين، لأن إسـماعيل كان يهـوديّ الأصل واللّغة[1]. ومن العاربة والمستعربة، انحـدرت قبائل العرب المعروفة في يومنا هذا».

كان يقطان Jocktan (أي قحطان) ابناً لعابر بن شـالح بن أرفخشـذ بن سام بن نوح. وقد قيل إنه أول من تكلّم اللّغة العربيّة.

إنّ اللغتين العربيّة والعبرية متقاربتان، وهما المثال الحيّ الوحيد للمجموعة اللغوية التي تنتمي إليها الكلدانية والسّريانية ولغات ميّتة أخرى. يتوزّع العرب إلى قبائل، وهم بالأصـل بدوٌ رُحّل. والعرق العربي يتمتع بجمال فطـري، وقوام صغير ونحيل القامة، يتـراوح من السُّـمرة إلـى البياض. إنّ هذه صفـات قبائل البدو في نجـد والحجاز، ولا نتكلـم هنا عن المجموعات السـكّانية المسـتقرّة في الجنوب الغربـي والمتواجدة في المـدن، وليـس أيضاً عن المصريّين، أو المغاربة، أو السّـريان أو غيرهم، والذين يُطلق عليهم أيضاً لقب العرب. إن العربيّ الأصيل يمتلك ملامح معقوفة بحدّة، سبط الشعر أسـوده، وتقريباً أمـرد الوجه[2]. لقد صُوّر العربي عموماً كرجل شـديد السُّـمرة طويل مهيب المظهر ومُلتحٍ، لكن هذا وصف خاطئ.

---

(1) هذا الشائع لدى المؤلف وقومه بحسب مزاعم التّوراة، لكن ما هو مقبول لدينا ومُثبت يخالف ذلك تماماً. ومن غير المقبول على الإطلاق عدّ اليهود أصلاً لسلائل ما يسمّى زوراً بتعبير: «الشّعوب السّاميّة»، والأسخف منه عدّ اللغة العبريّة سابقة لسواها، فالواقع أنها ليست أكثر من لهجة كنعانيّة، تمّ فيما بعد إثراؤها بلغة كنعان المنتشرة على طول ساحل بلاد الشام وبلغة آرام المنتشرة في السّهول الدّاخلية، لكن قريباتها اللهجات العربيّة الجنوبيّة والشمالية (التي أفرزت العربيّة) تبقى أرقى وأوسع وأشمل وأغنى تعبيراً ونحواً ومُفردات، بما لا يُقاس أبداً.

(2) من الواضح أن المعطيات الأنثروبولوجية لدى المؤلف ضعيفة، وخير من استوفى دراستها علمياً كان الرّحّالة البريطاني برترام توماس، كما سنرى في كتابه الشائق: *Arabia Felix*.

إن هذين العرقين، العرب واليهود، بقدر تشابههما في المظهر والفكر، يختلفان كثيراً في أخلاقيّاتهما. فلقد أظهر العرب في الماضي قدرة ليس فقط على شنّ الحروب على نطاق واسع، بل على إدارة وتحضير البلاد المفتوحة. لقد بنوا لأنفسهم إمبراطورية أكبر من إمبراطورية روما، إنما عمّرت لفترة أقصر. لقد فرضوا لغتهم ودينهم على قسم كبير من سكّان العالم. أما بالنسبة للاقتصاد فإن أعمالهم وكفاءتهم التجارية متواضعة، وهم لا يوصفون بالمبذّرين. وبالنسبة لشمائلهم الشخصية فإنهم شجعان، دُهاة ذوو صلابة، صادقون بحسب عوائدهم الخاصة، ويحفظون وعودهم عند إعطائها. كما أنّهم معروفون بضيافتهم وشهامتهم في حماية الغريب.

* * *

إنّ ما سبق، باختصار، هو مواصفات البدو، أيّ عرب الصحراء الحقيقيّين. أما في المناطق العامرة في شبه الجزيرة، وفي الحاضرة، فقد تواضعت هذه الخصال مع الاحتكاك بأعراق أخرى. إن نظام الرقّ، مع العلم بالاعتراف بشرعية ذريّة الحرّ من الأمّة، هو المسؤول عموماً عن هذا. فعلى سبيل المثال، لدى جميع العرب في مَسقَط سلالة ذات أصول إفريقية، وليس نادراً أن تجد أفراداً يدّعون صلتهم بالنبي إنما يكونون من العرق الأسود. وفي المدينة، أيضاً، تزاوج مستمرّ مع الأتراك والأكراد والعجم ممّا طمس المعالم السّامية الأصلية، إلى أن أصبح السكّان ينتمون إلى العرب في اللغة والعادات فقط. أما في اليمن، فإن السكان كانوا من الحَضر المستقرّين مكرّسين أعمالهم للزراعة، مقارنةً مع البدو الرُّحّل الذين سبق وصفهم. تركت غزوات الأعاجم والأحباش أثرها على السكّان حيث ترى السكّان الآن عرباً بالاسم فحسب، ولا يشاركون البدو في خصالهم. فتحتوي لغتهم على الكثير من الكلمات الدخيلة التي تتناسب مع نحو اللغة إنما ضاع أصلها.

إن تاريخ جزيرة العرب قبل الإسلام سيُترك للبحث لاحقاً. وسيتذكر القرّاء أن ملكة سبأ انحدرت من هناك. وتقع عاصمة مملكة سبأ «مأرب» غير بعيد عن مدينة صنعاء الحالية. وتعوّد العرب أن يفاخروا بعدم خضوعهم لأي حكم خارجي. مبدئياً،

هـذا الـكلام صحيح، حيث أنه على الرغم من كون هذه المنطقة قد واجهت الكثير من الغـزوات، فكل احتـلال خارجي للمناطق الداخلية كان مؤقتاً. لقد أرسـل الإمبراطور الرّوماني «أوغسـطس» حملة بقيادة إليوس غالوس تحت الاعتقاد الخاطئ بأن جزيرة العـرب بلاد غنية تسـتحق الاسـتيلاء عليها. ولكن كلّ الذي قـدر عليه إليوس غالوس كان برهنـة العكـس. إن اعتقاد الرّومـان الخاطئ يُعزى إلى الثـروات التى وصلت إلى الموانئ العربية من الشرق الأدنى، تحت الاعتقاد بأنها آتية من البلاد العربية نفسها. إن وصف القائد لهذه البلاد وسـّكانها بعد عودته لم يكن ليشـجع أيّة مغامرات أخرى من هذا النوع.

باستطاعتنا القول كخلاصة إنه في بداية القرن السابع، كان يُنظر إلى جزيرة العرب، في الأوسـاط الرسـمية لبيزنطة، كمـا يُنظر إلى الصومـال في «وايتهـول». بلاد بغيضة محفوفة بالمخاطر، متميّزة بعقمها الشديد، ومأهولة بمجموعة من قبائل همجية بغيضة علـى حدّ سـواء، ومن الأفضل تركها وحدها. لم يتوقّع أحـد ما كان ينضج في الخفاء، ولـم يتنبّـأ أحد بالأحـداث التي وقعت في مدينـة منعزلة هناك، ممّـا أدّى إلى الانفجار الـذي أطـاح بالإمبراطورية الرومانيـة، وفرض ديناً غريباً وحضـارة جديدة على الجزء الأكبر من العالم المأهول المعروف في ذلك الوقت.

* * *

ولد النبي محمّد في مكة سنة 569 بعد الميلاد. وكانت قبيلة قريش التي تنتمي إليها عائلتـه، سـيّدة على باقـي القبائل في تلك المدينـة، وكانت تُعدّ ذات سـيادة في أصلها وعاداتها الشـريفة. أما والـداه فكانا فقيرين ولـم يكن لهما كبير شـأن. رُبّي محمّد يتيماً منذ صغره في بيت عمّه أبي طالب، الذي كان رجلاً كريماً مقتدراً ذا مكانة وابن سـادن الكعبـة في مكّـة. إنما أُهمل تعليمه، بعكـس ابن عمّه عليّ بن أبي طالب، فنشـأ أميّاً لا يقرأ ولا يكتب. تعرّف محمّد في شـبابه إلى خديجة، وكانت أرملة غنية أكبر منه سـنّاً، فأوكلـت إليه قيـادة قافلتها التجارية إلى الشـام، وعند عودته تزوّج منهـا. حتى هنا، لا ترى في التاريخ أمراً جديراً بالملاحظة أكثر من هذا.

في سـنّ الخامسـة والعشـرين، وجد محمّد نفسـه غير مضطرّ للعمل لإعالة نفسـه، فتوجّـه إلى العمل في السياسـة والتعمّق بأمور ذات اهتمامـات روحانية. كانت زوجته متفانيـة لـه، وقد عـاش معها لعدد من السـنين في سـعادة ورضاً كأيّ رجـل آخر دمث الأخـلاق ودون طموحـات تذكر. رُزق الزوجان ابناً أسـمياه القاسـم توفّي في المهد، وأربع بنات أخصّهنّ فاطمة.

لـم تكـن مكّة فـي ذلك الوقت مدينـة تجارية ذات أهميـة، إنما كانت مركـزاً لعبادة الأوثان المنتشرة في جزيرة العرب. وكانت مواكب الحجّاج تتوافد إلى المدينة لزيارة المعبـد المعـروف باسـم الكعبة، والتي يحيط بها ثلاثمئة وسـتّون وثنـاً، وثن لكل يوم من أيام السـنة. وكان يقام هناك سـنوياً سوق، حيث يعرض التجار بضائعهم المختلفة. وكان من بين التجار يهود ومسـيحيون، يسـتحبّون الدخول في مناقشات أسس العقيدة المسيحية المنافسة مع أيّ كان يهتم بمناقشة هذه المسائل. وكان محمّد أحد المهتمّين بهذه الأمور، وكان لديه المجال الكافي لذلك. ولا شكّ أنه اكتسب الكثير من الفلسفة والمعرفـة عن العالـم الخارجي ظهـرت أهميّتهما فيما بعد. وقد أبدى أيضاً حساسـية بالغة وميلاً كبيراً إلى الزُّهد، فقد كان يميل إلى الانفراد بنفسـه عن المجتمع الإنسـاني لأيّام طويلة بهدف التأمل في فكرة أثارت اهتمامه.

في سـنّ الأربعين بدأ محمّد يرى رؤى، تأخذ النّمط ذاته مرة بعد الأخرى. فقد كان مـلاك يظهـر له ويُملي عليه فقرات من كتاب أعلمه بأن عليه ينشـره على العالم أجمع. كانـت آيات الوحـي الأوليات نثراً مقفى خاصّـاً باللغة العربية، أمـا جمال هذه الآيات وقوّتها فقليلاً ما تطرّق إليه نقد حتى من قبل ألدّ أعداء الدّين الذي دعا إليه محمّد.

أفضـى محمّد بمكنونات هـذه الحادثة إلى زوجته وطلب نصيحتها. فاسـتبدّ القلق بخديجـة عليـه بطبيعة الأمر، ولكنها مع ذلك وقفت إلى جانبـه ودعمته بكل ما أمكنها كزوجة صالحة وفيّة.

اسـتمرّت الرؤى وأصبحت أكثر إلحاحاً. فاطمأنت نفس محمّد إليها، وأعلن على الملأ العقيدة الرائعة التي مفادها: لا إله إلا الله، محمّد رسول الله.

من البديهي أن خديحة كانت أولى المؤمنين به، وسرعان ما لحقها آخرون، كان عليّ من أوائلهم. ولم يُبد أبو طالب أيّ اعتراض، وكان واضحاً أنه تغاضى عن خروج ابن أخيه عن دين مكّة ولم يمانعه، وكذلك كان موقف الكثير من أهل مكّة الذين كان محمّد محبوباً بينهم.

اكتسب الدين الجديد أتباعاً بأعداد هدّدت نفوذاً راسخاً. كانت مكّة تعتمد في ازدهارها على مواسم الحجّ إلى المعبد، ومن الواضح، أنه إذا تمّ السماح لشريحة كبيرة من النّاس، ليس فقط للهزء بعقيدة قائمة، بل أيضاً بضمّ أتباع لهم، فإن هذا الازدهار سيتأثّر سلباً. ومع أن أهل مكّة لم يكونوا بأي حال من الأحوال متعصّبين لعقيدتهم، فإن هذا الحال فرض عليهم حماية مصالحهم المادية. هكذا كان الرأي في ذلك الوقت على أيّ حال.

لمّا كان وجود أحدهم غير مرغوب فيه لدى العامة في جزيرة العرب، كان يُقتل. لكن لم يكن أهل مكّة من محبّذي هذه الطريقة البسيطة في التعامل مع هكذا مسألة، لأن قتل محمّد سيتسبّب في صراع دموي بين قومه، بني هاشم، وقوم من يقتله. كان بنو هاشم ذوي سلطة وسيادة في ذلك الوقت، وأبو طالب، الذي يحبّ ابن أخيه حباً جمّاً، لم يكن بالرجل الذي تسهل مخالفته. ولذا فقد سُمح لمحمّد أن يتابع وعظه لعدّة سنين تقريباً دون التعرّض له، وما أيقظ أهل مكّة إلى خطر محمّد عليهم كان ردّة بعض مواطنيهم عن عقيدتهم، ممّا اضطرهم إلى اعتماد أساليب رادعة. تمّ الاتّفاق على اشتراك جميع قبائل مكّة في قتل محمّد بممثل عن كلّ منها تجنباً لحرب أهلية، طبعاً مع استبعاد بني هاشم.

لكن محمّداً علم بأمر هذه التدابير وهرب إلى المدينة، حيث لحقه بعد فترة من الزمن معظم مريديه. أما أهل المدينة، التي تبعد ثلاثمئة ميل شمالي مكّة على طريق الشام، فقد أظهروا استعدادهم لتقبّل تعاليم محمّد. كانت ظروف هروبه مؤثرة، ويعزى نجاح هذا الهروب إلى عليّ بن أبي طالب الشاب ذي التسعة عشر ربيعاً، الذي ناب مكان محمّد في منزله بانتظار أعدائه. وخلال هذه الرّحلة، وقعت معجزة العنكبوت

التي نسجت بيتها على فم الغار الذي اختبأ فيه محمّد وصاحبه أبو بكر واليمامة التي بنت عشّها فوقه، تضليلاً للمطاردين. ومنذ رحلة هروب محمّد تلك، والتي تسمّى بالهجرة، بدأ التقويم الهجري عند المسلمين، وذلك يوافق سنة 622 ميلادية.

وجد محمّد في المدينة المنورة منفى عسيراً، وواجه الكثير من الصعوبات لفترة من الزمن. ما فتئ واصحابه لا يجدون قوتهم، لكنه استمرّ في نشر الدعوة وهدي الكثيرين بأعداد متزايدة، ممّا أدّى إلى ازدياد يومي في نفوذه. وأدّى نزاع بينه وبين اليهود إلى إخراجهم من المدينة. أثار هذا النفوذ المتزايد للمذهب الجديد قلق أهل مكّة، نسبة إلى الموقع الجغرافيّ للمدينة المنوّرة حيث كانت على خط العبور الرئيس إلى الشام. فما فتئت أن قامت الحرب، وكانت الموقعة الأولى في بدر السنة الثانية للهجرة (624 ميلادية).

انتصر المسلمون في معركة بدر لكنهم خسروا الحرب في السنة التالية في أُحُد، قريباً من المدينة، وأسهمت القيادة الرديئة لأهل مكّة في التقليل من خسائرهم. أما محمّد، فقد أظهر سرعة بديهة عسكرية مميّزة في إعادة ترتيب صفوف أتباعه المثبطي الهمّة وكسب المعركة في اليوم التالي. تقاعس أهل مكة في القتال، فتراجعوا. لم يتضاءل نشاط محمّد ونفوذه من جرّاء هذه المعركة فأعاد أهل مكة هجومهم في السنة التي تلت. إنما كان محمّد قد أنشأ متراساً منيعاً حول المدينة، عُرف بالخندق، يحتفى بذكراه في تاريخ المسلمين، وقد احتمى محمّد وأتباعه خلف هذا الخندق الذي حاصره أهل مكّة لفترة من الزمن ثم أُجبروا على التقهقر. إن المواجهة الوحيدة التي حصلت كانت في بعض المعارك الانفرادية بين محاربين من الفريقين كليهما، ومن بينهم كان عليّ الذي أظهر بطولة فائقة.

تمّ الاتفاق على هدنة بعد ذلك، وكان أحد بنودها أن يُسمح لمحمّد بالحجّ إلى مكّة، وهذا ما فعله بصحبة العديد من أتباعه. لكن الهدنة خُرقت أو بالأحرى تنصّل أهل مكة منها لاحقاً. فشكّل محمّد الذي كانت قوته بتزايد مستمرّ جيشاً من عشرة آلاف رجل وتوجّه بسرعة نحوها، فاستسلمت مكة دون قتال. فحُطّمت الأصنام،

وتكرّست الكعبة لعبادة الله الواحد.

وقعت معارك أخرى بعد ذلك، وقد قام الرّسـول بنفسـه بقيادة جيش المسلمين في بعضهـا لمواجهـة القبائل العاصية. وأرسـل رسـائل لحكام الدول المجـاورة يطالبهم بالخضوع له. بعد وفاته، في السنة الحادية عشرة بعد الهجرة، كان معظم جزيرة العرب قد دان بالإسـلام. وقد تزوّج إحدى عشـرة امرأة[1] أشـهرهن بعد خديجة التي توفيت قبل الهجرة، عائشـة بنـت أبي بكر. رُزق محمّد ابناً آخر مع القاسـم، هو إبراهيم، لكنه توفّـي أيضاً في صغره. أما ابنته فاطمة، فقد تزوّجت من عليّ بعد وصولهم إلى المدينة بوقت قصير، وأنجبت له ابنين: الحسـن والحسين اللذين قضيا بشكل مأساوي. وعند وفاة الرسـول عن عمر الثالثة والستين، دُفن في المدينة، وكانت فاطمة الذريّة الوحيدة له التي عاشت بعده.

في ريعان شـبابه، كان محمّد رجلاً فاتح البشـرة، مربوع القامة، متين البنية، ذا شعر ولحية سوداوين، لطيف الملامح وذا عينين برّاقتين بنحو لافت.

* * *

ليس المقام هنا ملائماً لمناقشة نبوّته وتلقّيه للوحي الإلهي، إنما ما يقطع الشكّ بغير جـدال أنه هو نفسـه كان واعياً لذلك ومؤمناً به. فمن وجهـة نظر متواضعة، كان محمّد رجلاً ذا فطرة سليمة، دمث الأخلاق وذا شجاعة. وتطابقت سيرة حياته مع الأخلاقيات التـي كان يدعو إليهـا. كان حكيماً ولديه حسّ ظريف، وباسـتطاعته تقبّل المزاح حتّى على نفسـه كما تظهـر الرواية التالية عنه: في إقامته المؤقّتة فـي المدينة، أصاب الجوع محمّـداً وأتباعه. لـم يكن يقبل ايّ رفاهية لنفسـه إذا لم يشـاركه فيهـا أصحابه. في أحد الأيـام كان يأكل بعضاً من التمر مع عليّ ويلقيان النوى أمامهما، فكان محمّد ينزع نواة التّمر ويضعها أمامه، أما علي فكان يأكل التّمر وينزع النواة ويضعها مع بقايا نوى التمر الذي أكله محمّد، فكان النبي ينظر إليه ويتبسّـم. وفجأة قال علي لمحمّد بتعجّب وهو

(1) كتب المؤلف: اختلفت الروايات عن العدد الصحيح. وقد اختص تعدد الزوجات بالنبيّ فحسب، بينما لا يسمح القرآن للرجل المسلم بأكثر من أربع زوجات.

يمازحه: «أكلت هذا التّمر كله يا رسول الله؟». فابتسم محمّد وقال: «وأنت يا عليّ أكلت التّمر بنواه؟». وقيل إنه ضحك حتى بانت نواجذه.

كان محمّد يزدري النفاق بأيّ صفة كانت، ولم يكن ليميل للبذخ أو للتبجيل. ففي أوج قوّته عاش حياة مواطن عادي في المدينة. كان منفتحاً حاضراً دائماً لمناقشة أو شرح أيّ أمر لكلّ من يأتي إليه. كان دمث الأخلاق مع الفقراء ورفيقاً بالأطفال وطالما زيّن لأتباعه الرأفة بالحيوان.

لم يدّعِ محمّد القدرة على اجتراح المعجزات. لكنه بيّن أنّ القرآن بذاته كان معجزة كافية لإقناع أشدّ الناس عنداً. إن القصص المرويّ عنه، كنبع الماء من الصخر الأصمّ، ووضع القمر على كمّه، كلّه اختلاق، ولا تجده في مدوّنات المؤرخين المسلمين. لكنّه صرّح بأنه حصل على عون إلهي، في الغار مثلاً، وفي معركة بدر.

* * *

إثر وفاة محمّد، ارتدّت بعض من القبائل التي دخلت في الإسلام إبّان حياته، ودبّ خلاف بين رجالاته حول من سيخلفه. كان عليّ، ابن عمه وصهره، وأوّل المؤمنين به، والذي أبلى بلاء حسناً في أرض المعركة وفي إبداء الرأي بالشورى، كان أفضل المرشحين للخلافة. إنما كان هناك بعض الاعتراضات على ترشّحه، ووقع الاختيار أخيراً على أبي بكر، مرافق الرسول في واقعة «الغار».

لم يكن هناك اختيار أكثر حكمة. حيث أن الموقف كان حسّاساً، وكان يتطلّب حنكة وحزماً للتعامل معه، وهذا ما كان يمكله أبو بكر أكثر من عليّ الذي يتأقلم أكثر في ساحة معركة، مُظهراً البسالة والإقدام أكثر من الدبلوماسية.

تولّى أبو بكر مقاليد الحكم، تحت لقب «خليفة الرسول» الذي حُوّر واختُصر إلى لقب «الخليفة» في اللغة، ممّا يعني بالطبع خليفة الرّسول. ونجح في الفصل في الخلافات المحلية وفي قمع الثورات بين قبائل العرب. وتعيّن عليه أن يكسر شوكة مدّعي النبوّة بعد محمّد.

بعد إنجاز تلك المهام، حوّل الخليفة اهتمامه إلى الفتوحات الخارجية. فأرسل حملة إلى الشام، وكانت في ذاك الوقت مقاطعة بيزنطية، فهزمت حملته الجيوش المسيحية مرّة تلو الأخرى. ووقعت دمشق، وبعدها القدس، في أيدي المسلمين. وتوجّه جيش عربي آخر إلى أرض الرافدين (ميزوپوتاميا) فسحقوا الفُرس في معارك متفرّقة.

توفّي أبو بكر بُعيد السيطرة على دمشق، مسلّماً مقاليد الحكم إلى عُمر، الذي كان مثله أحد أوائل وأهمّ الصحابة. قوبل هذا الاختيار بقبول حسن عموماً. وعند استلامه الخلافة، صرّح عمر أنه يجب أن يلقّب بخليفة خليفة رسول الله، وبما أن هذا اللّقب لا بدّ أن يكون لجميع من يستلم مقاليد الحكم، فقد اقترح لقباً آخر. قال عمر: «أنتم المؤمنون، وأنا أميرٌ عليكم، لذا فلقّبوني بأمير المؤمنين» وهو لقب ما زال يتكنّى به سلاطين تركية.

أكمل عُمر سياسة الفتوحات الخارجية لأبي بكر. ولم تكن الإمبراطورية الرّومانية قد أفاقت من صدمة وهزيمة الخسارة في مقاطعة الشام بعد حينما ظهر عمرو بن العاص في مصر، على رأس جيش من بضعة آلاف من المحاربين، ومن ورائهم حشد متنوّع من النساء والأطفال والعبيد. قوبلت هذه الغزوة الجريئة باستصغار، لكنما سرعان ما انقلب هذا التساهل إلى رُعب عندما هُزمت الفصائل الرّومانية المنظّمة في كلّ معركة وولّت الأدبار أمام هجوم الفرسان العرب القويّ. وسرعان ما أخضع عمرو بن العاص مصر، وتمّ ذلك بمعونة الأقباط من الداخل ضدّ الرومان. وأخيراً استسلمت الإسكندرية سنة 19 للهجرة (640 ميلادية). وثمّة من يدّعي زوراً إنه بناءً على أوامر عُمر نفسه، دُمّرت مكتبة الإسكندرية الشهيرة على أيدي العرب.

* * *

لا يتّسع المقام هنا لمتابعة تاريخ الفتوحات العربية بعد ذلك، فبعد خمسين سنة من هجرة النبي إلى المدينة، كان الإسلام قد انتشر في إسپانيا، وشمال إفريقيا، وآسيا الصغرى، وجزيرة العرب، وبلاد الرافدين وبلاد فارس، ولا زال ينتشر. وكما كان

متوقّعاً، فالدّولة الشاسعة التي تؤسّس وتبنى بهذه الطريقة لا تستطيع الصمود طويلاً. فلقد انفصل بنو أميّة في إسپانيا عن الخليفة في بغداد وكوّنوا دولتهم الخاصة، وكذلك فعل المغول في الهند، وغيرهم. ومن المرجّح أن هارون الرشيد ومن خلفه ضمّوا تحت حكمهم عدداً من البشر أكبر من أي حاكم آخر مذذاك. ذكر الكاتب «غيبون» في كتابه «انحطاط الإمبراطورية الرومانية وسقوطها» أن فرنسا كادت تلاقي مصير إسپانيا ذاته. حيث أنّ الغلبة توقفت على معركة واحدة، لو غلب فيها العرب[1]. ولولا هزيمتهم لكانت فرنسا اليوم عربيّة، وإنكلترا دولة إسلامية.

سقطت الإمبراطوريات العربية واحدة تلو الأخرى، إنما حمل الأتراك راية نشر الإسلام بحماسة مماثلة، وفي القرن السابع عشر قارب الإسلام على إخضاع المسيحية في الغرب كما فعل سابقاً في الشرق[2]. سيطر الخوف على السياسة الأوروبية من ذلك لعدّة قرون، ولم يتلاشَ إلى الآن.

كان بلاط الأباطرة العرب منارة للعلم في القرون الوسطى. ازدهر فيها الفنّ والعلم تحت ظلّهم، وتشهد على ذلك عدّة آثار عظيمة. لكنّ الزُّهد الذي طبع حياة النبيّ، ومورس من قبل الخلفاء الراشدين، تحول عند خلفهم إلى غلوّ لا مثيل له.

* * *

يتبقّى أن نعرض الأحداث في جزيرة العرب التي تلت مقتل الخليفة الثالث، عُثمان، قبل أن ننتقل إلى موضوع آخر سنة 35 هجرية.

تقلّد عليّ الخلافة، وكان قد صار مسناً في ذلك الوقت، لكن أحقّيته في الخلافة طُعن بها من قبل معاوية، واتُّهم باطلاً بضلوعه في مقتل عثمان. اندلعت الحرب الإهلية، وانقسمت الإمبراطورية إلى حين مقتل عليّ في كربلاء سنة 40 للهجرة مفسحاً

---

(1) هي معركة پواتييه، 732 ميلادية.

(2) أي بعد الانتصارات العثمانية الحاسمة في اليونان وقبرص والبلقان وكسر جيوش الصّرب والبلغار وجيوش ملوك آل هابسبورغ، وحصار ڤيينّا مرتين، في القرنين السادس عشر والسّابع عشر.

المجال لمنافسه لتقلّد الحكم.

تخلّى الحسن بن علي عن حقّه في الخلافة لمصلحة معاوية، الذي كان أول من أسّس السّلالات الحاكمة في الإسلام.

حكمت ذرّيته، المعروفة ببني أمية، في الشرق إلى أن سقط حكمهم على أيدى بني العباس، ذرّية عم محمّد، سنة 132 للهجرة.

إنّما مع ذلك، استمرّ حكم بني أميّة في الأندلس إلى أن تنامت السلطة إلى أيدي الإمبراطورية الموريسكية (البربر) بعد ثلاثة قرون.

خلف يزيدٌ والده معاوية، وقد اتُّهم بالتحريض على قتل الحسن والحسين، حفيدي الرسول. أما الأول فقد دُسّ له السمّ، والثاني قضى نحبه في المعركة، مع معظم أهله، قرب الكوفة في أرض الرافدين. قد يُعدّ مقتلهما الحدّ الفاصل لعهد تاريخيّ للإسلام: فترة إنتهاء حكم الصحابة الذين عاصروا النبي، وشاركوا في معاناة ونضال المرحلة الأولى من مهامّه النبوية.

بالإمكان فهم ما شهدوه من تغييرات إعجازية بأمّ العين عندما يُستعرض ما حصل في معركة بدر، إحدى أكثر المعارك في تاريخ العالم حسماً، لم يتعدّ عدد المسلمين أكثر من ثلاثمئة وأربعة عشر محارباً. وبعد أربعين سنة كان عليّ ومعاوية، في مناوشات على ضفاف دجلة، قبل المعركة الكبرى، قد خسرا سبعين ألف رجل فيما بينهما.

إن ما تخيّله كاتب «ألف ليلة وليلة» لا يفوق غرابة ما عاشه هؤلاء الرجال. فإن بضعة من رعاة الإبل وصغار التجّار، الذين حاربوا في شبابهم حول مكة والمدينة، وجدوا أنفسهم في منتصف العمر يقودون الجيوش أو يحكمون مقاطعات واسعة. ومعاوية، الذي كان يبلغ من العمر ما يكفي لتقدير محمّد وقت وفاته، وصل إلى الحكم في سنّ متقدّم، على رأس إمبراطورية أكبر من روما، وتصرّف في ثروات لا تُعدّ ولا تُحصى.

* * *

بالانتقال من التاريخ إلى تعاليم محمّد الدينية، يكمن السعي إلى فهم مكمن القوّة

التـي أنتجت هـذه النتائج المذهلـة. إن الوحي، الذي ذُكر سـابقاً، اسـتمرّ على فترات متقطعـة خـلال حياة الرسـول، وقـد نقله إلـى صحابته، الذيـن كتبوه أو حفظـوه غيباً. اختلـف الوحـي في مضمونـه، فلبعض آياته شـكل الملاحـم الشـعرية، وأخرى تضمّ توجيهاً مباشـراً بالأوامر والنّواهي. وبعضهـا عالج أمور الحياة اليومية، وبعضها الآخر تناول مسـائل في التاريخ والسياسة والفلسفة. وقد استُخلص منها قانون مدني وقانون عقوبات كاملان.

لـم يكن هناك محـاولات لوضع هذه الآيات في مجلّد واحـد عند وفاة النبي، على اعتبـار أنـه لـم يأمـر بكتابة آيات الوحي. إنمـا تنبّه أبو بكر إلى الخطـر، عندما لاحظ أنّ الصحابـة يموتـون الواحد تلو الآخر، فعيّـن «هيئة عليا» لجمع الآيـات وتدوينها. وتمّ بالنتيجـة تدوين القرآن الكامـل، الذي تمّ الانتهاء من جمعه فـي عهد عثمان. وبالرغم مـن أن الشـكّ في حقيقة أي جـزء من هذا العمل يُعدّ كفراً صريحـاً، فلم يكن هناك أي محاولة لجمع الآيات بحسب ترتيبها الزمني أو بحسب معناها.

إنّ القرآن ينصّ على أنه لا إله إلا الله، إله واحد، أزلي، مطلق، لا يدركه عقل، وأنه هو إله آدم، وموسـى، وعيسى المسـيح، وجميع الأنبياء من قبلهم. وقد أوحى بمشيئته عـدة مـرات من قبل، بكتب وأهمّها التـوراة (العهد القديم) والإنجيـل. وبما أنّ هذين الكتابين قد تحرّفا، فقد نزل القرآن على محمّد ليحلّ محلّهما[1].

إنّ العقائد الأساسـية التي تشـكّل الأديـان في هذه الكتب لا تـزال واحدة لم تتغيّر. ونظرية خلود الروح، يوم الحسـاب، الجنة، النار، الشـيطان عدو الإنسـان، الملائكة،

(1) كتب المؤلف: الكلمة العربية المستعملة للرب هي «إله» في المفرد. وعند استعمال أداة التعريف معها تصبح بالإدغام «الله» وتعني الإله الواحد. لذا فان الشهادة «لا إله إلا الله» تعني أنه ليس هناك من إله آخر غير الله الواحد.
وكلمة «قرآن» تعني القراءة، وكلمة مسجد تعني حرفياً المكان الذي يُسجد فيه.
قلت: اسم «الله» ليس صيغة معرّفة لعبارة «إله»، ففي العربية: الإله، بالمعنى الاشتقاقي اسم جنس معرّف قد يُجمع وقد يؤنث، أما اسم الجلالة «الله» فهو اسم عُرفي لا يجوز فيه تأويل ولا تصريف ولا صيغة جمع، ولا يُطلق إلا على الذّات الإلهيّة تحديداً.

الشياطين، وغيرها وكما ذكر سابقاً، صادق عليها القرآن كقاعدة عامة. أما الشريعة المحدّدة فهي نفسها في الوصايا العشر، فالحضّ على التقوى، والعفة، والقناعة، والبرّ والإحسان يتكرّر ذكره باستمرار. وهناك ذكر لقصص يرد مغزاها في التّوراة لتثبيت هذه الفضائل.

إن قسماً كبيراً من الكتاب يشدّد على وحدانية الألوهية المطلقة. فقيل لنا إن الله يغفر ما يشاء من الذنوب إلا أن يُشرك به. ويرد في السورة رقم 112، التي تعادل ثلث الكتاب ما يلي:

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾ ﴾ (سورة الإخلاص).

في الواقع، إنّ ثلث القرآن مكرّس للمبدأ ذاته بعدّة أوجه وتعابير مختلفة.

* * *

يفضي بنا هذا المقام إلى موضوع العلاقة الشائك بين الإسلام والمسيحية بالنسبة إلى العقيدة. ممّا لا شّك فيه أنّ محمّداً نفسه توقع أن يهتدي اليهود والمسيحيين إلى الإسلام، لكن ذلك لم يتم. يشير القرآن الكريم إلى عيسى بن مريم في اكثر من مقام، ويسمّى بالمسيح وروح الله، ويعتقد بالعذراء التي ولدت بغير دنس. إنما يلام اليهود على رفضهم تقبّل تعاليم المسيح، ويلام المسيحيون على انحرافهم عنها. والإسلام يعدّ الاعتقاد بأنّ عيسى ابن الله شركاً مطلقاً.

من الواضح أن العقيدتين تتّفقان تقريباً على أسس واحدة. ولا بد من التذكير هنا أن العقيدة التي رُفضت فسرّت في ذلك الوقت حرفيّاً. هذا ما توصّل اليه اليوم مجلس الكنائس المسيحية، لكن من المحتمل أن هذه النظرة لم تُعتمد بكل هذا التعنّت لولا المعارضة القوية من قبل القرآن. إن المفكّرين من الجهتين، ما عدا الرسول نفسه، شغلوا بتحديد الفوارق بين العقيدتين بدلاً من إيجاد ما يجمعهما. يشار إلى اليهود والمسيحيين في القرآن بلفظ «أهل الكتاب» ويعاملون على أساس مختلف عن الكفار

أو الوثنيين. أما النصّ القرآني المتعلق بالصلب فهو كما يلي. ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ﴾. (سورة النساء، 157-158).

إن التبريرات الإيمانية هي مدخل آخر للخلاف. فيتعمّق القرآن، أكثر من الكتب التي سبقته، في التبشير بالمغفرة للمؤمنين بالعقيدة الأساسية، مهما اقترفوا في حياتهم، ممّا يجعل الإيمان بالجنّة والنار نتيجة مسلّماً بها.

أما الإيمان بالقضاء والقدر المذكور في القرآن فقد اختلف الرأي عليه بشدة، ولم يتفق عليه المسلمون أنفسهم. لكن يبدو أنّ هذا نتيجة مباشرة لفرضية الإله الواحد العليم الجبّار.

من الجدير بالذكر أن عقيدة الإسلام الأساسية تتوافق مع عدة مبادئ اختلفت عليها الكنائس المسيحية. فمبدأ أنّ مصير الروح مقضيّ به هو أصل العقيدة الكالڤينية. ونظرة المسلمين إلى الخلافة تتطابق تقريباً مع وجهة نظر الروم الكاثوليك بالنسبة إلى الإرث الرسولي. لكن كنيسة إنكلترا تشدّد على سيادة الكتاب المقدس. فمع أنّ الخليفة لا بد وأن يتمتّع ببعض التوجيه الإلهي، فإنه يُعدّ غير مؤهّل للحكم على أمر ما بقانونيته الشرعية، وعليه أن يخضع لحكم علماء الدين. وفي تركية الحديثة، يمارَس حقّ النقض هذا من قبل شيخ الإسلام الذي يُرفع اليه الحكم بشرعية الأمور بما يسمّى بـ«الفتوى». وهنا يكمن السؤال «هل من الجائز عزل خليفة جائر؟» والفتوى بذلك تقول: «إنّ القانون الشرعي يجيب: نعم يمكن».

* * *

أما الجزء من القرآن الذي يتداول التشريع العمليّ، فعلينا أن ندون ملاحظة أنّ تشريعاته المدنيّة لا زالت تعمل جيداً، وأمّا تشريعاته الجزائيّة فهي شديدة قياساً للأعراف المعاصرة.

وأركان الإسلام للمؤمن أربعة[1]: أولاها الصّلاة، والزكاة، والصّيام، والحج لمن استطاع اليه سبيلاً. وسنرجع إلى هذه النقاط لاحقاً. أما أشدّ نواهي القرآن[2] فهي تحريم بعض أنواع الطعام، لحم الخنزير مثلاً، والرِّبا والميسر والخمر. من المعروف أنّ شرب الخمر حتى لو باعتدال مكروه أينما كان. على كلّ حال، لم يُلتزم بهذا القانون دائماً.

يضاف إلى القرآن، وبأهمية كبرى في نظر المسلمين، الكتب الستة للسنّة والحديث الشريف. إنّ السنّة والحديث الشريف يمثلان ما نُقل عن الرسول من قول أو عمل. ومع أنّ اتّباعهما لا يُعدّ ركناً للإيمان، فهما مرغوبان بشدّة ودون تحفّظ من قبل المسلمين التقليديين، وقد يُلصق بهما الكثير من المعتقدات الخرافية التي تشوه البساطة التي تتمتع بها عقيدة الإسلام. أمام الكاتب كتاب يتضمن عشرة آلاف حديث منسوبة إلى الرسول، قد يكون القليل منها صحيحاً[3]. إذ لا يمكن حسب المنطق أن يناقض الرّسول كلامه. إنّ أيّ دراسة سريعة تظهر هذا التناقض بين الأحاديث الموضوعة بشكل واضح. ولإيضاح ذلك، فقد أُثر عنه أنّه قال إنّ الإسلام سينقسم لاحقاً إلى اثنتين وسبعين فرقة، كلّها في النار، ما عدا واحدة، لكنه لم يقل أيّها.

إنّ الجزء الأول من هذه النبوءة قد قارب التحقّق، والإسلام اليوم منقسم إلى قسمين رئيسين، وكلٌّ يعدّ الفريق الآخر صاحب بدع. وهذان الفريقان ينقسمان، كلّ على حدة، إلى مذاهب تختلف في الشعائر فقط، وهناك عدد بسيط من المذاهب الأخرى الأقل أهمية قد لا تُعدّ من الإسلام في شيء. إنّ الشقاق بين الفرقتين الأساسيتين، المعروفتين بالسنّة والشيعة، بدأ حين دبّ الاختلاف السياسي في عهد الخلفاء الرّاشدين. باختصار، يعدّ السنة أنّ الخلافة ترجع، طبيعياً، إلى أي من الوجهاء

---

(1) بل هي خمسة طبعاً، فاته أن يذكر الرّكن الأول وهو الأهم: شهادة أن لا إله إلا الله، وأنّ محمّداً رسول الله.

(2) لا شك أن معرفة المؤلف بالإسلام ليست ضليعة، فأشدّ نواهي الإسلام قبل ما ذكر: الشرك بالله، والفتنة، وقتل النفس بغير حق، والزّنا، وأكل المال بالباطل، وشهادة الزّور.. والعياذ بالله من ذلك كله.

(3) المتعارف عليه بين علماء الدّين أنّ عدد أحاديث كتب الصّحاح يبلغ 6000 حديثاً.

المسلمين الأقوياء في حينه، بغض النظر عن كونهم من آل البيت أو انتمائهم. بينما يؤكد الشيعة أنّ الخلافة محصورة في آل البيت من خلال عليّ وفاطمة. وهم يؤمنون أن الخلفاء الثلاثة الأوائل قد حرموا عليّاً من حقه في الخلافة.

إنّ الاختلاف على أحقية عليّ في غاية الأهمية في يومنا هذا، في نظر تفسيرات العثمانيين. فثمّة وجهة نظر أولى تقول إنه لا سبب يمنع أن يكون سلطان تركية أميراً للمؤمنين، ويكون قوّاماً على العالم الإسلامي أجمع، بينما يجادل الشيعة باستحالة هذا المبدأ.

إنّ العجم، وحوالي نصف المسلمين في الهند، وبعض من قبائل العرب هم من الشيعة. بينما الأتراك، والأفارقة، والأفغان وبقية المسلمين هم من السنّة. والسنّة ينقسمون إلى أربعة مذاهب: الشافعية، والحنفية، والمالكية والحنبلية، وسمّوا بذلك على أسماء علمائهم مؤسسي هذه المذاهب. وليس هناك من ضرورة للفرد المسلم أن يتبع أيّها، فباستطاعته أن ينفرد باستقلالية إيمانه.

لقد تأمّلنا الإسلام إلى الآن كما ظهر في دراسة عن تاريخ ومضامين الكتب السّماوية نفسها. ولو قمنا بهذه الدراسة لنستدل على طبيعة الكتب السّماوية من وجهة نظر علماء الدين، ستكون النتيجة مختلفة. إنّ رجال الدين المسلمين اليوم يعدّون القرآن، لا مجرّد كلام مُلهم، بل هو كلام الله نفسه أوحي به إلى لسان نبيّه. ولذا فهو أبديّ ولا يقبل الجدال فيه، ولا تأويل مقبولاً له.

ولتفهّم وجهة النظر هذه، سنستخدم استعارة للتوضيح، كمثل مسيحي صدّق ما قرأ في كتابي سفر الرؤيا ولاوي حرفيّاً بدلاً من أن يُعدّ الأول مجازياً والثاني قديماً. أمّا بالنسبة للمسلمين، فلمّا كان قطع أيدي وأرجل السارق عقاباً له ضرورياً ومقبولاً في جزيرة العرب منذ ألف سنة خلت، فلا بدّ، جدالاً، أن يكون هذا العقاب مقبولاً في القسطنطينية في الزمن الحالي.

لا يقوم النّاس باتباع الإرشادات الأخلاقية في القرآن بحذافيرها، بينما تُتّبع الشعائر في تفاصيلها الدقيقة. باختصار، فإنّ تركياً تقياً يعتقد أنّه إذا أقام صلاته في مواقيتها، وصام

رمضان، وتجنّب تناول لحم الخنزير، فلا أهمية لما يفعل أو لا يفعل غير هذا[1].

قد يؤدّي هذا العرض التميهيدي من خلال موضوع واسع مثير للجدل غايته، إذا ساعد القارئ المعاصر على فهم موقع المسلم في الحياة المعاصرة، وعلاقته بجاره المسيحي. وبما أنّ الإسلام لم يلق إنصافاً في أقلام الكتّاب المسيحيين، قديماً وحديثاً، فسيكون من المثير للاهتمام النظر إلى هذه المسألة من وجهة النظر الأخرى[2]، حتّى لو كان على سبيل التغيير فقط.

بغض النظر عن مناقشة نبوّة الرّسول التي لا يمكن الاعتراض عليها، سنبحث في الدّعوى الأكثر ذيوعاً ألا وهو أنّ دينه قد نُشر بحدّ السيف، مع أنّ القانون الشرعي يقول: لا إكراه في الدين، وقد طُبّق هذا القانون أكثر من مرة من قبل رجال الدين ضد السلطة العلمانية في تركية. وكان الخلفاء العرب يلزمون قادة جيوشهم باحترام لا الأشخاص فحسب، بل ممتلكات المسيحيين ومبانيهم الدينية أيضاً. ولسنا نحن أنفسنا أبرياء في فرض ديانتنا على من لا يرغب فيها، وخاصّة أن وضع هذا الكتاب يتزامن مع حرب صليبية على قوّة مسلمة لهذا الغرض.

قد لا يخلو تاريخ الإسلام من إراقة للدّماء والفتن، إنما هو لا يضاهي في ذلك حقيقةً تاريخ المسيحية. والمشاعر الدينية الأصوليّة هي السبب في الكثير من المعاناة والخلافات السياسية عند المسلمين، إنما من المشكوك فيه أن تجد في تاريخ المسلمين نظيراً للفتنة التي أدّت إلى المجزرة التي قتل فيها القديس بارثولوميو أو وحشية محاكم التحقيقات القضائية (محاكم التفتيش).

* * *

---

(1) هذا تعميم مغلوط من الكاتب لا يجوز، فثمّة نسبة كبيرة جداً من المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها تعيش روح القرآن وتتبّع معاني الإحسان والبرّ أملاً بمرضاة الله، ولا تكتفي بمجرّد إقامة الشعائر وتجنّب النواهي.

(2) على الرّغم من تحفظنا على بعض آراء المؤلف، فإن علينا من باب الإنصاف أن نعترف بأن في عرضه الموجز للإسلام كثيراً من الموضوعيّة والاحترام.

يشار إلى منزلة المرأة في البلاد الإسلامية أنها عقدة متجذّرة في هذا النظام الديني، لكننا لا نستطيع أن نحمّل القرآن أو الرّسول المسؤولية في عزل المرأة اليوم. وللحقيقة، بدأ هذا التقليد في عهد الخليفة عُمر، ولم يكن متّبعاً قبله. وعزل المرأة بهذه الطريقة ليس عربي الجذور، إنما مقتبس من الشرق الأدنى. إنّ نساء البدو في يومنا هذا لا يسدلن الحجاب، مع أنّ استعمال الحجاب شائع في المدن. أما تعدّد الزوجات، مع أنّه ليس إلزاميّاً، فهو مسموح به تحت شروط معيّنة في القرآن، ولا بد من التذكرة أن العالم في ذاك الوقت وحتّى في بلاد مثل بلاد جزيرة العرب، كان يشهد تفوق عدد النساء على عدد الرجال، حيث أن الرجال أكثر عرضة لمخاطر الحياة، والحروب أحد أهم هذه المخاطر. إنّ نظام الزوجة الواحدة قد ينطوي على صعوبات جمّة في الحدّ من الفائض من النساء والتدهور الجدّي في نسبة المواليد، حيث تحتمل هذه المسألة أهمية قصوى في المجتمعات التي يموت فيها الرجال بسبب العنف. إنّ نظاماً كهذا باستطاعته تدمير النسيج الاجتماعي كما نعرفه اليوم، وما هو ممتاز في المبدأ من الواضح أنه مستحيل التطبيق[1].

والشيء نفسه يُذكر في قضيّة الرقّ. فأحسن ما يمكن عمله هو تلطيف الأمر الذي لا بدّ منه. لقد شدّد القرآن على حسن معاملة الرقيق ويقضي أنّه ليس أحب إلى الله من عتقهم. ولا بد من التذكرة هنا أنّ أفكار المسلمين بشأن مواضيع معينة تستند إلى مفهوم للحياة البشرية مختلف عمّا نعتقد نحن. وكمثال على ذلك، لا يقبل معتقدهم مقدّمة كتاب «شعائر الزواج».

ليس من العدل اتهام بعض آيات القرآن الّتي تذكر الحياة الآخرة بالشدّة والتهويل النفسي، ومن يفعل ذلك فقد تهاون في اعتبار الظروف التي نزلت فيها هذه الآيات. فإذا كان لمبدأ الجنّة والنار، والأمل في الثواب والخوف من العقاب أيّ تأثير على سلوك الإنسان، لكان على أولاها أن توصف بأجمل الصور والأخرى بأشدّها حتى

---

(1) من الجميل أنّ المؤلف يحاول بشكل إيجابي تفهّم الإسلام ووضع الأمور في نصابها وسياقها الموضوعي الطبيعي، بغض النظر عمّا هو شائع لدى قومه في الغرب.

تؤثّر فيمن وُجّهت إليه. ليس من الغريب أن توصف الجنّة لسكان جزيرة العرب أرضاً خضراء، ذات أشجار وارفة وأنهار جارية، ولا أن تتضمّن حُوراً عيناً للأتقياء، حيث أن هذا ما يشكّل تسعة أعشار شهوات بني البشر. وقد يكون التوصّل إلى حالة من السلام الشامل والرّضوان تصوراً فلسفياً للجنّة، لكن هل يلام أتباع محمّد في طلبهم تصوراً أكثر مادّية وأقرب للفهم؟ إذا كان علينا الإصرار على تفسير مفردات القرآن كحقائق إيجابية بدلاً من تصورات شاعرية، إذن، وليكون من العدل والمنطق بمكان، فعلينا تقبل كتابي العهد الجديد والقديم بالتوجّه ذاته. لقد استمعت مرة إلى مبشّر يصف الجنّة كيوم أحد أبدي. لا يسعني محاسبة هذا التفسير هنا، إنما لو كان الأمر كذلك، فأنا لا أحبّذ الذهاب إلى هناك، ولا أشعر بأي حرج في التصريح بأنّني أفضّل جنّة المسلمين، التي وصفها النبي بأنها تحت ظلال السيوف.

ولبحث فكرة أنّ المجتمعات الإسلامية ترى في الدين عائقاً لتقدّمها، فإن هذا وكما أشير من قبل، ليس تبعةً تُلقى على كاهل الدين. ورغم أنّه ليس من المعقول ممارسة السياسة الخارجية لبريطانيا على أساس يوافق التفسير الحرفي «لموعظة الجبل» للمسيح، فمع ذلك على القوانين الرسمية في تركية أن تتوافق مع القانون الشّرعي المستقى من القرآن والحديث، اللذين لا يمكن تغييرهما كما تغيّرت شرائع الميديين والفُرس التي بادت وانقرضت.

وبدلاً من أن يتم تقبّل تفسير متحرّر بالتدريج، فقد حصل العكس. إنّ منعاً عاماً للرّبا يشمل الآن الأعمال المصرفية وشركات التأمين، وإنّ خاصية المباشرة وعدّ القابلية للتغيير هما نقطتا قوة وضعف في آن واحد. يُملى على المؤمنين ما يفعلون وما لا يفعلون بطريقة لا تتطلب تأويلاً. إنّ العاطفة والمسايرة غير موجودين في القرآن بشكل ملحوظ، فالأشياء فيه تسمى بمسمياتها والتوافه مهملة، فليلة تقضى في الجهاد في سبيل الله، أو إحسان لمسكين أو يتيم أفضل عند الله من أشهر طويلة من الصلاة والصوم. إنّ منهجيّة التقبّل الحرفي تؤدّي بالمسلمين إلى إضفاء صفة عمليّة إلى القول الفصل القائل بأنّ المؤمنين إخوة ولا فضل لعربي على أعجمي، وهذا ما يفسّر سبب

نجاح الإسلام وتعاظم قوته في إفريقيا اليوم.

* * *

في الختام، يستخلص الكاتب أنّ الدين قد أسهم بالقليل في تطوّر الشرق الأوسط منذ القدم. وقد قيل «كما تكونوا يولّى عليكم». فلو كان الأتراك معتنقي المسيحية بدلاً من الإسلام في أوج قوّتهم وفتوحاتهم، لكان من المشكوك فيه أن يكون حكم الإمبراطورية العثمانية اليوم أفضل أو أن تكون أكثر تقدّماً ممّا هي عليه الآن. على كل حال، فإنّ القليل ممن حصلوا على فرصة دراسة المسيحيين والمسلمين في نفس المجتمع، ويعيشون تحت ظل الظروف نفسها، حاولوا إثبات أنّ هذه الحالة أتت لاحقاً وليست موجودة في صُلب الدّين.

ستكون هذه المقدمة منتقصة إذا لم نُشر إلى حركات الإصلاح المختلفة للإسلام التي قامت بعد وفاة مؤسّسه. ومن الجدير بالملاحظة أن هذه الحركات قد قامت في جزيرة العرب نفسها. إن قوة الاندفاع الأولى سرعان ما استنفدت طاقتها. فبعد سقوط خلفاء بغداد، لم يعد للعرب قوة سياسية. لقد اندمجوا في المجتمعات التي احتلوها أو عادوا إلى سيرتهم البدوية الأولى. وجزيرة العرب الآن هي كما عرفها الرّسول. ومع أنّ معظم القبائل البدوية تدين بالإسلام، فهي لا تمارس الشعائر أو التعاليم الإسلامية بشكل كامل.

بيد أنّ أحد أهم الصّحوات الدينية هي التي قامت على يد عربي من نجد، واسمه [محمّد بن] عبد الوهاب، في منتصف القرن الثامن عشر. أثارت حفيظة محمّد بن عبد الوهاب الممارسات الوثنية والخرافات التي لاحظها في رحلة حجّ له، ولذا راح عند إيابه ينادي بتصوّر أنقى للدّين. لاقت هذه الصحوة الدينية نجاحاً فائقاً لفترة من الزمن. وسيطر الوهابيون على مكة والمدينة، ودمّروا كربلاء. وقد هدّدوا وجود الإمبراطورية العثمانية نفسها في أوائل القرن الماضي، إنما قُمعوا أخيراً على يد محمّد علي باشا سنة 1817–1819، في حملة عسكرية فريدة كونها الفعل العسكري الوحيد الذي سُجّل في وسط جزيرة العرب.

كما تمثّل حركة الإخوة السّنوسيين حركة مماثلة، إنما لم تولَ الأهمية التي تستحقها. أما حركة «المهدية» الشهيرة في السودان فلا تنتمي إلى نفس المضمار. ونُقل عن الرسول قوله إنّ الإسلام، وبعد قوّة عظيمة، سيتدهور إلى مجرد حضور اسمي في هذا العالم، وسيعاد أمره على يد «المهدي»، وهو شبيه بمسيح مسلم، لكن يتميّز عن بقية «الأئمة» وغيرهم الذين ينتحلون لقب «المهدي» الذي يعني من لديه الهداية الإلهية، واللقب دون أداة التعريف لا يعني شيئاً مهمّاً.

وأخيراً، لا بدّ من الإشارة إلى المجتمعات الدينية المسلمة. فكما يبدو من القرآن والتقاليد المتّبعة أنّ جميع مظاهر الرهبانية والكهنوتية لا تنتمي إلى روح الدّين، بالرغم من وجود الكثير من الطوائف الدينية المعروفة باسم الدراويش التي لديها شعائرها الخاصة وتلتزم بمواثيقها. تتّسم ممارسات هؤلاء الدّراويش ومعتقداتهم بأفظع الخرافات، وخطوات الرقص الغريبة المثيرة للضحك، والولولة، وممارساتهم المختلفة لا تمت بصلة إلى تعاليم القرآن المتّسمة بالبساطة والرّزانة. لكن الحقيقة أنّ الأوروبيين يعانون صعوبة بالغة في التمييز بين الاثنين. ولنا أن نؤمن بأنّ اختلاط الأمور على الناس شيء طبيعي عندما نلاحظ أنّه من السهل على مسافر مسلم في أنحاء جنوب أوروبا أن يصدّق أنّ الإيمان بالعين الحسود جزءٌ من ديانة البلاد.

***

الجزء الأول

الفصل الأول

من لندن إلى بيروت

إنّ مدينة مكّة، كما رأينا، تحتوي على معبد كان محطّاً للتبجيل ما قبل الإسلام. ولنوضح كيف أنّ النبي استطاع أن يستبدل عبادة الأوثان بالإسلام دون أن يؤثر على قدسية المقام في مكة، علينا أن نستعيد تاريخاً كتابياً قديماً إنما من وجهة نظر إسلامية.

بنى المعبد المعروف باسم «الكعبة» (وتعني الكلمة مكعباً) آدم عليه السلام، على غرار منزل كان قد رآه في الجنّة قبل هبوطه منها. وقد أعيد بناؤها بعد الطوفان بأيدي كلّ من إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وكُرّست لعبادة الله الواحد. لكنّ العرب، وعلى مدى قرون، حادوا عن الإيمان الصحيح، وعبدوا عدّة آلهة، لكنّهم مع ابتعادهم عن الله الواحد استمرّوا في اعتبار الكعبة مكان عبادة. هكذا كان الحال عندما بدأ محمّد دعوته للدين الجديد، وقد جعلت أوائل الآيات التي أوحيت اليه القدس بمثابة «قبلة»، أي أكثر الأماكن قدسية على وجة البسيطة، حيث يولّي المصلون وجوههم قبلها. إنّما، فيما بعد، نُسخ هذا الأمر وحلّت مكّة مكان القدس، وأصبحت الكعبة أولى القبلتين الشريفتين. إنّ من أركان الإسلام القيام برحلة حجّ مرّة واحدة في العمر على الأقلّ، لمن استطاع اليه سبيلاً[1].

(1) كتب المؤلف: يخصّص وقت محّدد سنوياً لممارسة شعائر دينية في مكة، ممّا يشكل رحلة الحج عند المسلمين.

عُزي تغيير هذا الموقف في نظر النقّاد غير المسلمين إلى أسباب سياسية. إنّ تحويل أهل مكّة عن عبادة الأوثان كان الهدف المباشر لنبوّة محمّد. وبما أنّ ازدهار أهل مكة اعتمد في ذلك الوقت، كما الآن، على قدسيّة مدينتهم، فإنّهم على استعداد لأن يتقبّلوا منطق الدين الجديد إذا حافظ على هذه القدسية. نجح محمّد، بهذه الطريقة المبدعة، في تعزيزها. ويظنّ أن خلافه مع اليهود ساهم في إعطائه تأثيراً أقوى.

مهما يكن التفسير، فإنّ المعبد، والمدينة، وحتى شعابها، اعتُبرت ذات مزيّة قدسية بمكان حيث لا يجرؤ أي كافر أن يطأها. لا نعتقد أنّ الرسول قصد أن يقصي اليهود والمسيحيين، إنما كان أوسع أفقاً من الذين خلفوه. بينما فُسّرت أوامره بهذا المنحى، والغريب في الأمر أنّ التّاريخ لم يسجّل أي انتهاك علني لأيّ شخص وعودته إلى بلاده ليخبر قصّته.

شمل حظر دخول مكّة على الكافرين المدينة المنوّرة، التي تستمدّ قدسيتها من وجود قبر الرسول والعديد من صحابته فيها. وتضفي معظم المذاهب الإسلامية قيمة كبيرة لزيارة هذه المدينة، ويعدّ الإماميّة أنّ قيمة زيارة المدينة المنوّرة تضاهي قيمة الحجّ نفسه.

سيكون من عجب الأمور إن لم تحرّك ميزة هاتين المدينتين فضولاً كبيراً حولهما في أوروبا الغربية. ولا بد من توضيح أمر هنا: إنّ كل مَن يرغب في زيارة المدينتين، بإمكانه القيام بذلك إنّما بعد أن يعلن إسلامه. وعليه أن يتقدّم إلى قاض، ويعلن الشهادتين، ويخضع لعملية جراحية بسيطة. وإثر ذلك، وبعد فترة من ممارسة أصول الإسلام ليقنع المسلمين بإيمانه، لا حرج بقيامه برحلة الحج. وبعد تواصل طويل بينه وبين وزارة الخارجية والباب العالي، وبعد النظر مطوّلاً في أمره، قد يُعطى جواز سفر خاص. وعقب هذا، تكون الحكومة العثمانية مسؤولة عن حمايته، ويُسمح له بالسفر إلى مكّة والمدينة بلا أيّة مخاطر. ومن الممكن أن تُقدّم له مرافقة للعناية به. وقد يكون ملفتاً للنظر إن لم يكن للشك.

والبديل الوحيد لهذا الخيار غير السّهل، هو الذهاب إلى هناك بالتخفّي.

* * *

لقد قام الكاتب برحلة الحج سنة 1908-1909، حبّاً بالاستطلاع من جهة، وليألف عادات العرب لاقتباسها في رحلات تخفّ مستقبلية للداخل من جهة أخرى. فإنّ مركز الحاجّ وصيته مفيدان للمسافر في الدول الإسلامية.

تحتوي الصفحات التالية على مدوّنة للرحلة، كتبتُها بعد عودتي، ولم أكن أنوي نشرها. تُظهر هذه المدونة أنّ الحجاز ليس بحال من الأحوال أرضاً متعذّرة البلوغ كما نظن. وللتوضيح، أعرفكم أولاً بمسعودي، وهو إفريقي من مومباسا تعمّدتَ أخذه إلى إنكلترا ليساعدني في هذه المغامرة، وثانياً، عبد الواحد، عربيّ من حلب، ترعرع في برلين، وضممتُه إلى فرقتي لاحقاً.

اجتمع ثلاثتنا في مارسيليا يوم الثالث والعشرين من أغسطس سنة 1908. وقد كان الحجّ ذلك السنة يوافق الأوّل من مارس، لكن بما أنّي عقدتُ النيّة على التوجّه أولاً إلى المدينة المنورة لقضاء بعض من الوقت في المدينتين، فلم يكن الوقت مبكراً. وكنتُ قد قرّرت أن أقضي وقتاً كافياً في دمشق لإقناع نفسي بأنّني شرقيّ حقيقيّ، قبل دخول الأراضي المقدسة.

إنّ المهمّة الصعبة الأولى كانت في كيفية الحصول على جوازات السفر الضرورية لنفسي ولمسعودي. أما عبد الواحد فكان لديه جواز سفر إنما يحتاج إلى تجديد. اعتمدنا بعض الإجراءات لتخطّي هذه الصعوبة، وكانت النتيجة أنّي حصلت على جواز سفر تركي باسم علي بن محمّد، 25 عاماً، مواطن من زنجبار وفي طريقه إلى مكّة. وقعت هذه الوثيقة فيما بعد بأيدي السلطة التركية ونتجت عنها بعض المشاكل. كان لزاماً عليّ القول إنّ الموظّف الذي أصدر هذه الوثيقة لم يكن على علم أنّي إنكليزي، وأنّ الرشوة لم يكن لها دور في هذه العملية.

عند الانتهاء من مسألة جوازات السفر بشكل مُرضٍ، كنّا على استعداد تام لمغادرة مارسيليا بأسرع وقت ممكن. إنّ الفندق الذي كنّا ننزل فيه، مع أنّه لم يكلّفنا الكثير - ثلاثة فرنكات في اليوم - كان نتناً. قضينا بعد ظهر ذاك اليوم بالتنقّل بين مكاتب البواخر، آملين أن نجد مكانا في الدرجة الثانية في سفينة متجهة إلى مصر أو سوريا.

كان ذلـك مسـتحيلاً حيث أنّ السـفن كانت مزدحمـة. وما توفر لنـا كان فقط غرفة من الدرجة الأولى، أو مهجعاً من الدرجة الثالثة، ولـم يناسبنا أيّهما.

ثم خطر لي التوجّه إلى جنوا، حيث علمت أنّ هناك عدداً من السـفن أقلّ شـهرة من غيرهـا، تتوجّه شـرقاً، وظننت أنّ بإمكاننا تجنّب التعـرّف إلينا في حين كان علينا قضاء بعـض الوقت هناك. حينما عقدتُ النيّة على ذلك، لم نضع وقتاً في القيام بالإجراءات المناسـبة وغادرنا مارسـيليا منتصف الليل. وصلنا جنوا الرابعـة بعد ظهر اليوم الثاني، ووجدنـا فندقاً رخيصـاً لا بأس به في الطريق من المحطة. كان الاعتراض الوحيد عليه هو ضجّة الشـارع المسـتمرة التي تمنع الفرد من أن يسـمع ما يقال له. خلال فترة بعد الظهـر، قمنـا بزيارة جميع مكاتب السـفر البحري، إلى أن حصلنا علـى مهاجع لنا من الدرجـة الثانيـة في سـفينة «فاليرنو» *Falerno* بعـد ثمانية أيام، إنما كانت هي السـفينة الوحيـدة المتوفرة. لم تكن فكـرة الانتظار الطويل مقبولة تحت هذه الظروف، لكن لم يكن بوسعنا أي خيار آخر.

سـأمرّ مـرور الكرام على الأيـام التي قضيناهـا في جنوا، فقـد أكلنا، ونمنـا، وقرأنا وتجوّلنـا فـي المدينة، وشـعرنا بكثيـر من الملـل. كان نُـزلاء الفندق مـن الإيطاليين، ومعظمهم، كما أستطيع القول، من التجّار. والأمر الأهم أنّهم لم يكونوا فضوليين.

* * *

صعدنا متن السفينة في بعد ظهر يوم ثلاثاء، ووجدنا أنّ «فاليرنو» ذات الثلاثة أطنان سـفينة رثّة المظهر. كان هناك سـتة مهاجع في قمرتنا، وغرفة اسـتقبال. ولـم يكن هناك أيّة خدمات متوفرة لنزلاء الدرجة الثانية على ظهر السفينة، والقليل منها لنزلاء الدرجة الأولـى. احتملنا الأيام الأولى، حيث أننا كنّا تقريباً وحدنا على متنها، لكن بعد مرورنا بنابلس، امتلأت جميع القمرات وكان الذين أقاموا معنا في القمرة يشعرون بدوار عند هياج البحر، وكانوا شديدي الصّخب عند هدوئه. استمرت الرّحلة تسعة أيّام كاملة إلى الإسـكندرية. ولم يكن هناك مـن إنكليز على متن الباخرة، إنما أظـنّ أنّ الركّاب كانوا يمثلون أغلب الجنسيات الأوروبية الأخرى. أما نحن، فلم نختلط مع أحد، وكنا نتخذ

أمكنة على طرف المائدة. أعترف أنّني أعرف القليل من الفرنسـية، ومن حين إلى آخر تحدّثـتُ بتلك اللغة مع رجل وسـيم وأنيـق جداً، قال إنّه موظف فـي بلاط الخديوي، حيث أنّي أعتقد أنّه مرافق خاص له.

وصلنـا إلى الإسـكندرية فـي وقت متأخر من الليـل، لكننا لم نغادر السـفينة إلا في الصباح. أُخذنا مباشـرة إلى مكتب الجوازات، حيث قدّمنا وثائقنا التي خُتمت بتأشيرة الدخـول. ومـن ثـمّ توجهنا إلى الجمـارك حيث سُـئلنا إن كان معنا شـيء للتصريح به فنفينـا. عليّ أن اذكر هنا أنّي قد خبّأتُ ما معنا من سـلاح وذخيرة في جيوبنا، بالإضافة إلى وثائق هامة مثيرة للمشاكل، مثلاً جواز سفري الإنكليزي، ودفتر المصرف وغيرها. وكانت أمتعتنا تحتوي على عدد من الساعات وبعض الأمور التي ننوي تقديمها كهدايا لاحقـاً، وبعضهـا ثمين. وهـذه القطع وضعت في جيـوب الملابس خوفـاً من التلف. وهناك أيضاً عدّة طبّية، بعض الضمادات وعدّة أشياء أخرى.

لقـد جعلونا نفتح كلّ الصناديـق ونخرج محتوياتها التي فتشـوها جيداً، وقرأوا كلّ ورقـة، وفتحوا كلّ كتاب ووضعوا أيديهم الملوثة بالحبر على كل ما له أدنى قيمة. بعد الانتهـاء من أول صندوق، طلب منا توضيبه من جديـد. بعد كلّ هذا التدقيق، قدّرنا أنا ومسـعودي أنّهم لن يتغاضوا عن تفتيش ما في جيوبنا، ولذا، خلال توضيبنا للصندوق الأول، تدبّرنـا إفـراغ محتويـات جيوبنا من الوثائق والأسـلحة في الصنـدوق، وهكذا تخلّصنـا ممّـا كنّا نحمـل، إنما كان من المسـتحيل التواصل مع عبـد الواحد، فتوقّعت كارثة محققة. بعد أن انتهى تفتيش الصناديق، سيق بنا إلى غرفة داخلية للتفتيش.

خرجنا أنا ومسـعودي أبرياء من حيازة ما هو محظور قانونياً، ولـم يخرج من جيوبنا أمـور مهمـة اكثـر من 200 قطعـة ذهبية. إنمـا أفرغ عبـد الواحد من جيوبه مسدسـات، وذخيرة، بطاقات بريدية، ومجوهرات في سـيل مسـتمر انقـضّ عليه موظفو الجمارك بانفعـال. وبعـد مداولة، ألقي القبض علينا كأفراد مشـتبه بهم ووُضعنا تحت الحراسـة إلى أن يصل «المدير». والمدير، الذي وصل بعد ساعتين، قرّر أنّ هذه المهمّة اكبر من أن يقوم بها بنفسـه، فحوّل أمرنا إلى الباشـا. وبما أنّ الوقت كان في رمضان، فإن الباشا

لم يظهر إلا حوالي الساعة الواحدة بعد الظهر.

عندما رأيته علمت أنّه من الذين لا يطيقون الصيام فقد كان معكّر المزاج. خضعنا إلى تحقيق دقيق. وممّا لفت نظرهم الحقيبة الطبية والأجهزة التي بحوزتنا. لم يفقهوا حاجتنا لهذه الأدوات. ولحسن الحظ، كنت قد اتفقت مع عبد الواحد، في حال أيّة مواجهة، أن يدّعي ملكيته لهذه الأدوات ويقوم هو بالكلام. أما خلاصنا فإننا ندين به لبُعد النظر هذا، ولحسن حظّنا بإعادة وثائقنا غير مقروءة. أما عبد الواحد، ولأنه المذنب الرئيس، فقد تحمّل كلّ اشتباه حولنا. لم يُبد أحد اهتماماً كبيراً بي أو بمسعودي، إنما لم يشكّ أيضاً بعروبة عبد الواحد، بالإضافة إلى أنّه كان يتكلّم بسرعة هائلة ممّا أتعب موظفي الجمارك.

لقد أُطلقت حريتنا بحذر، إنما حُجز ما كان معنا في مبنى الجمارك على أن يعاد إلينا عند إبحارنا إلى بيروت. ولذا، خرجنا إلى النور حوالي الساعة الثانية والنصف بعد الظهر، مُتعبين جائعين، لكن مع كل ما حصل وقيل، شعرنا بنشوة نصر. تلقّيت أفضل التهاني من عبد الواحد على خلفية التخلّص من الوثائق كما فعلت. لم يكن يدرك أنّي فعلت ما فعلت، وعندما تمّ تفتيشي، توقّع الأسوأ كشرٍّ لا بُدّ منه. لكن عندما لم يكشف معي شيء، تساوت دهشته وارتياحه، وشعرت أنني ارتقيت في نظره عدّة درجات بعد ذلك اليوم.

* * *

طلبنا من الحارس أن يزكّي لنا فندقاً مناسباً لأمثالنا، فلم يتوان عن المساعدة. وجدنا أنّ الغرفة في الفندق تحتوي على جناح من الغرف فوق حانوت حلّاق. وعندما تفحّصت الغرف من الداخل لم يسعني إلا التفكير بالحارس الذي لم يكنّ لنا الكثير من التقدير. على كل حال، كانت تكلفة الفندق قليلة جداً (فرنكاً واحداً في اليوم) وكان نظيفاً إلى حد معقول. وبعد مشادّة مع الحمّالين الذين حملوا أمتعتنا، وصلنا إلى تسوية معهم، وعقب ذلك غيّرنا ملابسنا وتناولنا بعضاً من الطعام وأخذنا قسطاً من الراحة.

أما في المساء فتوجهنا إلى أقرب حمّام تركي. أخذت الحيطة في حلق شعري كلّه حتى أظهر بمظهر غير أوروبي قدر المستطاع، وارتديت ملابس عربية كما فعل الآخرون. حتى هـذه اللحظـة لم نكن قد غيّرنا هندامنا، مـا عدا إضافة الطربوش. وكنت سـعيداً أنّ مظهرنا لـم يلفـت الانتباه. خلال تواجدنا في الإسـكندرية، كنّا نُسـأل إلى أي بلـد ننتمي حيث من الواضـح أنّنا غربـاء. وكان عبد الواحد يجيب عادة أنّنا من بغداد، ممّا يسـري علينا جميعاً، لكن عند طلب المزيد من التفسير فإن زنجبار كانت كافية لإشباع أيّ فضول.

* * *

فـي اليـوم التالي، حصلنـا على تذاكر سـفر على سـفينة بريد خديوية إلـى بيروت. وكانـت الرّحلـة الأولى المتوفرة بعد ثلاثة أيّام. لكن بمـا أن هذا التأخير وفّر لي فرصة التعـوّد علـى ظروف الحياة الجديـدة، وأيضاً التدرّب على اللهجـة المصرية المحلية، لـم يكـن التأخير غير مرحّب به. إن مسـألة اللغة، والتي يظنّها الكثيـر من الناس العائق الأوّل لمسافر متخفّ، ليست بالصعوبة التي تظهر بها. هناك العديد من اللهجات للغة العربيـة، وهي واسـعة التنوع باختـلاف اللفظ والمفردات، حيث أنّ أيّـة لفظة غريبة لا تلفـت الانتباه. فمثـلاً، إنّ رجلاً من اليمـن لا يفقه ما يتحدّث به مصريان بسـهولة، مع أنّ باسـتطاعته أن يتحدّث معهما بسـهولة. والسبب في ذلك يعود إلى أنّ الغرباء عندما يتحدثـون مع بعضهم يسـتخدمون اللفظ الصحيح للكلمـات والقواعد مقتربين بذلك مـن اللغة العربية الفصحى، ويتجنّبون اسـتعمال الألفاظ المحلّيـة التي تجعل كلامهم غير مفهوم. بعد هذا كله، هناك الكثير من الناس في بلاد الشـرق الأوسـط يدّعون أنّهم عـرب إنمـا في الحقيقة هم مـن العجم، أو الأكراد، أو الأتـراك وغيرهم. ومعظمهم لا يسـتطيعون محاكاة اللفظ البدوي[1] للكلمات والذي هو مـن خصائص اللغة العربية. وهذ ه الملاحظة تنطبق أيضاً على أهل مصر: فإنّ رجلاً نشأ في القاهرة ليس باستطاعته لفظ حرف الضاد مثله مثل أيّ شخص آخر من أبناء العربيّة ذاتها.

---

(1) كتب المؤلف: في هذه السياق وكلمات اخرى، إن الحرف (ي) يستعمل للنسبة في الصفات: بدو، بدوي (جمع). لم أدرك ان المؤنث هو «بدوية» والجمع أيضاً.

لقد تخطّيتُ كلّ المصاعب بمجرد القول إنّ اللغة المحكية في زنجبار هي السّواحليّة، وأن العربية غير مستعملة، وهذه حقيقة واقعة. ولم يكن أحد ممن تواصلت معه يتكلم السّواحليّة. ولذا، فقد كان بإمكاني طلب نصيحة مسعودي علناً في أيّة مشكلة دون أن يفهمنا أحد، وكان هذا ممّا عاد نفعاً جمّاً عليّ. كنت حريصاً أن أتكلم معه بسرعة فائقة حتى أعطي الانطباع أنّي اتكلّم بلغتي الأم. وفي الحالات التي اضطررت بها إلى أن أتكلّم السّواحليّة مع أهلها، كنت أعكس الآية وأدّعي انني ولدت في مَسقَط وأنّ لغتي الأم هي العربية. لم أصادف أيّ إنسان كان ضليعاً باللغتين في آن واحد ليكشف حيلتي، وبالطبع كنت أتخذ كلّ الاحتياط حتى لا أختلط بمجتمع قد يجمع بين اللغتين. وأعتقد أنّ «بُرتون» Burton قد استعمل هذا المنهج ذاته في رحلته، وهذا لعَمري لهو أمر منطقي.

* * *

تركنا الإسكندرية بحراً في يوم أربعاء الساعة الرابعة بعد الظهر. وكنا قد توجهنا إلى مكتب الجمارك في الساعة الثانية لاستلام حاجياتنا. ومن هناك، أُخذنا إلى مفوضية الشرطة، حيث حُقّق في جوازات سفرنا مرة ثانية، وتمّ تفحّص ملامحنا جيداً عسى أن نكون أحد المجرمين في الصور الملصقة على الجدران. عندما تأكدّت الشرطة أنّنا لا نشبه أحداً من المطلوبين، أُرسلنا إلى مكتب الحجر حيث فُتحت أمتعتنا مرة أخرى، لكن بما أنّها لم تحو أيّة ملابس غير نظيفة، فقد تجاوزنا عملية التبخير وأُرسلنا إلى غرفة أخرى بانتظار الطبيب الذي سيعايننا.

كانت المعاينة هزلية.. فقد طلب منا أن نقف في صفّ واحد، حيث مرّ الطبيب أمامنا ينخسنا تحت إبطنا، ومن ثمّ سمح لنا بالتوجّه إلى السفينة. إنّ الحكمة من هذه المعاينة هي اكتشاف أيّ تدرّن غددي والذي هو علامة للاصابة بالطاعون، إنما طبعاً أيّ مريض يصل إلى هذه المرحلة المتقدمة لن يكون باستطاعته أن يتحمّل رحلة من هذا النوع، ولذا لم أر أيّ فائدة من هذه الإجراءات. إن كانت المعاينة ضرورية، فكان يجب أن تكون شاملة، بما فيها قياس الحرارة التي تكشف أيّة إصابة في بدئها. إنّ

إجراءات الحجر الصحي المتبعة الآن في هذه المنطقة من الشرق مقصود بها الإزعاج فحسب.

كانت السفينة البخارية إحدى أكبر رفيقاتها، تزن اكثر من 5000 طناً، إن أسعفتني ذاكرتي. وكانت مكتظّة جداً، على الأقل على متنها. استقرّينا في مؤخرة السفينة لأننا وصلنا متأخّرين حيث حُجزت الأماكن الجيّدة لأوّل الواصلين. وبعد مشادّة حادّة، تمكنا من أن نضع سجّادتنا فوق صندوق كبير معلّق على جانب السفينة، حيث بدا لي موقعاً مهمّاً، فهو نظيف وفوق الزحام. أما الاعتراض على هذا الموقع، وكنا قد علمنا عنه بعد الإبحار، وكان الوقت متأخراً للتغيير، فكان صندوق الثلج. فكلّما احتاج طاهي السفينة إلى أيّ شيء، كان علينا أن نلفّ السجّادة ونرفع حاجياتنا من فوقه لنخلي الطريق للطاهي، كلّ هذا سبّب الكثير من الإزعاج لنا والكثير من التسلية والفكاهة لبقيّة المسافرين. حصل هذا المشهد عشر مرات يومياً.

في ذلك المساء، عرض علينا الربّان غرفته مقابل جنيهين. فعرضنا عليه مبلغ عشرة شلنهات لكنّنا اتفقنا على جنيه لويس واحد. أما القمرة، التي تحتوى على سريرين خشبيين، فكانت فوق دفّة القيادة مباشرة. ووفّرت لنا بعضاً من الخصوصية المرحّب بها، وملجأً من رداءة الطقس، لكن كان من المستحيل أخذ قسط من النوم هناك بسبب الحرارة ورداءة التهوئة، بالإضافة إلى حجم وشراسة الذباب فيها.

كان بقية الركاب خليطاً من جميع الأجناس والألوان: يونانيين، إيطاليين، مصريين، عرب من الغرب، سوريين وأتراك، محتشدين على متن السفينة حيث كان من المستحيل أن تسير بينهم دون أن تدوس على أحدهم. وكان الجميع مشتركاً في سوء الحظ، فقد كان البحر هائجاً وكان معظمهم بحّارة سيئين، لكنهم لم يكونوا عدوانيين، ممّا سهّل الأمور إلى حدّ ما. ولم يكونوا فقراء، فالعديد منهم، بلا شكّ، كان قادراً على أن يتحمّل تذكرة الدرجة الأولى أكثر من الذين حجزوا أماكن لهم هناك. إنمّا كقاعدة، يفضّل المسلمون أن يسافروا بهذه الطريقة بسبب الطعام. وهذا الأمر مافتئ يفرض صعوبة لذوي الطريقة التقليدية، حيث بالنسبة لحرفية القانون الشرعيّ، لا يحلّ اللحم

إلا إذا كان الحيوان قد ذُبح بالطريقة الإسلامية. ففي البلاد الإسلامية، تختم اللحوم الحلال بخاتم من الحكومة ولا بدّ أن يُبيّن للمستهلك عند طلبه ذلك. بالإضافة إلى أنّهم مثنيون عن تناول الطعام الأوروبي في حال دخلت فيه منتجات الخنزير. وبالطبع، إن كان قانونهم مطبّقاً بصدقية، فهو يحول المسلم عن التجوال في أوروبا. بينما يؤخذ بعين الاعتبار أنّ تجنب تناول أيّ طعام معروف عنه باحتوائه لحم الخنزير يطابق روح التشريع.

* * *

وصلنا بور سعيد في اليوم الثاني، وقضينا اليوم بطوله على الشاطئ، ممّا يفسر عدم صلاحية قوانين الحجر الصحي. حيث يمكن لأيّ كان أن يترجّل من السفينة مدعيّاً ببساطة أنه قادم من الإسكندرية. إنّ بور سعيد ليس بالمكان المقبول في أيّ زمن، لكنني لم أستسغ وجودي هناك أكثر من أي وقت مضى. كنّا سعداء عندما انتهى الأمر. وفي الصباح التالي وصلنا يافا، ميناء القدس حيث ترجّل عدد لا بأس به من المسافرين وانضم غيرهم. كان مرسى السفن مفتوحاً، وفي الطقس العاصف كان الصعود إلى القوارب صعباً جداً.

وباعتبار أنّنا وصلنا إلى الأراضي التركية، فقد وجب علينا الحجر الصحي مرة أخرى. حُملت آلة التبخير المطهّرة إلى متن السفينة وطلب منا ان نتجرّد من ثيابنا حتى يتمّ تطهيرها ويتمّ فحصنا. هنا، رفضت هذا الأمر ورشوت أحد الموظفين بدولار واحد حتى يطلق سراحنا. أخذ الموظف المال بطيب نفس، ممّا دعاني إلى الاعتقاد أنّي غاليتُ له في المبلغ. وحصلنا على بطاقة تشهد لنا بأنّنا «أنجزنا» وشققنا طريقنا إلى الطبيب الذي كان في ردهة في الطرف الآخر من السفينة، وذلك للحصول على إفادة لدخولنا بيروت. سنحت لنا الفرصة لنتمتّع بمشهد تبخير بقية المسافرين الذين كنّا سنكون من ضمنهم لو انتظرنا دورنا. كان الاستماع إلى مفرداتهم حين أرجعت ملابسهم المبتلّة لهم وقد اختلطت ألوانها متعة. حين تم الانتهاء من «إتلاف» ملابس الركاب، رُشّ بقية سائل التطهير على السفينة بشكل عشوائي، ممّا أثار حفيظة بعض

المسافرين فانثالوا يشتمون، وهم الذين استقبلوا الرذاذ في أعينهم. وعندما تم الانتهاء مـن التسـبّب بأكبر قدر ممكن من الإزعاج العام انسـحب فريق الحجـر الطبي وأُخلي سبيلنا.

كانـت الرياح تعصف طوال النهار، ويهتاج البحر معها. وصلنا إلى حيفا عند حلول الليـل، وبقينا هناك سـاعة من الزمن قبـل المغادرة. وخلال مرورنـا بالخليج المحميّ بمحـاذاة جبـل الكرمل دخلنا في بحر هائج جداً. تكسّـرت أمواج عاتية على السـفينة، وكان موقعنـا علـى صنـدوق الثلج متزعزعـاً جداً. لجأت أنا ومسـعودي إلـى قمرتنا، لكـن عبد الواحد، الـذي تخطّى مرحلة الخوف من الغرق، رفـض أن ينتقل. وحتى لا نخسره بهذه الطريقة، سحبناه وأمتعته إلى مكان أكثر أمناً، مع أنّه كان مبتلاً بماء البحر. كان ظهر المركب في حالة مزرية، لكنّي هنّأت نفسـي على حصولي على هذه القمرة. وبعد ليلة غير مريحة، إنما كانت أفضل عشر مرات من ليلة من قضوا الوقت على ظهر المركب المكشوف، هدأ البحر، ودخلنا ميناء بيروت عند الفجر.

* * *

كنت أتوقّع شـرّاً مع السلطات في ميناء بيروت، حيث أنّي أعلم أن إجراءات دخول الأجانـب في تركية دقيقة جداً. حضّرت نفسـي لاسـتجواب متعـب، وتوقّعت حجزنا لفترة غير قصيرة. ولذا كنّا على استعداد لأيّ طارئ ولإجابة أيّة أسئلة محتملة. فمثلاً، لو أثارت عدّتي الطبية أيّة تسـاؤلات، كان على عبد الواحد أن يدّعي أنّ أخاه، الطبيب في بغداد، طلب منه ابتياعها من أوروبا، معتمدين على أنّ السلطات لا علم لها بماهيّة هذه الأدوية واستعمالاتها. كانت هذه خطّة لتجنّب ما حصل معنا في الإسكندرية.

إنّما بالحقيقة، كلّ هذه الاسـتعدادات كانت غير ضرورية. فعند ترجّلنا من السفينة، توجّهنا إلى مكتب صغير حيث ختم موظّف بلباس رسمي جوازات سفرنا بعد أن ألقى نظرة سـريعة علـى محتوياتها. وأظهر بعـض الاهتمام الطفيف بالسـيف الذي أحمله، وهو سـلاح مميز من مسـقط، إنما بعد أن تناوله وقلبه على مكتبه أعطاني إيّاه دون أيّ تعليق. ثم توجّهنا إلى الجمارك، حيث فتحنا صناديقنا دون أن نُسأل إن كان معنا شيء

للتصريح به. وبعد تدقيق سريع سُئلنا إن كنّا نحمل أيّة أسلحة، فأظهرنا ما معنا. لكن عندما عرف أننا من الحجاج، لم يعترض على حملنا السلاح، مع أننا دفعنا غرامة بسيطة عليه.

خلال هذه الإجراءات، متّعتُ نفسي بمراقبة ما يجرى مع بقية المسافرين، ولاحظت أنّ بعضهم لم يسلم من التدقيق. واجه بعض المسافرين الأوروپيّين المتاعب نفسها التي صادفتنا في الإسكندرية. وأعتقد أنّ الانفتاح الذي بدا في تركية كان له الأثر الأكبر في تيسير تحقيقات الشرطة معنا والتي كانت من قبل مصدر إزعاج كبير. مهما كان التفسير، فالمهم أنّنا مررنا بغير صعوبات تذكر، ووجدنا أنفسنا قد دخلنا الأراضي التركية ولدينا الحرية التامّة في التوجّه حيثما شئنا.

حصلنا على غرفتين كبيرتين نظيفتين في فندق بمبلغ فرنكين للّيلة الواحدة. والواقع أننا لا نستطيع أن نطلق على الفندق هذا الاسم حيث لم يكن هناك أيّ طعام متوفّر فيه. وأمضينا النهار نتجوّل في المدينة ونبتاع ما نحتاجه. إنّ بيروت لديها ميزة خاصة، وهي شرقيّة أكثر من أيّ مكان آخر زرته في مصر، إنما ليست كدمشق. يتألّف السكان في الأغلب من المسيحيين واليهود. كنت أحبّ أن أقضي هنا بضعة أيّام، لكن لأسباب مختلفة قرّرنا التوجه إلى دمشق. وكنا ممتنّين لعدم حاجتنا إلى السفر بالبحر (أو هكذا ظننّا) وقد ملأتنا السعادة لنجاحنا في مهمتنا إلى الآن. بعد تناول العشاء، جلسنا أمام مقهى في المركز الرئيسي للمدينة، دخّنّا، وتناولنا بعض القهوة، وتحدّثنا مع مختلف الناس. وخلدنا إلى النوم باكراً حيث كان بانتظارنا سفر في فجر اليوم التالي.

* * *

الفصل الثاني

دمشق

إنّ المشـاهد في الأراضي اللبنانية قد وصفت كثيـراً، وأجملها منظر البحر الأبيض المتوسّط من على قمم الجبال.

سافرنا في الدرجة الثالثة مع مجموعة من التجّار السوريّين من دمشق، الذين ما فتئوا ينتقلـون من حديث إلـى آخر دون انقطاع، لـم أفهم معظمـه، حيث وجدت صعوبة في متابعـة الحديث. وتناسـينا حرارة الجو والإرهاق عند تنـاول التين والعنب المتوافرين فـي كل محطّة، حتى أنّنا تناولنا فائضاً منهمـا. ولقد لاحظتُ في حافلة الدرجة الأولى أنّها مريحة وتقريباً خالية من المسـافرين. يبدو أنّ الاقتصاد في السـفر خاصيّة شـرقية. شـخصياً، أؤمن أن لا وقت أفضل من الإسـراف حين السـفر. وقد قيل إنّ الاسـتمتاع بالثـروة يتجلّـى في قدرتها على إبعاد متاعب الحياة الصغيـرة. يبدو، على أيّ حال، أنّ المال ينفع في ذلك خلال السـفر. لكنّي لم أصادف أيّ شـرقيّ يعدّ أنّ دفع المزيد من المال للسـفر في الدرجة الأولى أو اسـتئجار جمل إضافي فكرة مرعبة، مع أنّه مسـتعدّ للإسراف على كماليّات تعجبه.

إنّ دمشـق إحدى أكثر مدن الشـرق كثافة سـكانيّة وجمالاً. فهي تحتوي على أميال من الأسواق المسقوفة ذات الميزة الشرقية. ويقال إنّ فيها ألف مسجد وسبعين حمّاماً تركيّـاً، مع أنيّ أشـكّ في هذه الأرقام. يشـقّ المدينة وما حولها جـداول متعدّدة، بينما تحيط الحدائق الغنّاء بضواحي المدينة لمساحات واسعة. وتمتاز فيها الثمار والزهور، أمـا الجـوّ الهـادئ والجاف فلا بـدّ أن يكون صحيّـاً. ومـع أنّ النهار حارّ فـي الصيف

فالطقس يصبح مع ذلك منعشاً خلال الليل، فلا يكون حارّاً حتى تحتاج النوم على السطح المكشوف كما هو الحال في بغداد والمدن العربية. أما في الشتاء فتمرّ بعض العواصف الثلجية، ولذا فإنّ الأسواق مسقوفة. إنّ البنيان الرئيس هو مسجد عظيم في وسط المدينة، وأعتقد أنّه الأكبر في العالم. قبل سيطرة الإسلام على سوريا، كان هذه المبنى كنيسة. أما من ناحية الأبنية الأثرية، فإن دمشق مخيّبة للآمال و لا تقارن بالقاهرة. هنالك القليل من الأبنية، وتمتاز المنازل بالبساطة مع أنّ الأسواق حيث يعيش معظم التجّار ويعملون لها طابعها الخاص.

كما هي العادة في الشرق، تنقسم المدينة إلى قسم إسلامي وهو أكبر أقسام المدينة وأغناها، وآخر يهوديّ وثالث مسيحيّ. هناك فندق واحد محترم، حيث ينزل الأوروبيون عادة، والكثير من النزل للزوار الشرقيّين. حططنا رحالنا في غرفة كبيرة في أحد هذه النزل، حيث نصحنا به مرافق لنا في القطار، لكن لم يكن النزل هذا من أفضل ما هو موجود عدا عن أنّه عالي التكاليف، فغيّرنا المقام لاحقاً. كنّا نتناول الطعام في مقاه مختلفة حيث أنّ الطعام لا يقدّم في الفنادق هنا.

* * *

كان اليوم العشرين من رمضان[1] وحيث أنّنا لم نقصد التوجّه إلى المدينة إلا بعد شهر، فكان لا بدّ لنا من أن نوفّر الراحة لأنفسنا. بإلقاء الضوء على ما سيكون في المستقبل، وجدت أنه من المناسب ان أؤقلم نفسي على الحياة الشرقية قدر المستطاع. كان من الضروري أن أتعلم بعض الجمل، والأقوال وكيفية الترحيب والإجابة الصحيحة عليها. ومن الضروري أيضاً أن أتعلم شعائر المسلم، عند دخوله وخروجه من المسجد، دون أخطاء، وأن أرتدي الملابس بالطريقة التقليدية، حتى لا يكشف ستري.

هذه هي التقاليد التي تكون عقبة أمام الأوروبي المتخفّي كمسلم أصلي، حيث أنّها

---

(1) كتب المؤلف: يلفظ حرف الضاد كالزاي تسهيلاً.

مشتركة في العالم الإسلاميّ، وأيّ خطأً يلفت الانتباه إليه. فمثلاً، مهما كان الأوروبي، ومهما اهتمّ بهندامه الشرقيّ، ومهما أتقن اللغة، فلو قال له أحدهم «نعيماً» بعد أخذه حمّاماً ولم يعرف كيف يجيب، سيُعرف أنه «إفرنجي» تماماً كأنه ينزل إلى الشارع معتمراً قبّعة اجنبية. أيّ خطأ في الصلاة، أو عند زيارة ضريح أو حتى في إجابة عند حضور درس ديني قد يكون مميتاً. إن التمرين المسبق ومراقبة النفس واجبان لإنجاح مهمّة من هذا النوع. وتكمن الصعوبة في أمور مماثلة وليس في اللغة أو الهندام. يتواجد في مكّة رجال بيض بقدر ما هناك رجال سود أو سمر. ومن المعتاد أن ترى من العرب السوريّين من هم بيض البشرة زُرق العيون. وقد سُئلت مرّة بأي لون أخفيت نفسي في هذه الرّحلة. إن سؤالاً من هذا النوع يبدي جهلاً فضوليّاً خلف التعصب ضدّ أجناس البشر، وهو ما يتباهى به بعضهم. ربما يكون هذا كمثل فرد لوّن نفسه بالأسود ليمثل مسرحية هاملِت.

إنما ينبغي ألا يُستخلص من هذا الطرح أنّ على المتخفّي أن يكون ممثلاً بارعاً لينجح في مسعاه. إنّ الأمر الرئيس هو أن يكون شديد الملاحظة وقليل الكلام. ومن الممتع سهولة اكتساب عادات غريبة عندما يندمج المرء في مجتمع جديد. أعتقد ان السرّ يكمن في لعب الدور بعفوية، وأن يصدّق المرء نفسه في دوره الجديد إن كان منفرداً أو بين الناس.

وليس من العمليّ أن يبعد المرء نفسه عن الناس ويتجنّب الحديث مع أيّهم. فعند السفر في هيئة شخصية محترمة، أنيقة، وبرفقة خدم، من الصعب أن تتجنّب مقابلة ومعرفة الناس، وإلى حدّ ما، أن تقبل ضيافة الغير وتُحسن ضيافتهم. فمن الأفضل أن تمارس هذا في العلن، طبعاً بعد الكثير من الدراسة الخاصة ما استطعت إليها سبيلاً، وذلك لتعوّد نفسك على الأجواء الاجتماعية. شخصياً، نلتُ أنا مساعدة جمّة من كوني خجولاً بطبعي حول الناس، وممّا لم يحتج مني أيّ تمثيل، حيث كنت لا أدّعيه إدّعاءً. ساعدني هذا الخجل على الملاحظة، وقلّة الحديث، وفسّر بعض تصرفاتي غير اللبقة.

إن كان الهدف مجرّد زيارة مكّة المكرّمة، أو أيّ مكان آخر، سرّاً، عليّ القول إنّ أسهل وسيلة لذلك هي التنكّر بزيّ فقير، بثياب رثّة، وخمس جنيهات في جيبه فقط لا غير. أما إذا كانت الرّحلة ستمتد إلى فترة من الزمن، فلا مجال إلا للاعتراض على هذه الفكرة، فلن يكتسب المسافر أيّ خبرة تذكر. ومعظم الناس يفضّلون تمضية وقتهم بطرق أخرى.

كم هنّأتُ نفسي على لختياري دمشق بدلاً من مصر كمركز لإقامتنا في المرحلة الأولى من الرّحلة. إنّ فرص اكتشافنا ستكون كبيرة هناك، حيث أنّ الناس أكثر فضولاً وأكثر انفتاحاً في الحديث مع الغرباء وبمظاهر وعادات أوروبية أكثر منهم في آسيا الصغرى. وحيث أنّهم سُمر البشرة، فإني سأظهر دائماً بمظهر الغريب بينهم، بينما في دمشق، وفي الزيّ المحلّي، لم يكن هناك أيّ شيء يميّزني عن أهل البلد. أخطأني البعض باعتقادهم أنّي من أهل المدينة المنوّرة، حيث أنّ الكثير منهم يزور دمشق بعد الانتهاء من إنشاء السكّة الحديدية، وخصوصاً في هذا الوقت، قبيل موسم الحجّ.

بما أنّنا لم نعد على سفر، لم يكن هناك أيّ عذر لإفطار أيّام رمضان. إنّ الصيام أحد أعمدة الإسلام الأربعة المفروضة على جميع المؤمنين. إنما يعطي الشرع عذراً للإعفاء من الصيام، مثلاً إن كنت على سفر، أو في حرب، أو مريضاً ممن يضرّه الصيام. لم يتعاطف الرّسول مع الزهد، ولاحظتُ أن الصيام متّبع عموماً. وقد قيل لي إن هناك بعض الإهمال للصيام في الجزء الأوروبي من تركية، إنما مظاهر الصيام في الأماكن التي زرناها كانت واضحة جداً.

كنا بالطّبع شديدي الانتباه لتجنّب كشف سترنا إن لم نقم بكلّ الواجبات الدينية. أما عبد الواحد فقد اعتاد أن يمتّع نفسه ببعض حلوى الزلابية ضمن غرفتنا بغضّ النظر عن أيّ اعتراض منّا، وكان الاعتراض وافراً. حتى أنّ مقاطع من الآيات التي تظهر مصير كلّ منافق يتظاهر بالصيام جهراً لم تكن لتردعه عن الإفطار دون عذر. بقدر ما ذكرنا عذاب جهنّم واليوم الآخر، بقدر ما كان عبد الواحد يستمتع بحلوى الزلابية.

لم أجد في الصيام مشقّة تذكر، الحرمان الرئيس كان الحرمان من التدخين بالطبع، وطالما كان لدى الفرد حريّة المأكل ما بعد الغروب، فلم أجد فيه صعوبة، وقد كنت أنام

جزءاً لا بأس به من النهار. اتّخذنا لأنفسنا العادات التالية خلال رمضان: كنا نستيقظ حوالي الساعة التاسعة والنصف، نتوضّأ ونقرأ بعض الصحف أو الكتب إلى الحادية عشرة، ثم عادة ما نخرج. بعد التجوال في الأسواق حوالي ساعة من الزمن، نلجأ إلى المسجد الكبير بانتظار صلاة الظهر، ونبقى، أنا ومسعودي، في المسجد نقرأ أو نستمع إلى حلقات الذكر والمحاضرات إلى حين صلاة العصر في الثالثة والنصف، أما عبد الواحد فيكون قد توجّه إلى تناول غدائه. ومن ثمّ، نقفل عائدين إلى الفندق، نبتاع ما نحتاجه على الطريق من حلوى أو فواكه وما إلى ذلك باعتبارها «إفطار رمضان». والغروب، الذي يعلن الأذان، يحيى بإطلاق نار مدفع. بعد تأدية صلاة المغرب، والتي تحتاج إلى دقيقتين، باستطاعة المؤمن أن يبدأ بتناول الطعام. عادة ما ندخّن النرجيلة في المقاهي، بعد سدّ الرمق، لمدة ساعتين من الزمن، ثم نتوجّه إلى أحد المطاعم لتناول وجبة كاملة، والمزيد من القهوة والنرجيلة، ومن ثمّ الحمّام التركيّ. نمتّع أنفسنا أحياناً بمشاهدة بعض العروض الغنائية في المقاهي، وكان هناك الكثير من الفرق الغنائية، أو نذهب إلى بعض المقاهي الخالية من الصخب، حيث نستمع إلى الحكواتية أو نقرأ لتمضية الوقت. حوالي الساعة الواحدة أو بعدها بقليل، نتناول «السّحور»، الوجبة الثانية، ونأكل قدر استطاعتنا، وليس ذلك لأنّنا نشعر بالجوع، بل حتى نستطيع أن نبقى بلا طعام خلال اليوم التالي. وقبيل الفجر، يدوي المدفع مرّة أخرى كإنذار، ثم بعد دقائق عدّة يدوي ثالثة منذراً بالإمساك لصيام يوم آخر.

تستمر الأعمال في دمشق خلال رمضان كالمعتاد. في الصيف، عندما يكون النهار طويلاً وحاراً، لا بدّ أن يضفي العطش بعض المعاناة على العاملين، وأعتقد أن الكثيرين ممن لا يقومون بأعمال يدوية مرهقة لا وبدّ وأنهم يستمتعون برمضان ويحزنون عندما ينتهي. حيث أنّ الليالي تنبض بالحياة، وهذا موسم لأصناف معيّنة من الأطعمة تُطهى في معظم المنازل، وتباع أطعمة شهيّة أخرى في الحوانيت لا تجدها في أوقات اخرى غير رمضان. والجميع يشعر بحقّه في الإسراف على نفسه.

* * *

في اليوم التالي لوصولنا حملنا رسالة تعريف من إنكلترا بعبد الواحد إلى أحد التجار المحليّين. وجدنا مكتبه في أحد الأسواق الرئيسية، حيث أنّ تجارته كانت تجارة جملة. بعد قراءته الرسالة، رحّب بنا أجمل ترحيب، واستعلم عن أحوالنا ورغباتنا، وعرض علينا أقصى ما يمكنه من المساعدة. بقينا عنده حوالي نصف الساعة نتبادل أطراف الحديث معه، وعندما عرف رغبتنا في شراء بعض الحاجيات، رافقنا لعدّة حوانيت وعرّفنا على أصحابها. هذه الأسواق متنوّعة ومزدحمة إلى درجة أنّ المرء لا يعرف طريقه فيها. وكما هي العادة في الشرق، فإنّ كل باب من أبواب التجارة له سوقه أو شارعه الخاص. فمثلاً، هناك سوق الحرير، وسوق متخصّص بالسّروج، وسوق الخيل، وهكذا. وتحتوى بعض الأسواق الكبيرة على أكثر من شارع، وقد تتضمّن مئة دكّان. وما من سلعة لها ثمن محدّد، فلا بدّ من المساومة. وعادة ما يبدأ الشاري في اقتراح السعر، وقد أثبت عبد الواحد أنّه مساوم بارع، فبينما لم يدفع فلساً واحداً زيادة بغير حقّ، كان دائماً قادراً على إبقاء البائع في مزاج حسن. إنّ هولاء الناس يتمتّعون باكتفاء ذاتي، فعند أدنى إشارة إلى تعكير مزاجهم، يطلبون منك المغادرة أو شراء حاجتك من مكان آخر. انهم يختلفون اختلافاً كبيراً عن التجّار الهنود، الذين هم قلّة في دمشق. إنّ التجّار الهنود يحتملون أنواعاً من سوء المعاملة على أن يخسروا زبوناً، واليهود على شاكلتهم. إنّ هذه الطريقة تحتوى على مخاطر مضيعة الوقت، إنما من الواضح أنّها من صميم طبائع الناس وجزء من الحياة في المجتمع، مع أنّ الجميع يعترفون بتفاهتها وعدم ملاءمتها للتجارة.

ورد وصف جوامع دمشق، وأكبرها الجامع الأموي، كثيراً في تأريخ المنطقة ووجهها الهندسي، لذا سأقتصر هنا على ذكر استعمالات المساجد على وجهها الحقيقي. وأقول إنّ النظرة إلى الجامع على أنّه مجرّد كنيسة إسلاميّة تحتاج إلى تغيير.

لا بدّ من الاستنتاج إلى الآن أنّ الإسلام هو تشريع اجتماعي كما هو ديني بكل ما لهاتين الكلمتين من معنى. هناك قوانين مقيّدة للأفراد، كما هو الحال في الماسونية، فمن يدخل فيه لا يحقّ له الخروج منه ويكون عقابه الموت. وهناك بعض المقيّدات

علـى الهنـدام، وبعـض عادات التحيّـة، وبعض السـلوك المميّز يعرف بها المسـلمون بعضهـم البعـض. ومن خلال المنطلق ذاتـه، تبعد المقارنة بين الكنيسـة والجامع أكثر مـا تبعد عـن مقارنته بهيكل ماسـونيّ. فلا يُعدّ المأكل والمشـرب غير مستسـاغين في الجامـع، وبالمثل، الحديث عن الأمور الدنيويـة أو مطالعة الجرائد أو الكتب. وتخدم الجوامع كملجأ لعابري السـبيل، وملتقى لأهل المدينة، مع توفير السـلام والهدوء في أي وقت لمن يرغب بهما، طالما روعي الاحتشام.

* * *

تُقـام الصـلاة خمـس مرات في اليـوم الواحـد وفي أوقـات محدّدة، وهـي الفجر، الظهـر، العصر، المغرب، والعشـاء. تؤمّ هـذه الصلوات بإمام معيّن لهـذا الغرض، أو مـن قبل أي شـخص يتواجد ويكون أكبرهم سـناً. يكون هناك أكثر مـن إمام واحد في الجوامع الكبيرة ينتمون إلى مذاهب مختلفة، وتقام الصلاة في مجموعات مختلفة إذا حضر الناس. ليس هناك من أثاث في المسجد، بل تغطّى أرضه بالسجّاد وقطع صغيرة للصلاة، وهناك مكان مخصص للوضوء. ولدى النسـاء عادةً مسـجد صغير مخصّص لهنّ بمحاذاة المسـجد الكبير، وفي مسـجد المدينة المنوّرة، هناك قسم منفصل خاصّ بالنساء، إنما في مكّة المكرّمة يصلّين مع الرجال في أحد جوانب الباحة. إنّ الجوامع، مع إختلاف تصميماتها، تتشابه في البنيان، فالحَرَم فيها يمتدّ طولاً وبزوايا قائمة متّجهاً إلى مكّة المكرّمة أو «القبلة» باستثناء الجامع الكبير في مكّة نفسها.

ليس من الضروري التواجد في المسجد للصلاة، إنما تعتبر الصلاة فيه صلاة جماعة وأكثر بركة. وقد تقام الصلاة أينما كان، في مقهى، أو في الباحة الخارجية لحمّام العام، أو خـلال الزحـف، أو في مخيّـم أو أي مكان آخـر. حيث يعيّن الحاضرون لإنفسـهم إماماً ويصطفّون وراءه، ويتبعونه في ركوعه وسجوده. ويجهر الإمام في صلاتي الفجر والعشـاء[1]، ويبقيها سـرّية في الصلـوات الأخرى. وكنت قد أممتُ المصلّين بنفسـي عدّة مرات حين لم يكن هناك شخص آخر يليق بهذا المقام حين حانت الصلاة.

---

(1) ونسي المؤلف أيضاً صلاة المغرب، التي هي جهريّة أيضاً.

أمـا المؤذّن، وعـادة ما يكون ضريراً، فينادي المؤمنين للصـلاة في أوقاتها من على مئذنة المسـجد. إنّ أصـوات المآذن في المدن الكبيرة مثيـرة للإعجاب خصوصاً عند الفجر. ويقوم المسؤول عن ترتيب الكتب وتنظيفها في المسجد مقام المؤذّن في حال غياب المؤذن المعيّن.

أمـا صلاة الظهـر يوم الجمعة، وصلوات الأعياد، فهي صـلاة جماعة. ويخطب في النـاس عالـم ديـن معيّن لهذا الغـرض، يلقي خطبته بعـد الصلاة من علـى منبر مواجه للمصلّيـن. ويعالـج موضـوع واحد شـهرياً في كل المسـاجد، تكتب الخطبـة في مكّة وتعمّـم على كلّ المسـاجد في العالم الإسـلامي. بعد العظة، يُرفـع دعاء طويل لنصرة الإسـلام، وهدايـة الضالّيـن وغيره. ويحتـوي على دعـاء بطول العمـر والصحّة لأمير المؤمنين، السّلطان عبد الحميد حينذاك. وهذا الدعاء طبعاً لا يُرفع في مساجد الشيعة، حيث أنّهم لا يعترفون بالسّلطان العثماني أميراً للمؤمنين.

تتضمن الركعة الواحدة قراءة السورة الأولى من القرآن الكريم (والتي تماهي الصلاة الإلهيّة عند المسيحيّين) تليها سورة أخرى، وعادة ما تكون من السّور القصيرة في آخر القـرآن. ثم يأتـي الركوع الأول، إذعانـاً لعظمة الله، ويُختم الركوع بالسـجود والدعاء للرسـول والإسـلام بشـكل عام، وتضرّعات أخرى. إنّ الصلاة تتضمّن عدداً معيّناً من الركعات، أكثرها أربع وأقلّها اثنتان. تتلى التسـابيح في آخر الصلاة باسـتعمال مسبحة مكوّنة من تسـعة وتسـعين حجراً، على عدد أسـماء الله الحسـنى والتي يقتنيها معظم النـاس، ومن ثم ترفع الأكفّ إلى الأعلى ويدعو المصلّي بما شـاء وبلغته الخاصة. إنّ صـلاةً من أربع ركعات تحتاج إلى حوالي ثماني دقائق، أو أكثر إن كانت وراء إمام. إنّ هـذه الصلوات الخمس مفروضة. إنما ليس مـن الضروريّ إقامتها في أوقات محدّدة. فلا حرج أن تؤخّر الصلاة إلى وقت آخر مناسب إن كان المصلّي مشغولاً عندما تحين. يصلّي معظم الناس عندما يسـتيقظون صباحاً، وظهراً، ويجمعون العصر مع المغرب، ثم قبل الخلود إلى النوم.

إنّ الوضوء نوعان، بحسب طهارة المتوضّئ. أوّلهما الغسل وهو الأعظم، والوضوء

في حالة الطهارة، وهو غسل اليدين، والرجلين والوجه، وهو لازم قبل الصلاة ويمكن القيام به في المسجد حيث دائماً ما يجد المصلّي الماء اللازم لهذه الغاية.

إنّ هذه الممارسات الدينية تلعب دوراً كبيراً في حياة الشرقيّ (المسلم) لدرجة لا بدّ أن تذكر بالتفصيل.

* * *

توالت الأيام المتبقيّة من رمضان على هذه الحال وبغير أحداث تذكر. إنما في اليوم الأخير، قامت فتنة كادت تؤدي إلى نتائج خطيرة. ولا بدّ من رواية الأحداث تلك لأنّها تلقي ضوءاً على شخصية الناس وعلى حكومتهم.

سبب هذه الفتنة كان بسيطاً. فأحد أتباع المذهب الوهّابي والذي يعدّ منشقّاً[1]، كان في المسجد الكبير بينما كان بعض الناس يزورون ضريح النبيّ يحيى، المفترض أنّه مدفون هناك. تتضمّن هذه الزيارة الوقوف أمام الضريح وتلاوة تحية طويلة للمتوفّى. ويعتقد الوهّابيون أنّ زيارات من هذا النوع هي من أعمال الجاهلية. فبدأ الوهّابي بوعظ الناس لترك هذه العادة، وتجمّع حوله عدد كبير يستمعون اليه، وكان أحدهم من أهل مكة، من علماء الدين المعروفين، فأوقف وعظ الوهّابي حين ضربه على رأسه. وصادف أن تواجد حاكم دمشق في المسجد في ذلك الوقت وشاهد تلك التصرّفات غير اللائقة، فأمر بإلقاء القبض على عالم الدين دون التحقيق في الأمر.

لم يحصل أيّ شيء آخر حتى المساء، حين بدأت جمهرة من الناس في التجمّع أمام مكاتب الحكومة، مقابل الفندق الذي ننزل به في الساحة الكبيرة للمدينة. كان هذا نتيجة لأحداث ما بعد الظهر، والهدف من الجمهرة إطلاق سراح المسجون الذي تعاطف معه الكثير من العامة. عندما بدأ الناس في التجمّع، ظننا أنّ الهلال قد رؤي

---

(1) هذا غير صحيح، فحركة الإصلاح السّلفي (وليس الوهابيّة) تلتزم المذهب السّنّي الحنبلي، وفي أيام رحلة واڤل كانت الدولة العثمانية تتهم السّلفية بالانشقاق لمخالفتها في ممارسات العقيدة، وكانت الدّولة تميل كثيراً إلى الصّوفية بعكس السّلفيّة الأصوليّة التي ترفض الصّوفية وبدعها.

ممّا يعني نهاية الصيام وبداية عيد الفطر. كان مسعودي مريضاً في الفراش، لكني وعبد الواحد هرعنا لمعرفة ما يحصل، فألفينا أنفسنا وسط المعمعة حين حدوثها. هاجم الناس باب المبنى وفتحوه عنوة ودخلوا المبنى من شرفة كان فيها واعظ قصير القامة يحاول التكلّم معهم. لكن وصول عدة فرق من الشرطة وضع نهاية لخطبته فيهم، واستعادت الشرطة السيطرة على المبنى وإخراج من دخل اليه عنوة.

كانت هناك محاولات لتفرقة المتجمّعين بغير جدوى، إذ كانت أعدادهم تتزايد باستمرار. ثم وصلت إمدادات لقوّة الشرطة معزّزة بالسلاح الأبيض، لكنهم استعملوا أعقاب البنادق فقط. وردّ المتجمهرون على أفراد الشرطة بالحجارة والعصى وأي غرض يُحمل، وأصيب العديد، لكن بحسب معرفتي كانت الإصابات طفيفة. هدّدت فرقة الشرطة بإطلاق النار، لكن لحسن حظنا لم تفعل. استمرّ هذا الصّخب إلى منتصف الليل حين أُسقط في يد حاكم المدينة وأطلق السجين الذي حُمل إلى منزله منتصراً وسط بهجة عامة. لقد عوملنا بعنف خلال هذا الشغب الذي لم يكن باستطاعتنا تجنّب التواجد وسطه. فقد أصابتني ضربة قوية من فوّهة بندقية على الكتف الأيسر آلمتني كثيراً.

في طريق العودة إلى المنزل، توقّفنا للاستماع إلى موظّف تركي طاعن في السنّ يخطب في الناس. قال، «إذا كان هذا رأيكم في الحرية، فإنّي أحذّركم أنّ الدستور لن يدوم طويلاً، وسنخسر ما ناضلنا من أجله. قبل يوم الحريّة، لم تكونوا لتجرأوا على التصرّف بهذا النحو، وهذا التصرّف يعلن للملأ أنّ هذا البلد ليس مخوّلاً لاستقبال المؤسسات الحرَة». وتطرّق إلى فكرة أنّ الرجل كان سيُطلق سراحه في صباح اليوم التالي، أو على الأكثر عند معرفة السلطات لحقيقة ما جرى في المسجد.

* * *

لقد سمعنا الكثير عن الحريّة في دمشق. في ذلك الوقت كان الحماس للنظام الجديد في أوجه، ولم يتقبّل أحد رأيي الرجعي في الأمر. كنت أؤمن أنّ المشاكل في البلقان كانت بسبب النقمة ضدّ النمسا. اقترحت مقاطعة البضائع النمساوية وطبّقت

في القسطنطينية. وأؤمن أيضاً أنّ النظم الانتخابية لا تنجع طويلاً في الشرق، حيث أنّ شخصية الناس تتطلّب حاكما قويّاً لا يدين بمركزه لأهوائهم.

* * *

تمتاز نهاية رمضان باحتفالات فيها الكثير من إطلاق النار ومظاهر الفرح. ويزدان الناس الموسرون بملابس جديدة، وتقفل الأسواق وتخلو المدينة من الحركة اليومية. إنّ الزي السوريّ ليس بالمزركش قدر أزياء أماكن أخرى في الشرق، حيث يرتدي معظم الناس سراويل واسعة من القطن، وقميصاً طويلاً يصل إلى الركبتين، وثوباً ملوّناً من الحرير مفتوحاً من الأمام ويلف إلى الوراء. وفوق ذلك، يرتدي البعض معطفاً أوروبّي المظهر في الأيّام الباردة، والبعض الآخر يختار «الجبّة» وهي ثوب عربيّ الطراز يشبه الثوب، مصنوع من أي مادّة وأيّ لون. ويعتمرون الطربوش الذي يُلفّ حوله قطعة من الحرير. أما الغرباء فهم يتزيّون بأزياء بلادهم ممّا يضفي مظهراً مبهجاً في الشوارع، خصوصاً عند اقتراب موسم الحج حين يكون هناك الكثير من الغرباء في زيارة للمدينة قبل التوجّه إلى المدينة المنوّرة. كانت الملابس التي ابتعناها خفيفة لهذا المناخ، ولذا فقد تزيّينا بالملابس المحليّة، إنما لم يكن عبد الواحد ليسمح لي باعتمار الطربوش خوفاً من الاعتقاد بأنّي تركيّ الأصل. ولذا فقد ارتديتُ قفطاناً وجبّة سوداء، فظهرت كأنني من أهل الحجاز.

* * *

في يوم عيد الفطر قمنا بزيارة صديقنا التاجر عبد الله وريدي في منزله في الضواحي، حيث يملك حديقة غنّاء صغيرة فيها نوافير مياه. إنّ قاعات الاستقبال في المنازل الشرقية عادة ما تكون متطاولة كالبهو، وتنتهي بمصطبة مرتفعة تكثر عليها المساند، حيث يجلس سيّد المنزل وضيوفه بينما يقف الخدم أو يجلسون في القسم المنخفض من المنزل قرب الباب. لقد أُكرمت وفادتنا وأمضينا بضع ساعات هناك كما هي العادة. ولقد ردّ الزيارة في اليوم التالي، وبذلك أصبحنا على علاقة طيبة معه.

في اليوم الثاني من العيد شهدنا مغادرة المحمل إلى مكّة المكرّمة. اعتادت قافلة

الحجّ التحرّك في هذا الموعد قبل افتتاح السكّة الحديدية، تحتاج الرّحلة إلى أربعين يوماً من المعاناة حتّى للأغنياء للوصول إلى المدينة المنوّرة، أما الفقراء فهم يعانون الأمرّين مشياً على الأقدام. والمحمل عبارة عن هودَج مطرّز على ظهر الجمل، يُرسل من المدينة مع هدايا أخرى سنوياً إلى الحرمين الشريفين تعبيراً عن الاحترام. ويُرسل محمل آخر من مصر، وكان يُرسل ثالث من بغداد لكنّه توقف في السنوات الأخيرة لسبب أو لآخر. يتجمهر الناس ليودّعوا المحمل قبل سفره، ويرافق الحاكم وبعض وجهاء البلد الموكب إلى مسافة غير قليلة. والجمل المختار لشرف السفر يكون جملاً كبير الحجم وأعتقد أنّه من الهجن الأصائل.

* * *

بعد ذلك بعدة أيّام تعرّفنا على أخوين يدرسان الشريعة في مدرسة كربلاء، متوجّهين إلى الحجّ. لقد سُرّا بالتعرّف إلينا حيث لم يكونا يعرفان أحداً في دمشق، وقد أمضينا وقتاً كثيراً برفقتهما في ما تبقّى لنا من الزمن. دعوناهما إلى حفل عشاء وسهرة موسيقيّة، وبالمقابل رافقانا إلى المسجد الذي يضمّ قبر السيّدة زينب بنت علي[1]، مع أنّي أشكّ بصحّة هذا الاعتقاد. كانت الرّحلة إلى المسجد ممتعة وقد أعطتنا فكرة جيّدة عن جمال المنطقة وخصوبتها. وعند وصولنا إلى المسجد الذي يبدو حديثاً، قمنا برفع دعاء الزيارة بالصوت الشجي للأخ الأكبر، الشيخ حسن. وبما أنّه لم يكن هناك أحد في المسجد، اتّخذنا لنا مكاناً ودخّنا بعض السجائر، وكان خطأً منّا فعل ذلك. وعند خروجنا حفرنا أسماءنا على الجدار الخارجي، كما هي عادة العرب الغريبة.

في المساء تناولنا طعام العشاء مع الأخوين في منزلهما في دمشق الذي اتّخذاه لمدة بقائهم، وكنتُ تمنّيت لو فعلت مثلهما بدلاً من البقاء في الفنادق. ومن الخطأ الاعتقاد أنّ الطعام في الشرق لا يتناسب والذوق الأوروبي أو أنّه يحتاج إلى وقت للاعتياد عليه. لقد وجدت الطعام رائعاً، مع أنّه كثير التوابل. ومع أنّ الشرقيّين لا يتناولون المُسكرات، فإنهم لا ينزعجون من جوّ مرح على مائدة الطعام.

---

(1) كتب المؤلف: زينب بنت الرّسول، وهو غلط.

لقد اعتزمنا أن نسافر سويّة إلى المدينة المنوّرة، لكن هذه الخطّة فشلت بسبب وقوع الشيخ حسن في الحبّ. لقد أعجب بابنة أحد التجّار المحليّين، وعلى الفور تقدّم لخطبتها، وبما أنّ مفاوضات الخطبة قد لا تنتهي قبل موسم الحجّ فقد تعيّن تأجيل السفر. لقد تفاجأت أنّ أخاه احتمل هذا الهراء وعبّر عن رأيه، لكنهما كانا قد قرّرا تأجيل السفر، وأستطيع القول إنّ هناك أسباباً أخرى لهذا التأجيل لم نسمعها منهما.

* * *

حوالي ذلك الوقت كنّا ملزمين أن نغيّر مكان إقامتنا، حيث أنّ الفندق الذي ننزل فيه كان على وشك أن يُزال. اخترنا فندقاً آخر إنما ما فتئنا أن غيّرناه في صبيحة اليوم التالي لأسباب جيّدة. لا زلت أشعر بالحاجة إلى الحكاك كلما تذكرته. أصبنا نجاحاً في اختيارنا الثالث مع أنّ الكلفة كانت أكثر ممّا أردنا. وكانت الغرفة التي حصلنا عليها مريحة ونظيفة.

وخلال إقامتنا تعرضنا إلى محاولة إضافة إلى فريقنا حين اعترضت سيّدة في منتصف العمر طريق عبد الواحد على السلالم تخبره أنّها آتية من حلب مع ابنتيها وأنّهن في طريقهنّ إلى الحجّ. كنّ ينزلن في غرفة تحت غرفتنا وسمعن أنّنا متوجّهون إلى الحجّ أيضاً، ولفقدانهنّ وجود محرم معهنّ، سألت إن كان بإمكانهنّ مرافقتنا في السفر حتى المدينة المنوّرة. لم يلتزم عبد الواحد بالاحتياط حين أعرب عن سعادته برفقتهنّ في السفر، إنما عليه والتزاماً بالعُرف، أن يستأذنني في الأمر.. لكن خانه قلبه أن يذكر لي أيّ شيء عن الموضوع. وفي اليوم التالي، وبنفس الطريقة، اعترضت السيدة طريقي على السلالم تطلب رأيي، فأجبتها مذعوراً، بنفس ما أجابها عبد الواحد، فقالت: «إنّ صديقك موافق، فقد أخبرنا بذلك، إنما يتنظر قبولك». فررت من أمام السيّدة صاعداً السلالم وأمرت عبد الواحد بصرامة أن ينزل إليها ويخرجنا من هذا المأزق. وذكّرته بمصير حنانيا[1] Ananias وأكّدت له إن حاول أن يزجّني في مواضيع كهذه مرّة أخرى

(1) هو الحواري الذي لقّن الدّيانة النصرانية لشاؤول الطرسوسي إبّان زيارته لدمشق، وذلك سراً في كهف تحت الأرض بمعزل عن أعين الرّومان، ولقي بذلك حتفه إعداماً على أيديهم. أما شاؤول فصار اسمه بولص وأضحى أشهر ناشري الدّيانة في أوروبا.

فإنّ مصير حنانيا سيكون يسيراً مقارنة مع مصيره. وأبدى مسعودي دهشة عارمة لقحَة عبد الواحد. نزل عبد الواحد بخوف إلى الطابق الأسفل، بينما تسلّلنا نحن إلى الحافة نسترق السمع. بدأ بقوله إنّه يأسف لحرمانه متعة رفقتهنّ، إنما المسافر الثالث في المجموعة وهو من علماء الدين يعترض على سفر غير المحارم معه. استُقبل هذا الكلام بموجة من الضحك، وحسبت أنّهنّ قد رأين مسعودي معنا من قبل وعرفن الحقيقة. رجع عبد الواحد محبطاً وعليه الآن أن يواجه مسعودي الذي كان حانقاً. توصّلنا إلى نتيجة أنّ الصدق والأمانة لا يصدران من رجل ينغمس في ملذّات الطعام في رمضان. وعندما التقينا بالسيّدات مرّة أخرى أخبرناهنّ أنّ عبد الواحد ذو سمعة لا تسمح للسيدات بالتعامل معه.

وفي الحقيقة لم نكن في حال تسمح لنا بمساعدتهنّ، مهما رغبنا في ذلك. ولم يكن من العدل أن نعرضهنّ لأخطار قد نواجهها إن كُشف أمري. لكنهنّ اعتقدن أنّ رفضنا كان فظّاً بعض الشيء.

* * *

اقترب وقت الرحيل، وبدأنا بالاستعداد للسفر. ابتعنا ملابس الإحرام، وهي أثواب بيضاء نحتاجها لدخول مكّة ولأيام الحجّ الثلاثة. وابتعنا أيضاً خيمة، وحصراً، وجراباً وضعنا به أمتعتنا، وبعض أدوات الطهي، ولم ننس النرجيلة ومؤونة من الشاي والتبغ، فهي أرخص ثمناً في دمشق منها في المدينة. أودعتُ ما بقي معي من مال، مئتي جنيه، مع صديقنا عبد الله الذي أعطاني حوالتين، واحدة لحسابه في المدينة المنوّرة والأخرى في مكّة. ولم يكن هناك مصارف في المدينتين.

عزمنا على السفر في الخامس عشر من الشهر، إنما كان علينا أن نؤجّل إلى الثامن عشر منه بسبب الزحام في القطارات، حيث أنّ تعزيزات من فرق الجيش كانت مرسلة إلى المدينة المنوّرة التي وصلت منها تقارير تفيد بكثرة الوافدين إليها. إنّ القلاقل التي أثارها البدو في رمضان بدأت تتحوّل إلى حرب محتملة واسعة النطاق. وانطلقت الإشاعات بقوّة في المدينة عن هذه الحرب، لكن لم يكن مسموحاً للصحافة أن تتداول

الخبر ولم يكن المسؤولون متعاونين في هذا الأمر، لذا كان من الصعب معرفة الحقيقة. ما كان مؤكّداً هو أنّ فرق الجيش قد أصيبت بهزيمة نكراء منذ البدء، وأنّ المدينة في حالة حصار. كان هذا جيداً بالنسبة لي، لأنّي ظننتُ أنّ هذا سيجعل رحلتي أيسر. ففي حالة الحرب والشغب، ينشغل الناس بأمورهم الخاصّة ويفقدون فضولهم. بالإضافة إلى أنّي لا أمانع في التواجد وسط أحداث مثيرة، ولذا كنت متحمّساً للسفر.



الفصل الثالث

الخطّ الحديدي الحجازي

تقع محطة الحجاز الحديدية في الجهة الشرقيّة من المدينة في نقطة نائية[1]، استغرق الوصول إليها ساعة كاملة من الفندق. ينطلق القطار في الساعة الحادية عشرة صباحاً، لكننا أُفدنا بوجوب وصولنا قبل ساعتين بسبب الزحام. هناك درجتان، الأولى والثالثة، وبما أنّ الرّحلة ستدوم أربعة أيّام على الأقل، وكنا موسرين، فقد ملت إلى السفر في الدرجة الأولى، خصوصاً أنّ الفرق لم يكن كثيراً. لكن أصدقائنا الدمشقيّين اعترضوا على هذا البذخ بقوّة قائلين إنّ حتى «أفضل القوم» يسافرون في الدرجة الثالثة، فهي مريحة كالدرجة الأولى. أقلعت عن هذه الفكرة عندما علمت أنهم سيحجزون لي عربة خاصة، وكنت أودّ الوصول بأقصى سريّة ممكنة. كنت ممتناً أنّي قبلت هذا الاقتراح عند الوصول، فدخولنا إلى المدينة المنوّرة كان مثيراً بحدّ ذاته.

وصلنا إلى المحطة في وقت مبكر وحجزنا أماكن لنا، تركنا مسعودي هناك للحراسة بينما ذهبنا نحن لحجز التذاكر وتسجيل الأمتعة. كلّفتنا التذاكر ثلاثة جنيهات وعشر بنسات للشخص الواحد، لم يكن هذا المبلغ كثيراً لسفر يتعدّى الألف ميل. وكان لدينا متّسع من الوقت، ساعتان ونيّف، فتوجّهنا إلى أحد المقاهي الصغيرة مع صديقنا عبد الله الذي قدم لوداعنا. ولاحقاً رافقته بعض المسافة عند مغادرته واستغل الفرصة ليعطيني نصيحة ثمينة قائلاً: «تذكّر أنّ أهل الحجاز ليسوا دمثين كما نحن هنا، فلا تتشاجر معهم أو تجعل نفسك في مأزق. إنّهم معتادون الاعتياش من الحجّاج، فلا

---

(1) هي قرية القَدَم إلى الجنوب من دمشق، ولا تزال فيها إلى اليوم محطة القطار التركيّة القديمة.

تؤخـذ على حين غرّة ولا تتّهمهم بالغش. ولا تسـرف في البداية فقد تحتاج إلى مالك لاحقـاً. وإن هوجمـت فـي القطار، أو في القافلـة، فلا تحاول القتال، تخـلّ عمّا معك بهدوء فلا يصيبك أذى».

وإثـر ذلك حثّنـي على أن أكون ملتزمـاً بمواقيت الصلاة خلال الحـجّ، مهما كانت عادتـي، وأن أتصـدّق بالقليل قبل البدء. فوعدته أن اصلّي ركعتين نيابة عنه في مسـجد الرسول في المدينة المنوّرة. وعندما حان وقت الرحيل، ضمّني بمحبّة، وهذا تعبير عن العواطف مقبول في أيّ مكان سوى إنكلترا.

عندمـا عدتُ إلـى القطار وجـدت فوضى كبيرة. داخـل العربات، يفصـل المقاعد الخشـبية ممرّ، وكنا قد حجزنا أربعـاً منها متقابلة، لكنّ المسـافرين الذين صعدوا إلى القطـار أخلـوا حقائبنـا بالقـوّة من اثنين مـن المقاعـد بالرغم من اعتراض مسـعودي. ازدحمـت العربـة التي كنّـا فيها كما ازدحمت باقـي العربات. لـم يكن هناك متّسـع من المكان لأيّ شيء، فجلسنا متكدّسين مع أمتعتنا بطريقة مزعجة. بقي على موعد تحرك القطار سـاعة كاملة لكنّنا لـم نكن نجرؤ على المغادرة، فجلسنا في أماكننا منتظرين بدء السـفر. وبالطبع، صعد الكثير من الذين وصلوا متأخرين إلى القطار ولـم يجدوا أماكن لهم، فاضطروا إلى مغادرة العربة. وأخيراً تحرّك القطار متأخّراً نصف ساعة كاملة.

كان برفقتنـا فـي العربـة العديـد من الجنـود الأتراك، وبعـض الحجّاج السـوريّين، وبعـض المَغاربـة الذين يفتقـدون للنظافة. جلس في الجهـة المقابلة منـا تركيّان، أب وابنـه، ويظهـر أنّ كلّ ما يحملانه مـن أمتعة غراموفوناً فقط. إنّ هـذه الآلة متوفّرة لدى الجميع في الحجاز، ومن السهولة الحصول على أسطوانات عربية، بعض منها تحوي تـلاوات من القرآن. لـم أضيّع فرصة فـي التعبير عن اعتراضي على هذا الاختراع الذي أسمّيه «الشرير».

* * *

سافرنا في حقول مزروعة إلى أن حلّ الليل. ولا زالت قمّة جبل الشيخ تطلّ على دمشق

فـي صباح اليـوم التالي. اجتزنا عدّة محطّات كبيرة للسـكّة الحديدية فـي اليوم الأول، إنما فـي اليوم الثاني دخلنا في الصحراء ولم نعد نرى الكثير من المناطق السـكنية. كانت التربة بنيّـة اللون وجافة، مـع القليل من النبات المتناثر هنا وهناك يقـلّ كلّما توجّهنا جنوباً. جلبنا معنا ما نحتاج من طعام، معظمه يتألف من البيض المسـلوق، والخبز والكعك، ولم نتناول الكثيـر منه بسـبب الغبـار والطقس المزعج. خلدنـا إلى النوم خلال الليـل بتقطّع، فقد كان النوم صعباً في مكان ضيّق. وأصابتني في اليوم التالي نوبة من حمّى الملاريا ولم تزل عني إلـى أن وصلنـا إلـى المدينة المنوّرة، وأضفت علـيّ هذه الحمى المزيد مـن الإزعاج. وقد غمرني المسـافرون بلطفهم عندما رأوني مريضاً فاصرّوا، على ضيق المكان، أن يفسـحوا لي المجال حتى أسـتطيع أن أسـتلقي علـى راحتي. أما الجنود الأتـراك فقد طهوا لي بعضاً مـن الطعـام على ما جلبـوه معهم من كانون الفحـم وأطعموني بعضاً مـن الفواكه حيث قد اسـتهلكنا ما معنا منها. وقد رددنا المعروف لهم باستعمال ما معنا من «الپريموس» Primus (وابور الكاز) السريع في تحضير الشاي لمن أراد.

كان هناك مقصورة صغيرة مغلقة في نهاية الممرّ شغلها كهل تركيّ مع ابنه، وزوجته وابنتيه. كنت أشـعر بالأسـى للابنتين حيث إنهما كانتا الفتاتين الوحيدتين على القطار. وأمضت الفتاتان معظم وقتيهما بانشاد مقاطع من المولد النبويّ الشريف "Maulid".

* * *

في اليوم الثالث وصلنا إلى محطّة في الساعة التاسعة صباحاً ولم نتحرّك إلا في الخامسة مسـاء. كان السـبب في التأخير قائد القطـار، الذي تحدّى الركاب جميعاً فـي تركه لنا دون سـبب واضح. أعلمنا سـائقنا الخاص أنّه مرهق جداً ويحتاج إلى قسط من الراحة. وبما أنّنا سـمعنا أنّ سـكّة الحديد في حالة يرثى لها اعترضنا على التأخير، لكن كنّا سـعداء بأن ننزل من القطار ونسـير قليلاً. تتكوّن المحطّة، مثل معظم المحطات الأخرى، من مجرّد كوخين معدنييـن وخزّان للماء. وسـرعان ما اضطررنـا العودة إلى العربة للحماية من الشـمس. إنّ تربـة الجزيرة وسـوريا الصحراوية حمـراء ولا تؤذي العينين كما هـي الحال في مصر، ولا تعطي الهضاب من حولنا نفس شعور العزلة مثلما تشعر في الصحراء.

بعد أن نال قائد القطار قسطه من الراحة، انطلقنا من جديد. ومرّت علينا ليلة طويلة أخرى، اجتزنا فيها أرضاً تقسّمت إلى هضاب رائعة المنظر مغطاة بصخور عظيمة غريبة الأشكال، انتصب بعضها كمسلاّت كليوپاترا، وذكّرني بعضها الآخر بالصخور الغريبة (ستون هنج Stonehenge) في أوروپا، ولمدّة ساعة من الزمن مررنا بمنبسط مغطّى على مدّ النظر بصخور تضاهي «صخرة العلجوم» Toad Rock في تَنبريدج ويلز Tunbridge Well. دخلنا الآن جزيرة العرب، وكلّما توغّلنا فيها أقفرت الأرض أكثر. ظهرت جبال على الجانبين وزاد التواء قمم الجبال وغرابتها. وراحت سكّة الحديد تنعطف خلال ممرات ضيقة موحشة تتوسّدها صخور عظيمة من علوّ.

وصلنا حدود مقاطعة الحجاز عند مدائن صالح حوالي منتصف النهار، ولم يكن مسموحاً لأي شخص غير مسلم أن يتخطّى هذه النقطة. وعندما شُيّدت سكّة الحديد، سُرّح جميع المهندسين الأوروپيّين هنا واستُكمل العمل من قبل الأتراك والعرب. هذا المكان مكوّن من كوخين معدنيين حقيرين لكنه مبهر بالمساكن المحفورة في الصخور، وقد ألهبت مخيّلة المسافرين منذ عصور قديمة. وقد ورد وصف لها من قبل المستكشف داوتي Doughty وغيره. لقد جُوّفت الصخور المنفصلة الضخمة التي تغطي المكان وحُوّلت إلى كهوف بأبواب، تماماً مثل معبد أبو سمبل في النوبة العليا. لم يكن بمقدوري استطلاع هذه الكهوف عن قرب، لكن كان منها المئات، ويبدو أنّها بديعة الصنع. تبعاً للرواية العربية، يدلّ اسم المكان عليه، فهو المدينة حيث كان النبي صالح. وكما ورد في القرآن الكريم، أنّ سكّان هذه المدن كانوا قساة القلب ورفضوا الانصياع لتعاليم النبي، بالإضافة إلى أنّهم عقروا ناقته العجائبية، فكان قصاصهم أن زلزلت الأرض تحت أقدامهم تماماً مثلما هاجت الطبيعة وقضت على زوجة لوط. ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾[1].

* * *

بعد ظهر اليوم الثالث وصلنا إلى قرية كبيرة محاطة بالنخيل، وهي أول ما رأينا من

---

(1) سورة الأعراف 78.

المسـاكن مذ تركنا سوريّا. قضينا فيها ساعة من الزمن وتزّودنا بما نحتاجه من مؤن وتناولنا بعض القهوة. إنّ جميع المحطّات جنوب مدائن صالح محصّنة بمواقع عسكرية وأسـلاك شائكة، ممّا يذكّرني بجنوب إفريقيا وقت الحرب. كان هناك قتال في كلّ مكان حين تشييد السكّة الحديدية، ولا زالت هذه المواقع تغزى من قبل القبائل المتنقلة. مررنا بعدة قطارات محطّمة لأن السكّة الحديدية لم تكن سليمة، وكان لزاماً على قطارنا السير الهوينا. وأُعلمنا بامكانيـة مهاجمـة القطار، لا مـن القبائل المولعة بالحـرب، بل من قطّاع الطـرق، بين هذا المكان وبين المدينة المنوّرة. ولذا فقد استحضرنا أسلحتنا عندما تحرّك القطار من جديد. لن نصل إلى المدينة المنوّرة إلا ظهر اليوم التالي، الأحد.

لم يحصل أيّ أمر خلال الليل، وكنا فرحين أن الرّحلة على وشـك الانتهاء. وكنت أشـعر بتحسّـن، بالرغـم من (أو ربما بسـبب) عدم تنـاول أيّ دواء. تأخّرنـا قليلاً، ولم نصل إلا في السـاعة الواحدة، وعلمنا بوصولنا عندما سمعنا صوت المدفعية عن بعد. تؤمَّـن الحمايـة للمحطّات عن طريق متاريس ومواقع لفرقة عسـكرية أو اكثر. لم أرتح لهذه الإجراءات الحمائية ولا لمواقعها المختارة. وبعد برهة وجيزة، ظهرت من خلال فجوة بين التلال، مآذن مسجد الرسول المدبّبة، ومن ثمّ وصلنا إلى منبسط في الأرض ثمّ المدينة نفسـها. أحد أصدقائي الأتراك، وكان واقفاً معي على حافة القطار الخلفية، أشار إلى بعض الأماكن بأسماء معروفة، جبل أُحُد حيث هزمت قريش قوّات الرسول، قبر عمّ الرسول حمزة، والبوّابات المختلفة.

كلّمـا اقتربنا من غايتنا، علا صوت البنادق، وعندما وصلنا إلى المحطة، ظننت أنّي سأرى قتالاً دائراً على أبواب شبّاك التذاكر. لكن القتال كان في القسم الآخر من المدينة ولـم تكن المحطة في خطّ النار، حيث كان القتال قد انتهى في الصباح، وجمهرة الناس الذين يأتون لاستقبال القطار حين وصوله، لم تكن هناك لحسن حظّي.

* * *

إن الاستطراد ضروريّ هنا لأشرح أسباب الحرب في هذه المنطقة وكيف أنّنا مررنا بسلام دونها.

فهـذا الجـزء مـن جزيرة العـرب يُعـدّ مبدئياً مقاطعـة تركية، ومن يسـكن فيهـا يُعدّ مواطنـاً تركيـاً. وبما أنّ تركية هي أقوى البلاد الإسـلامية في الوقت الحاضر، فإن على حاكمها أن يكون أمير المؤمنين، وعليه مسؤولية حماية الحرمين الشريفين، واستباب الأمـن فيهمـا. إنما بالحقيقة، ليس لتركية أيّة سـلطة فـي منطقة الحجاز مـع أنّها تحتلّ مكّـة والمدينـة المنوّرة. وما فتـئ البدو قبائل مسـتقلة، كلٌّ لديها أراضيهـا، وحكّامها، وقوانينهـا وعاداتها الخاصّة. إنّهم طبقة ارسـتقراطيّة بامتياز، ويحافظون على نَسَـبهم، وهم يحتقرون من دونهم، ولا يسـتثنون من ذلك العـرب قاطني المدن، الذين عادة ما يكونون مختلطي النسـب، ولا يسـتثنون متكلّمي العربية مثل المصريّين أو السوريّين. لا ريب أنّ القليل من الأعراق الأخرى باستطاعتها الفخر بنسبها مثل العرب، أو الفخر بتقاليدهـا. وخيـار عائـلات البدو لم تتعـاطَ الأعمال يدوية قـطّ، بـل إنّ ديدنها القتال والغزو منذ بدء الخليقة.

هـؤلاء العـرب، المعروفون بالبدو، يعيشـون فـي الصحـراء، أي أنّ موطنهم جافّ وقاحـل عامّـة مـع وجود بعض الواحـات هنا وهناك. إنّهـم لا يبنون مدنـاً، بل هم بدوٌ رحّـل. ويحتقـرون التقاليد المدنيّة وأدواتها، حتّى المنازل. طعامهم بسـيط ولباسـهم ثـوب قطنـي. وأفضل أعمالهم الحرب في سـبيل قضيّـة، أو القيام بغزو ولـو كان بغير سبب. إنّهم فرسان ورعاة إبل، شجعان، مقدامون وواسعو الحيلة. ومع أنّهم شجعان، وكرمـاء ويقـرون الضيف، فإنّ القسـوة مـن صفاتهم ويحلّلـون في الحرب مـا قد يُعدّ مسـلكاً غير نبيـل في غير وقت الحـرب. ولا يُعدّون متعصّبين للديـن، بعكس ما يقال عنهم. فهم لا يصومون ولا يقيمون الصلاة، وفي الحقيقة إنّ إسلامهم اسمي.

ويعدّهم الحجّاج همجييّن ولديهم أسـباب قويّة لكرههم أو الخوف منهم، كما هو موقف السكّان الحضر في المدن العربية.

وجـد الأتراك أنّ أفضل وسـيلة لحمايـة قوافل الحجّاج مـن هجماتهم هي في دفع المـال لشـيوخ القبائـل البدويـة التي تمـرّ القوافل في أراضيهـا، بدلاً من إرسـال قوى مسـلحة. ومـع أنّ الخضوع للابتزاز لا يُعدّ عملاً مشـرّفاً للحكومـات المتمدنّة، فلا بدّ

من ذلك حيث أنّ احتلال جزيرة العرب والمحافظة على أمن المسافرين فيها عسكريّاً يُعدّ من حيث قابليّته للتنفيذ عملاً يشبه غزو القمر. ليس الأتراك فحسب بل أيّ دولة أخرى لن تأمل بإنجاز هكذا مهمّة. إنّ طبيعة الأرض، وصعوبة التنقّل، وقلّة الماء لا بدّ وأن تُرضخ جيشاً أوروبياً، بالإضافة إلى أنّ البدو أنفسهم خصوم أقوياء أكثر من الرُّعاع الذين قضينا عليهم في أم درمان وكانوا أقلّ تسلحاً من البدو. إنّهم مسلحون جيداً ببنادق حديثة، وبالحكم على كميّة إطلاق النار حول المدينة المنوّرة فمن الواضح أنه ليس ثمّة معضلة لديهم في الحصول على الذخيرة. وفي الحقيقة، وكما لاحظت، ليس هناك من محاولات لمنع بيع الأسلحة، فهي تباع في الأسواق علناً في مكة والمدينة المنوّرة.

* * *

ليس بالإمكان إحصاء عدد البدو العرب في جزيرة العرب إلا على وجه التقدير، وبملاحظة أنّ ثلاثة أرباعها غير معروف. لكن قيل لي إن اجتمعت قبائل الحجاز، فباستطاعتها أن تقدّم إلى ساحة القتال مئة ألف رجل.

مع الانتهاء من إنشاء سكّة حديد الحجاز[1] قرّرت الحكومة التركيّة وبتهوّر، وتحت هذه الظروف، وقف دفع مال حماية المسافرين لقبائل البدو. لم يؤثّر هذا على سلامة الطريق بين سوريا والمدينة المنوّرة، إنّما إنتشر الخبر في أنحاء جزيرة العرب واستنفرت القبائل الأقوى بين المدينة المنوّرة ومكّة، وبين المدينة المنوّرة وينبُع. فإن لم يسمح لهم بالغزو، ولم يُدفع لهم المال للامتناع عن ذلك، فإنهم لن يقفوا مكتوفي الأيدي.

---

(1) كتب المؤلف: كان المسؤول الاول عن هذا العمل السلطان المخلوع عبد الحميد. ووُقعت عريضة لهذا الغرض في طول العالم الإسلامي وعرضه. ولقد وصلت سكة الحديد إلى المدينة المنورة في السنة التي ذهبت فيها هناك، أي 1908. ومن المفروض ان تكمل السكة إلى مكة، إنما يبدو ان العمل متوقف لأجل غير مسمى. وكان الغرض من إنشاء السكة الحديدية المحافظة على سلامة الحجّاج وتسهيل رحلتهم، وبالطبع فثمّة غاية استراتيجية من ورائها أيضاً.

عندما وصل القطار الأوّل كان محطّ الأنظار والفضول. لم يقدّروا أهميّته في بادئ الأمر، وتساءلوا، «هل يستطيع هذا الشيء أن يحمل ما تحمله الإبل؟» وبعد أيّام قليلة، رأوا القطار يفرغ عدّةً وعتاداً ومئات الرجال، ففهموا أنّ هناك شيئاً جديداً قد وصل إلى أرضهم وعليهم أن يرفضوه. كان من الواضح أنّ القطار سرعان ما سيجعل قوافل الجمال من أخبار الماضي، وبالطبع سيلغى من جرّائه ما يجنونه من تجارة الجمال، بالإضافة إلى المكانة المهمّة التي انتزعوها من جرّاء ذلك. أضف إلى ذلك أنّهم لاحظوا وبذعر أنّ قطع الطريق على القطار ليس بالسهل كما تصوّروا، ولم يصدّقوا أنّه قطع المسافة من سوريا بأربعة أيّام فقط.

ولا شكّ أنّ شيوخهم أقاموا مجالس الشورى خلال الشهرين اللذين تليا. وتوالت الوفود على أبواب حاكم المدينة المنوّرة تعترض على السكّة الحديدية على أساس أنّها ستفتح الباب للأوروبيّين بدخول البلاد. أُعطي الحاكم السلطة لقطع وعد لهم نيابة عن الخليفة نفسه أنّ هذا لن يحصل. وقد أوضح لهم أنّ مراقبة المسافرين في القطار أيسر بكثير من مراقبة القوافل.

كانت فكرة البدو هي إيقاف إنشاء السكّة الحديدية، لكن لم يكن من اليسير أن يجدوا الذريعة لذلك. فلقد أنشئت السكّة الحديدية وبدأت بالانتشار في جميع أنحاء العالم الإسلامي، ونظر إليها الناس بكثير من الحماس، واعتبرت عملاً وطنيّاً وعظيماً ودفاعاً قوياً لتهمة أنّ الإسلام رجعيّ وغير حيوي. لقد حصلت السكة الحديدية على مباركة علماء الدين من كلّ المذاهب، وقدّم الأغنياء والفقراء على حدّ سواء ما عليهم بكلّ كرم.

كانت الفكرة البديلة للبدو هي توتير الأجواء للأتراك لينشغلوا عن إنشاء السكّة الحديدية بأمور أكثر أهميّة، ولم يخلوا من الفرص. يقع ضريح عمّ الرسول، حمزة، والذي استشهد في معركة أُحُد، على بُعد أربعة أميال شرق المدينة المنوّرة ويزوره كل الحجّاج. أوكلت مهمّة حراسة الطريق إلى الضريح إلى قبيلة بني علي، وهي قبيلة كبيرة ذات أهمية تقطن ما حول المدينة، وكانت تتقاضى على ذلك مالاً. وفي آخر يوم

من رمضان قُتل رجلان في وقت متأخّر من الليل من قبل قطّاع الطرق، فأرسل الحاكم اعتراضاً إلى شيوخ القبيلة مطالباً إيّاهم بدفع غرامة. وكان ردّ شيوخ القبيلة أنّهم ليس بإمكانهم أن يكونوا مسؤولين عن سلامة الطريق ولن يدفعوا أيّة غرامات. استمرّت المفاوضات بعض الوقت، لكن كان واضحاً أنّ شيوخ القبيلة مستعدّون للنزاع.

وفي الثالث من شوّال أرسلت فرقة من حوالي 1000 رجل مع رشّاش مكسيم Maxim لتفرقة جمع كبير من رجال القبائل الذين كانوا يهدّدون البلدة. تقدّم الأترك بين أشجار النخيل بكل ثقة مدعومين بالمدافع من أسوار المدينة. ولم يمض وقت إلا وطوّقهم الأعداء وأصبحوا في مرمى النار من كل جهة. وخلال محاولتهم التراجع كرّ عليهم البدو بطيشهم المعتاد، وغنموا رشّاش المكسيم، وقتلوا مئة رجل، واضطروا الآخرين للتراجع إلى المدينة في أقصى فوضى ممكنة. ومنذ ذلك اليوم تتالت المناوشات الصغيرة، لكن لم يكن هناك مواجهات جديّة. ولقد تنازل الأتراك عن كل شيء ما عدا المدينة نفسها وحصنين خارج الأسوار مدعّمين بالأفراد. وهرعت الإمدادات من تركية وسوريا، بما فيها عدّة مدافع وزّعت على أسوار المدينة.

أعلن بنو علي الجهاد على الأتراك ودعوا أهل جزيرة العرب لمساعدتهم. وادّعوا انهم لن يتعرّضوا للحجّاج الذين لديهم الحريّة الكاملة في الحركة حتى من بين خطوطهم، حيث أنّ نزاعهم كان مع الحكومة التركية والحكومة فقط.

وسرعان ما وصل الدعم الذي طالب به البدو، فتوالت الإمدادات من كلّ صوب، وللمرّة الأولى أضحت القبائل يداً واحدة.

* * *

حين وصولنا كان الجيش التركيّ في المدينة المنوّرة يعدّ عشرة آلاف رجل وعشرين مدفعاً، ويعدّ العرب عشرين ألفاً بتزايد مستمرّ.

تقع المدينة في أرض مفتوحة على علو 3000 قدم فوق سطح البحر. وتحيط بها الجبال من ثلاث جهات، على بعد خمسة إلى عشرة أميال إنما تبقى مفتوحة من الجهة

الجنوبيـة. وتتطاول المدينة نفسـها في الامتداد إلى نحو ميل واحـد في أقصاها. وهي فـي الواقع تتكوّن من مدينتين متصلتين. فالمدينة القديمة والتي يحيطها سـور، تحوي المسجد ومعظم المساكن والمتاجر، أما القسم الآخر فهو حضاريّ أكثر حيث تتجمع العمـارات العامّـة، والأسـواق وثكنات الجيـش. وهناك مسـاحة واسـعة تتجمّع فيها القوافل عند الوصول أو قبل المغادرة. أحيطت هذه المسـاحة بسـور داخليّ للحماية، فيه عدّة بوابات أطلق عليها أسـماء مدن تتوجه إليها القوافل: أحدها مثلاً باب الشـام، وآخـر بـاب مكّة. ويُسـتقى الماء من عـدّة آبار وفيـرة عذبة. وهناك مـزارع نخل وثمار تحيـط بالمدينة وتمتدّ عدّة أميال. أما محطّة سـكّة الحديـد فهي في غرب المدينة على بعد حوالي ربع ميل خارج الأسوار.

حينما كنت هناك لم تكن السكّة قد استكملت بعد، ولا زالت عدّة أبنية حجريّة قيد الإنشـاء، وبما إنّهـا مضادّة للرصاص، فقد اسـتفيد منها للحماية من الاشـتباكات. أما المقبـرة المعروفة باسـم البقيع، فهي إلـى الجنوب متاخمة للسـور. وهناك دفن معظم المشاهير في التاريخ الإسلاميّ، بما فيهم آل البيت. وخلال إقامتي، كانت البقيع تحت خط النار باستمرار.

يعـدّ أهل المدينة المنوّرة، ما خلا الجيـوش والحجّاج، ثلاثين ألفاً، جميعهم تقريباً يمتهنـون حرفـاً تمتّ بصلة إلى الحجيج ويعتاشـون من وجودهم. إنّهـم يكدّون ثلاثة أشـهر في موسـم الحجّ، ولا يفعلون شيئاً آخر بقية السنة. وكلٌّ له مكانه في هذا النظام، فالطبقة الغنيّة تملك منازل تؤجّرها بأسعار باهظة. والشباب يعملون مطوّفين يؤجرون بـكل كـرم. أما التجّار فتنمـو تجارتهم، ويسـتفيد الجميع من الزائرين حتـى الحمّالين وسُقاة الماء.

لقـد كان المطوّفـون مصدر إزعاج لي في دخـول المدينة المنـوّرة ومكّة. وعملهم هو الاهتمام بكل حاجّ ميسـور الحال يسـتطيع أن يشـتري تلك الرفاهيـة، فيهتمون به، ويرشدونه إلى المناطق المهمّة، ويتلون له الأدعية والتحيّات عند الأضرحة المختلفة. إنّ اللفظ مشـتقّ من الطواف وهو أحد شـعائر الحجّ: أي السـير حول الكعبة في مكّة.

ليس هناك من ثمن محدّد لهذه الخدمات، ويعتمد المبلغ على كرم وثراء كلّ فرد، وعادة ما يكون الحجّاج في قمّة الكرم. ولذا فهناك منافسة قويّة على كلّ زائر يبدو عليه الثراء خصوصاً إذا حمل أمتعة ومعه خدم. وجرت سابقاً عند وصول هكذا زائرين مشادّات انتهت بحمل السلاح، ولإيقاف هذه الممارسات الفاضحة، عيّنت الحكومة عدداً معيّناً من المطوّفين لكلّ بلد يستقبلون زوّارهم. وكلّ مجموعة تعيّن شيخاً يفصل في المشادّات، وتصله شكاوى الحجّاج إن وجدت. أثبتت هذه الطريقة نجاحاً حيث أنّ المطوّفين يدرسون لغة وعادات البلد الخاصّة التي عيّنوا لها وينعكس هذا على جعل الزيارة أكثر تثقيفاً. إنما كانت تجربتنا صعبة.

لم نسمع بهذه الإجراءات إلا حين اقترابنا من المحطة، وتوجّست خيفةً من هذا الأمر. ليس من المعقول أن نعمل مع مطوّفي زنجبار حيث سأُلزم أن أختلط بكل زائر من الساحل الأفريقي، فأكون تحت خطر الاكتشاف من قبل أيّ شخص يعرفني في مومباسا، إن لم تكشفني اللغة. كان ضرورياً اتّخاذ قرار سريع لتفادي خطر هذا الأمر الطارئ. وبعد تداول سريع قرّرنا ما يلي: يدّعي عبد الواحد أنّه من بغداد، وأنا «درويش» عاش هناك بعض الوقت، وبما أنّ مسعودي أسود اللون، فهو عبد لي. والدوريش لقب يُطلق على فرقة من المتعبّدين منتشرين في مصر والسودان، وهو لقب يستعمل من قبل أفراد لا يعترفون بهويّتهم الحقيقية. وقد يكون هذا بسبب معتقداتهم السياسية، أو فراراً من مشاكل في بلدهم أو مشاكل النسب.

عندما توقّف القطار، كانت المحطة خالية تقريباً إلا من بعض المطوّفين الذين يُعرفون من قبّعات القش التي يعتمرونها وأثوابهم الزاهية الألوان. صعد المطوّفون إلى العربات، وبما أنّنا كنّا الحجّاج الوحيدين المهمّين من وجهة نظرهم، سألونا من نكون، وكانت إجابتنا كما اتُّفق عليه. إنما سأل بعضهم غيرنا من الركاب عنا وقد ذُكرت زنجبار. لحسن الحظ، لم يكن هناك أيّ مطوّف من زنجبار أو بغداد، فاستطعنا أن نجمع أغراضنا ونترجّل من القطار دون مصاعب تذكر. استغرق استعدادنا بعض الوقت، وحين نزلنا إلى المحطة كانت خالية تماماً.

جلنا في المدينة يتبعنا الحمّالون، فمررنا ببوّابة السور الخارجي المعزّزة حراستها، وسـرنا في الشارع المستقيم الطويل أمام ثكنات الجيش حتى وصلنا إلى الساحة أمام البوّابـة الداخليـة. توقّفنا هنا، وسـألنا عابر سـبيل أن يدلّنا على نـزل مريح نظيف وغير باهـظ. طالعنا الرجـل باهتمام، وبعد أن رضـي بما رأى قال إنّ لديـه غرفتين في منزله يؤجّرهمـا لنـا إن رغبنـا برؤيتهمـا. قبلنا العـرض، فتركنـا الحمّالين وأمتعتنا بحراسـة مسـعودي، تبعنا أنا وعبد الواحد الرجل، دخلنا من البوابة وسـرنا في شارع ضيّق ملتو يقود إلى المسجد. ثم دخلنا زقاقاً إلى اليسار وانتهينا في آخره إلى منزله.

كانـت الغرفتـان فـي الطابق الثانـي، وكانتا مـا نرغب به تمامـاً: نظيفتـان، مضيئتان ومفروشتان جيّداً، هذا ما كانت عليه غرفة المعيشة على الأقل، وكانت الأخرى حمّاماً ومطبخاً في نفس الوقت. أعربنا عن قبولنا وسـألناه مـا يرغب. بعد نقاش قصير، وافق على جنيهين ثمناً لهما، بشرط ألا تطول إقامتنا ما بعد مغادرة المحمل إلى مكّة، وذلك بعد شهر من الآن. استغربتُ المبلغ الزهيد الذي طلبه، وكذلك عبد الواحد.. إنما كان هناك سبب لذلك تكشّف لاحقاً. انتبهت بعد حين إلى أنّ ملاكي الحارس كان حاضراً ذاك اليوم حيث أنّ مصادفتنا لذاك الرجل كانت لها أهمية كبرى.

انطلـق عبـد الواحـد ليأتي بمسـعودي وأحمالنـا، بينما بقيـت أنا في المنـزل برفقة ابن صاحبه ذي الإحدى عشـرة سـنة. وصلا في ربع سـاعة من الزّمـن يحملان أخباراً مقلقـة.. فلقـد أحيط مسـعودي، الـذي كان وحيداً مـع الأمتعة، بمطوّفين يسـألون من أن أتينـا وأيـن توجّهنـا. وكانت أخبـار وصول حجيج مـن زنجبار قد انتشـرت في كلّ مـكان، فهـبّ المطوّفون المعيّنـون يطالبون بنا. كان مسـعودي لا زال ينكر بغضب أنّه رأى زنجبـار، عندمـا وصل عبد الواحد وتدخّل في الأمـر. أوضح لهم عبد الواحد أنّنا مرهقـون وقد أنهينـا رحلة طويلة لتوّنـا، وعليهم التوجّه إلى المنـزل إن كان لديهم أيّ استفسـار بعد نيلنا قسـط من الراحة وبعض الطعام. كان ردّه مقنعاً إلى حد ما، فتركونا بسـلام. أُخبرت بهـذه التفاصيل عند اسـتلامنا أمتعتنا وصرفنا الحمّاليـن، وكان مالك المنزل يسـتمع للحديث فتوجّهت إليه بزعمي أنّي حقيقة من زنجبار لكنّي حُذّرت من

استخدام المطوّفين المعيّنين أو الذهاب إلى منازلهم، حيث أنّهم لصوص ومنازلهم قذرة ومكتظّة. صرّحت أنّي أفضّل مكانه وأرغب بالدراسة بينما أنا في المدينة المنوّرة ولا أحبّذ تواجد الناس حولي يدخلون ويخرجون طوال النهار. وسألته النصيحة.

قال مالك المنزل إنّه يتفهّم موقفي، ولم يكن غريباً للزائرين أن يحاولوا تجنّب استخدام المطوّفين المعيّنين لهم، وعرض ابنه للقيام بكلّ ما نحتاج إليه بدلاً منهم، أو نستخدم أحدهم خلال النهار. نصحنا أن ندّعي أنّنا جميعاً من بغداد[1] وعندما عرف أنّ عبد الواحد قد زار المدينة من قبل، اقترح أن ينكر أنّه من الحجّاج، وأنّه هنا للدراسة أو في رحلة عمل، وأنّني اتفقت معه أن يعمل لديّ كمطوّف. لكنّه حذّرني من أنّ المصاعب مؤكّدة الوقوع، فإذا عُرف أنّي من زنجبار، سيكون لدى المطوّفين حجّة في المطالبة بي.

يبدو هذا أفضل خطّة في هذه الظروف، ولم نكن لنصل إلى نتيجة أفضل.

في خلال ساعتين، حضر ثلاثة مطوّفين، فأدار دفّة الحديث معهم بامتياز. وكعادته، كان كثير الكلام والحركة إلى درجة لم يفسح المجال لمحدثّيه قول أيّ شيء، وبعد دقائق، أظنّ أنّهم فقدوا الرغبة في أن يكونوا في صحبته. روينا القصّة التي اتفقنا عليها، وحاولوا استعمال اللغة السّواحليّة مع مسعودي، إنما بالطبع ظهر أنّه لم يفقه كلمة منها. وأخيراً، وبعد خروج آخرهم، كانوا مقتنعين أن البلد الذي جئنا منه لم يكن من زنجبار. دخل علينا مالك المنزل حينئذ مبتسماً وقال إنّ هذا كان آخرهم. ومن ثم تناولنا بعض الشاي.

أعلمنا مالك المنزل أنّه حبشيّ الأصل، واسمه إيمان، وقد أتى من مكّة المكرّمة واستقرّ هنا منذ عشر سنوات. تزوّج أرملة لديها ولد وحيد، إبراهيم، ولقد تعرّفنا إليه. وقال إنّ لديه بعض الدخل ويملك هذا المنزل، يؤجّر غرفه متى سنحت له الفرصة، ولم يكن بالعمل المربح حيث أنّ القليل من الأحباش يأتون إلى الحجاز فمعظمهم من

---

(1) كتب المؤلف: هناك الكثير من الشوام والبغداديين يعيشون في المدينة المنورة، فالزائر من سوريا أو بغداد إذا كان لديه اصدقاء مقيمون يهتمون به، يُسمح له ألا يستعين بخدمات المطوفين.

المسيحيّين. وقد أطلعني على قصة حياته لاحقاً. كان قد خُطف في صغره من قبل تجّار النخاسة وبيع في مكّة، وكان محظوظاً أنه وقع في أيد طيّبة، فقد استطاع أن يدّخر مالاً كافياً ليعتق نفسه وإثر ذلك هاجر إلى المدينة.

كان رجلاً أسمر، ممشوقاً له من العمر أربعون عاماً، دائماً بشوش الوجه ومضيافاً. من المهم القول إنه ما من عار يلحق بمن كان عبداً في الشرق، بعكس الحال في أوروبا. فنرى في التاريخ من كان عبداً أصبح قائداً للجيوش، أو سفيراً لبلاده أو حتى على العرش.

* * *

يُعرف مسجد الرسول بالمسجد الحرام، وهو لقب يُطلق على الجامع الذي تتوسّطه الكعبة في مكّة أيضاً، ومسجد عُمر في القدس وغيرها. تعني هذه الكلمة: المحظور غير الشرعي، إنما في استعمالها هنا تعني المقدّس، ويشتقّ من الكلمة، وفقط في اللغة العربية، لفظ الحريم، الذي هو مكان إقامة النساء ومن ثم أطلقت على النساء أنفسهنّ.

يقع المسجد في وسط المدينة، وله ثلاثة مداخل رئيسة. ويحيط بساحته المفتوحة في الوسط صفّ من الأعمدة. ويقع ضريح الرسول في الزاوية اليسرى مواجها القبلة في مكّة المكرّمة. يعلو الضريح قبّة تظهر فوق أسطح العمران، ويحيط به حاجز معدنيّ بطول خمسة عشر يارداً وارتفاع عشر ياردات. بالنظر من خلال الحاجز، يرى ستار معلّق من السقف يكوّن مساحة مقفلة. إنّ الستار أخضر اللون ومطرّز بمقاطع من القرآن الكريم. يحيط الستار بضريح الرسول وصاحبيه أبي بكر وعمر أول الخلفاء الراشدين. يجاور الستار شمالاً ضريح آخر، يقال إنّه لفاطمة بنت الرسول، إنما ليست الفكرة مؤكّدة، لأن تحيّاتها تتلى مرّتين، مرّة هنا وأخرى في البقيع، حيث يعتقد بعضهم أنّها دفنت هناك.

* * *

بعد تناولنا الشاي، اقترح إيمان أن نتوجه إلى الحرم لصلاة العشاء إن كنّا نملك النشاط لذلك، وسيدلّنا إبراهيم إلى الطريق. ذهبنا أنا وعبد الواحد وتركنا مسعودي وراءنا. في الطريق العام، توجّهنا إلى اليسار وبعد مسيرة دامت دقيقتين وصلنا إلى البوابة الرئيسية. أضفى الظلام تأثيراً مثيراً للإعجاب.. إذ تغيّر مشهد المنازل المتطاولة ونوافذها الشبكيّة المطلّة على الشوارع الضيّقة المبلّطة، والتي كانت خالية وموحشة، على أعتاب درج واسع يقود إلى قنطرة عظيمة، يبدو من خلالها عواميد رخامية، وأضواء متلألئة، ومئات المشاعل المعلّقة. كلّما اقتربنا، تناهي إلى سمعنا أصوات همس مشوّش. تركنا أحذيتنا مع حارس البوابة ودخلنا، وتقدّمنا إبراهيم فجأة يتلو الدعاء المناسب لنردّد خلفه. لن أترجم أيّاً من هذه الأدعية. فهي تماماً ما يتوقّع المرء، وخلا الدعاء للرسول محمّد، فهي تطابق ما يدعو به المسيحيّون عند أضرحة قدّيسيهم.

مشهد غريب هذا، يقع في نفس الزائر الجديد. انتشر المصلّون في أنحاء المكان، وهناك من يقرأ القرآن بنغمة رتيبة خافتة متمايلاً بطريقة مميّزة ترافق دائماً تلاوة القرآن. وتجمّعت هنا وهناك حلقات الدرس حول علماء الدين، يستمعون إلى تلاوتهم أو شرحهم. والبعض الآخر يناقش بصوت خافت أموراً دينيّة أو أموراً خاصّة. يقف حول الضريح المسيّج صفوف من الرجال، يتقدّمها مطوّفها ينشد التحيّات بصوت مسموع، تردّد خلفه مجموعته أو ترافقه. وحيث أنّ معظهم لا يفقه العربية، تكون النتيجة مضحكة جداً. وهناك قصص كثيرة تروى عن إغفال المعنى، لكن لتقدير فكاهة الموقف لا بدّ من فهم اللغة العربية.

توجّهنا نحو مقام الرسول، حيث كان يؤدي صلاته. لقد بني عليه قوس وزيّنت جوانبه بالشموع. أُمرنا أن نؤدّي صلاة تحيّة المسجد في هذا الموقع[1]. وخلال

(1) كتب المؤلف: بالاضافة إلى الصلوات الخمس المفروضة، هناك عدة مواقف تتطلب صلاة نافلة «سنّة». مثلاً دخول المسجد (تحيّة المسجد)، ورؤية هلال جديد، حين تقديم الشكر لله، (صلاة الشكر) في حال الخطر (صلاة الخوف)، أو الجفاف (صلاة الاستسقاء) وغيرها.

صلاتنـا، تلقيّنا بعضاً من التعليقات مـن قبل مجموعة من المطوّفين حولنا. فقد تعرّفوا على عبد الواحد أنه بغدادي، لكنّهم فشلوا في تعريفي. قال بعضهم إنّي عجمي، وقال بعضهم الآخر إنّي من البصرة. عند انتهائنا من الصلاة سـئلنا من نكون، فقلت إنّني من الدراويش سائح في أرض الله الواسعة. حاول أحدهم التكلّم معي بالفارسيّة فضحكت وهـززت رأسـي. ومن ثمّ عرض أن يطـوّف بنا مقابل دولار واحـد فقبلنا عرضه. حين تركنا المكان قال إنّه سيتلو ابتهالاً خاصاً لا يتعارض مع الفكر الإمامي. شكرته وقلت له إنّي لست إمامياً[1] ممّا حيّره، حيث أنّه قرّ الرأي على أنّي عجميّ الأصل. إنّ الإماميّة لا يذكرون أبا بكر وعمر، فلا يدخل اسـماهما في الأدعية بل يقولون: «وعلى صحبه» جمعاً. بينما يتلو أهل السنّة تحيّة طويلة لهما.

إلـى بضع سـنين خلت، كانت بـدع الإماميّة ممقوتة في المدن المقدسـة لدرجة أنّ العجم وغيرهم من الإماميّة كانوا تحت الخطر في تلك الأماكن، وعادةً ما كانت تسـاء معاملتهـم أو يقتلون. فانتقمـوا بصبّ جامّ تحاملهم على مَن يخالفون. إنما ظهر بعض السلوك المعقول مؤخّراً بين الطرفين. فلا يحتاج الإمامي أن يخفي نفسه، بل باستطاعته أن يعلن عن نفسه ولا يتخوّف الحرّاس من أي تخريب من جانبه. «لسنا مضطرّين إلى الموافقة ولا نحتاج إلى أن نُشتَم».

* * *

عندما وصلنا إلى السياج حول الضريح، نُصحنا أن نمعن النظر. لم يبدُ شيء أكثر من السـتار الأخضر المذكور سـابقاً. ثم اعتدلنا وتلا المطوّف الدعاء الذي انتهى بالفاتحة وأكفّ مفتوحة إلى السماء. ثم انتقلنا إلى جهة الجنوب، وقرأنا التحيّة لأبي بكر وعمر ومن ثم لابنة الرسول فاطمة. إنّ ضريح فاطمة الزهراء واضح للعيان، حيث أنّه خارج الستار الأخضر، مزيّن بالأحجار الكريمة. توجّهنا إلى الجهة الشمالية، واستقبلنا القبلة وصلّينـا ركعتين نافلتين. يقع مقابـل الضريح في هذه الجهة مصطبة مخصّصة لحرّاس المسـجد المخصيّين. فترى منهم عشـرين أو ثلاثين يجلسـون القرفصاء، يتحدّثون أو

(1) كتب المؤلف: انظر الملاحظة عن البدو.

يقرأون، ولا تخلو المصطبة منهم ليلاً أو نهاراً.

عـلا صوت الأذان من المئذنة، وبـدأ الجمع في الاصطفاف للصلاة. فمن كان يتلو القـرآن[1] أعاد الكتاب إلى المكتبة، وجمع المحاضـرون كتبهم وأوراقهم وأيّ أوراق رفعـت إليهـم. بعد اتّخاذ الإمـام مكانه، أقيمت صلاة العشـاء بأربع ركعـات، ومن ثم دفعنا لمطوّفنا ماله وعدنا أدراجنا إلى المنزل.

* * *

بعـد تناولنا بعض طعام العشـاء الذي حضّره مسـعودي، دخّنا النرجيلة واسـتعددنا للنوم. دخل علينا مضيفنا إيمان يتمنّى لنا ليلة هانئة ويسأل إن كنّا نرغب بإيقاظنا لصلاة الفجر. كان هذا السـؤال في غير مكانه حيث لـم يكن بوسـعنا أن نرفض. بالطبع وافقنا لكن أعربنا عن عدم غضبنا إن هو أغفل الأمر، وهو قول أمتعه سماعه. ولقد نصحني أن أغيّر زيّي لما يشـبه زيّ أهل البلد حتى لا ألفت الأنظار، وإلا فسـأبقى معرّضاً للإزعاج بسؤالي عن موطني باستمرار.

* * *

(1) كتب المؤلف: إن لفظ «القرآن» يعني الكلام المقدس، وليس الكتاب بحد ذاته، الذي يطلق عليه لفظ «المصحف». ان القرآن بطول العهد الجديد من الكتاب المقدس، ومكتوب بلغة عربية فصحى، ولذا فهو لا يفهم بسهولة من قبل العرب في هذه الايام، حيث أن الكثير من الالفاظ غير مستعملة حالياً. وبعض مقاطعه نثرية مقفاة. هذا وإن نزول القرآن على لسان رجل أمّي يعدّ أحد الدلائل على نبوّة الرسول. ولقد انقسم المسلمون حول فكرة إن كان القرآن مخلوقاً أو أزلياً.

الفصل الرابع
المدينة المنوّرة

استيقظنا في الصباح التالي الساعة التاسعة والنصف، حيث أنّ إيمان نسي إيقاظنا لصلاة الفجر دون سبب. وكنا قد اتّفقنا على أن لا نُرى أنا ومسعودي برفقة بعضنا، حيث قد نصادف أحدهم ممن يعرفه ويلفت الانتباه إليّ. لم أكن تحت خطر الاكتشاف إن كنت وحدي أو برفقة عبد الواحد حتى لو صادفتُ أحداً ممن عرفني قبلاً. لذا، توجّه مسعودي إلى الحرم برفقة إبراهيم، بينما ذهبت أنا وعبد الواحد للتسوّق. لم يكن هناك ملابس جاهزة في السوق، فاستعنا بخيّاط رافقنا إلى السوق لشراء ما يناسب من الأقمشة. كانت مراقبة عمله ممتعة. ولحظة حصوله على العمل، أخذ على عاتقه كلّ مسؤوليّة، واختار الألوان والأقمشة التي ظنّها مناسبة دون أيّ مشورة منّا. والمرة الوحيدة التي غامرت فيها بإبداء اعتراض، قيل لي ألا أتدخّل. وبعد أن ابتاع ما يحتاجه، عدنا إلى حانوته لأخذ مقياسي. لقد طلبتُ بدلتين، استلمتهما بعد يومين وكانتا كل ما ارتديت مذذاك الوقت.

إنّ هذا الهندام، مع قليل من التغيير، هو نفسه في كل مدن الحجاز، وعادة ما يرتديه الزائرون الغرباء. إنّه يتكوّن من بنطال قطني واسع، وقميص طويل يصل إلى الكاحلين، وثوب ملوّن وحزام يحمل خنجراً مميّز الشكل بالإضافة إلى مسدّس ذي ست طلقات. وفوق كل هذا جبّة بأكمام واسعة مصنوعة من اي مادّة أو لون. في أوقات القلاقل مثل هذه، يتمنطق معظم الناس بالسيوف، يحملونها تحت إبطهم الأيسر فوق الجبّة، أو يحملونها بأيديهم مثل العصا. أما بالنسبة لغطاء الرأس، خصوصاً لمن أتمّ مناسك

الحـجّ من قبل، فبعضهم يعتمر قبّعة من القشّ مشـغولة بحريـر ملوّن يلفّها زنّار أبيض، وغيرهم يعتمر قبّعة من القطن تغطّيها قطعة قطنية مثل العمامة.

فما اكتسيت هكذا إلا وامّحى من مظهري أيّ داعٍ للفت الأنظار، ولـم يعترضني أيّ من الحرّاس إلا مرّة واحدة، أروي لكم تفاصيلها لاحقاً.

صلّينـا صـلاة الظهر فـي الحرم وقضينا ما بعـد الظهر في التجوال فـي المدينة. إنّها مثيـرة للاهتمـام ومتنوّعة المشـاهد. كل ما حولـك ينبض بالغنى والنظافـة، بعكس ما تراه في معظم الأماكن الشـرقية. تتحدّد الأسـواق في شـارعين طويلين ضيّقين. وبعد ثلاثة أسـابيع، عند ازدحام الأسـواق بالحجّاج المهتمين بالتسـوّق، لن تجد لك مكاناً تشـقّه بينهـم. إنّ بعـض الدور في الأحياء السـكنية تتكوّن من أربعة أو خمسـة طوابق، مـع حدائق خلفية صغيرة. وجميعهـا يحتوي على النوافذ الشـبكية الغريبة المميّزة في المساكن الشرقيّة. هذه النوافذ صمّمت خصّيصاً لتسمح من في الداخل أن يرى الباب الخارجـي إنما يبقى مسـتتراً. تحتـوي هذه النوافذ على كوّة تسـتطيع أن ترى الزائر من خلالهـا قبـل أن تفتح الباب لـه، وأن تلقي عليه السـلام أو تطلق عليـه الرصاص، كما تقتضي الحاجة.

فـي طريـق العودة إلى المنزل التقينـا بأحد معارف عبد الواحـد، وهو رجل عجمي كان يعمـل سـابقاً لدى أحد اصدقائه. كنّا بأمسّ الحاجة إلـى طاهٍ، حيث لم يكن أحدنا بارعاً في الطهي أكثر تحضير ما نقتات به من البيض المسلوق الذي نتناوله مع البطّيخ، وبعض الخبز والعسـل. وكان البطّيخ من النوع الممتاز ولـم يكن باهظ الثمن، ولسـوء الحـظ انتهـى موسـم التمر قبيـل وصولنـا. اتّفقنا مع هـذا الرجل أن يحضّر لنـا الطعام في منزله وينقله إلينا بما يسـمح لنا تسـخينه بسـهولة، ووعدناه إن كان عمله مُرضياً أن نسـتأجره لرحلة مكّة. كانـت النتيجة أنه أثبت أنّه طاه ممتاز، ومذذاك الوقت تحسّـنت نوعيـة طعامنـا. وإني لمتأكد أنّ هذا الطاهي كان لينجح نجاحـاً باهراً في أي مطعم في لندن.

مرّت أيام قليلة دون أيّ أحداث تذكر. أمضيت وقتاً لا بأس به في المسـجد، حيث

أجد مكاناً مريحاً أسند ظهري فيه إلى عمود، وأتظاهر أنّي أقرأ كتاباً وأراقب الناس. كان الناس مصدر متعة لا تنضب، وكلّ يوم يحمل معه زائرين جدداً. وصلت قافلة كبيرة من ينبُع تحمل معها زمراً من الهنود، واليابانيين والصينيين. بإمكانك أن تتعرّف على كل الأعراق الشرقية المتواجدة وتتعرّف على أزيائها المتنوعة، حيث أنّ الجمع بألوانه يضاهي ثوباً مزخرفاً لأرقى الحفلات الراقصة. أما خلال الصلاة، فيصطفّ الأوروپيون، والأتراك بمعاطفهم الكبيرة وقبّاتهم العالية، والأناضوليون بسراويلهم الفضفاضة وأسلحتهم الرائعة، والعرب من الغرب الذين يظهرون كأنّهم مستعدّون لحضور جنازة، والبدو برماحهم وسيوفهم المعقوفة، والهنود الذين ينجحون في الظهور بمظهر أشعث وكأنهم الأفقر مع أنّهم من أغنى الحاضرين.

وكان هناك أيضاً إيرانيون، وصينيون، وإندونيسيون، وماليزيون، ودزينة من الأعراق الإفريقية، ومصريون، وأفغان، وبلوش، وسواحليون، وعرب من جميع الأوصاف. ويمكن تمييز ممثّلين عن نصف الأعراق على الكرة الأرضية في المسجد في أيّ يوم خلال الشهر الذي يسبق الحجّ. ويمكنك أن تتخيّل النتيجة المتنوّعة وجلبة الألسن.

إنّ سلوك كلّ مجموعة حين دخولها المسجد لأوّل مرة يُعدّ دراسة ممتعة، كما أنّه يمثّل الخصائص العرقية الخاصة بكلّ مجموعة. فتتباين عواطف الهنود الجياشة عندما يشاهدون بأمّ أعينهم الضريح الذي تعلّموا منذ الطفولة بأن ينظروا إليه بخشية أسطورية مع السلوك المنضبط للعرب الأكثر رباطة جأش، بينما يبدو الأندونيسيون والصينيون أكثر إصراراً على الاندهاش من كل شيء. وبالمحصّلة فالكلّ معجب بطريقته الخاصة ولقد انفجر العديد بالبكاء وأقبل بهيجان على تقبيل السياج. لقد رأيتُ أفغاناً وهنوداً يسقطون وكأنهم غابوا عن الوعي. ويبدو أنّهم كانوا أكثر تأثّراً هنا ممّا كانوا عليه عند الكعبة نفسها. في مكّة كان الشعور رهبة وتبجيلاً، وهنا تحضر العناصر الشخصية. يمكن أن يتخيّل الناظرون إلى الضريح أنّهم يزورون شخصاً عزيزاً كانوا قد عرفوه حقيقةً وأحبّوه في حياته. ويصغون إلى مرشدهم وهو يصف ما يحيط بهم باهتمام بالغ. هنا المكان الذي كان النبيّ يصلّي فيه، والمنبر الذي يعظ عليه، والأعمدة التي

كان يستند إليها، وهناك يطلّ على المسجد شبّاك بيت أبي بكر حيث أقام ضيفاً لمدة طويلة، وخلفه حديقة صغيرة زرعتها ابنته فاطمة. كلّ هذه الأشياء من وحي الخيال حيث أنّه لم يبق أثر للمسجد الأصلي، ويبقى المكان على الأقل أصيلاً، وهذه الفكرة لاتقلّل من تقدير الحجّاج لها.

* * *

إنّ الأفكار التي غالباً ما أعكسها عن الحجّ من بلدان هي الآن تحت النفوذ الأجنبي، حيث يعيش الإسلام حياة معاناة، وتقوم الطبقات الحاكمة بالتهكّم على عقيدته والعبث بها عندما لا تتلائم شرائعه مع تصوّرها الخاص بالحضارة. هنا في مدينة النبيّ على الأقل توجد جميع المؤشرات الخارجية على السلطة والثروة، والمعايير الإسلامية تطفو فوق الحصون حيث تحمي أبوابها صفوف من المدافع، ويصمد قانون القرآن بداخلها دون تغيير منذ ألف سنة، ولا يمكن لأحد من غير المومنين أن يدخل ممتلكاتها المقدسة. وتدلّ روعة المسجد على الأمجاد الماضية لإمبراطوريتهم. سيبقى ذلك كلّه كما هو، ودون أدنى شكّ سيذكّر الكثيرين بأيّام الخلافة التي حكمت العالم المتحضّر، وللجميع الأمل بأنّ أيّاماً أفضل لا بدّ أن تشرق.

* * *

من باب التقوى عمد مسعودي إلى قراءة القرآن مع رجل آخر في ذكرى وفاة والده. وكان الرجل كالعادة أعمى ويحصل على معاشه بهذه الطريقة. وكم يبدو مدهشاً أن يكون أناس عديدون يحفظون القرآن كاملاً عن ظهر قلب ويعيدونه دون خطأ واحد أو نسيان مقطع واحد. إنّ العمى لسوء الحظ شائع في هذا الجزء من الشرق وهناك محاولات من جماعات محسنة لتوفير فرص وظائف للمصابين به. وفي الواقع فإن العمي من الرجال والمتسولين من جميع الأطياف يستمتعون بأوقات طيبّة بالحجاز. وتعتبر الزكاة التي هي إحدى الأركان الخمسة الرئيسية للإسلام، مباركة بشكل رئيسي عندما تُمارس في أثناء الحجّ. لقد رأيت أناساً يرمون حفنات من الفضّة أثناء خروجهم من المسجد. والعديد من المتسولين على أيّ حال هم من أسوأ أنواع الدجّالين ويجب مكافحتهم.

تحدّثت بعد ذلك في مكّة إلى رجل أعمى أخبرني أنّه فقد بصره قبل عشر سنوات من ذلك الوقت بعد أن أصيب بالرمد. وبالحال بدأ بتعلّم القرآن واستطاع حفظه بشكل متقن في غضون سنتين. وأخبرني بأن الثلاثة الأجزاء الأولى كانت هي الأصعب حقاً، أما ما بعدها فقد كانت أسهل نسبياً بحسب قوله.

* * *

سألت ذات مرة عن إمكانية دخول أيّ شخص داخل سياج الضريح، فعلمت أنّ بني هاشم من أحفاد فاطمة وعليّ وأن الخصيان المسؤولين هم فقط المسموح لهم بدخول محيط الضريح. ولا يعني أنّ دخول أيّ شخص إلى محيط الضريح سيوضح غموض ما خلف الستائر، وإذا لوحظ دخوله، فإنّ هذا يعني لـه هلاكاً فورياً. لقد عبّر البعض عن شكوكهم فيما إذا كان محمّد مدفوناً هناك أصلاً. ودون الادّعاء بتمحيص الحقائق المذكورة لدعم وجهة النظر القائلة إنّه ليس مدفوناً هناك، أعتقد ولدرجة كبيرة انـه من غير المحتمل أن يكون هذا الشك صحيحاً. لقد عاش النبيّ إلى أن اطمأنّ إلى أنّ الدّين أصبح ظاهراً على جميع البلاد العربية، وعملياً كان الآمر النّاهي عند وفاته، فمن غير المعقول (في حال كان دُفن بمكّة) أن ينسى قبره في مكان مثل مكّة والتي كانت دائماً حصناً للمذهب[1].

هناك حكاية تقول بأنّه قبل مئات من السنين اخترق اثنان من الأوروبيين المدينة متخفّيين وحاولا الوصول خلال نفق من منزلهما إلى الضريح[2]، ولكن تمّ اكتشافهما فأُعدما صلباً

---

(1) هذا جدل غريب ربما يدلّ على قيام بعض المزاعم في عصر رحلة واقل حول مكان قبر الرسول، عليه أطيب الصّلاة والسّلام. وإلا فالثابت ثبوتاً قطعياً، لدى القاصي والدّاني، ولدى جميع مذاهب الإسلام شرقاً وغرباً أن قبره الشريف في الرّوضة الخضراء بالمسجد النبوي الشريف بالمدينة المنوّرة يثرب، على ساكنها خير تحيّة وأطيب سلام. غير أن الجميل أن هذا ما يخلص إليه واقل، الذي يقدّم لنا على صفحات كتابه آراءً وانطباعات أمينة وصادقة وتتسم باحترام الإسلام والمسلمين.

(2) هذه الرّواية صحيحة، وقد جرت في أيام حكم السّلطان الملك العادل نور الدّين محمود ابن زنكي (الشهيد)، الذي حكم بدمشق بين 549-569 هـ. ويرد فيها أن السّلطان أبصر في منامه

(يُستشهد بهذه القصة وغيرها من القصص لتبرير الاحتياطات العظيمة عند استقبال المغيّرين لدينهم من الأصول الغربية). لقد سئلت عمّا سيحدث لأوروبيّ متخفّ والذي يُكتشف لسوء حظّه هنا أو في مكّة. ويُعتقد بشكل واسع بين السكان أنفسهم بأن لدى السلطات تعليمات بقتل أي شخص يُكتشف ودون طلب الإذن من إسطنبول. ومن المحتمل أنّه لا يوجد بالواقع أساس لهذا الاعتقاد، ومع أنّه مجرد نوع من الأوامر التي يمكن إصدارها في تركية. وإذا تمّ إخطار السلطات المحلية بهدوء فعلى الأغلب سيحاولون إخراج المتسلل بسلام من البلاد، ومن المؤكد أنّهم سيفعلون ذلك إن كان إنكليزياً[1].

وإذا تمّ كشف هوية الزائر لمطوّفه فإن المسألة تصبح مسألة «كم ستدفع»، والرّشوة واردة غالباً. وإذا تمّ كشف الرشوة من قبل أهل مكة خارج موسم الحجّ، فمن المشكوك به حصول أي شيء إلا مغادرة المسافر على عجل. وإنّي أميل إلى الاعتقاد أنّهم في المدينة أكثر تعصّباً في هذه النقطة، حيث أنّ الضريح يدين بتميّزه إلى مقامه من حيث النظرة الإسلامية، وأيضاً فإن الهروب من المدينة ليس بالأمر السهل كما هو من مكّة.

ولكن لن تنفع جميع خيول السلطان وجميع رجاله لإنقاذ شخص أصبح معروفاً أنّه كان «إفرنجياً»[2] متخفياً وفي المكانين كليهما من الغضب العارم لحشود الحجّاج في هذا الموسم. وإنّ عبوراً سريعاً إلى العالم الآخر بضربة سيف أو بطلقة هو أفضل ما يمكن مقارنةً بالنهاية التي يمكن أن يواجهها. والفرصة الوحيدة في هذه الحالة الطارئة هي إعادة نطق الشهادتين للدّين الإسلامي ومحاولة اللجوء إلى بيت أحد المتنفّذين مثل شريف مكّة.

يحصل من وقت لآخر أن يُتّهم بعض المسلمين ذوي السلالة العريقة، بكونهم

رؤيا للرّسول عليه الصلاة والسّلام يقول له فيها: يا نور الدّين أغثني من هذين. فما كان من السّلطان إلا أن توجّه إلى المدينة المنوّرة وبحث في الأمر إلى أن ظفر بالفرنجيين فقتلهما. والقصة مشهورة في مصادر التاريخ ككتاب الرّوضتين لأبي شامة المقدسي، والكواكب الدرّية في السّيرة النّوريّة، والدّرّ الثمين في مناقب نور الدّين، كلاهما لبدر الدّين ابن قاضي شُهبة.

(1) كتب المؤلف: دوّنت هذه الفكرة سنة 1909، إنما هي ليست مؤكدة اليوم.

(2) كتب المؤلف: يطلق هذا اللفظ، وهو مجرد تحوير لصفة «فرنسي»، على الغربيين المسيحيين.

مسـيحيين متخفّين. ولقد كاد الموظـف التركي الذي التقط بعض صور هذا الكتاب[1] أن يفقد حياته على يد المغاربة العرب في يوم عرفات. وقد سمعت أنّ حاجّاً روسياً، مع أنّه وعائلته من المسـلمين منذ أجيال خلت، قد أنقذ بصعوبة من قبل السـلطات التركية في ينبُع في مواجهة حشد غاضب أثيرت حفيظته من عصابة الرأس التي اعتمرها والتي تشبه القبّعة الأوروبية.

لقـد حاولنـا عدّة مرّات زيـارة البقيع، وهي المقبرة التي تقع خارج الأسـوار، مكان دفن العديد من الشـخصيات الإسـلامية الشـهيرة. لقـد كانت البوابة مقفلـة حيث أنّها كانـت تحت مرمى نيران الأعداء، ولـم نسـتطع الدخول لفتـرة طويلة. كان هناك الكثير مـن الإصابـات في بداية الحصار، وقـد قرّرت الحكومة إغلاقها فـي الوقت الحاضر. لكـن لم تحصل أية أعمـال عدوانية من قبل الجانبين منـذ وصولنا، ولـم يكن هناك من مظاهر عدوانيّة غير اعتيادية عدا بعض طلقات بنادق عابرة.

* * *

كان صديقنـا الدمشـقيّ عبد الله قـد عرّفنا على بعضهم، والتقـى عبد الواحد بعض الأصدقـاء من حلب وقـد قمنا بتبادل الزيّـارات معهم. برد الطقس كثيـراً وأمل الكثير مـن النـاس أن يتعـب البدو المخيمون حـول المدينـة فيرحلون، خصوصـاً أنّ أغلبهم قـد أتـوا من الجنـوب الدافئ. وترى نفس الاندفاع هنا في دمشـق، إنمـا بحماس أقلّ. وتظهر المبادئ البرلمانية والليبرالية على تفكير العرب والأتراك على حدّ سـواء. وقد أعتبـر بغضـي لكليهما رجعية يائسـة وردّة فعـل. أعتقد أنّي نجحت فـي خلق الاعتقاد أنّ زنجبـار بلد متخلّف أو أنّي نفسـي غبي بشـكل فريد. وقد كنـت حريصاً على ادّعاء عـدم معرفتي بأيّة لغة أوروبية ممّا يُعدّ جهـلاً مطبقاً حتّى في المدينة المنوّرة، حيث أنّ معظم علية القوم الذين اختلطنا بهم لديهم بعض الإلمام بالفرنسية وفي بعض الأحيان بالإنكليزية.

---

(1) في الطبعة الأولى من كتاب واڤل التي أصدرتها دار كونستابل بلندن عام 1913 توجد بضعة صور فوتوغرافيّة قليلة، لكنها غير موجودة في طبعة 1918 التي رجعنا إليها.

تلقى إنكلترا ولغتها استحساناً في كلّ مكان، ولا تقارن بقيّة اللّغات الأوروپيّة بها. ولا يرجع السبب فقط للتعقيدات الأخيرة مع النّمسا على ضمّ البوسنة والهرسك، إنما أيضاً للاحترام الحقيقي للمؤسّسات البريطانية وممارساتها[1].

* * *

هناك الكثير من المقاهي في المدينة المنورة اعتدنا أن نرتادها للتدخين في الأمسيات. إنما هذه المقاهي لا تمتاز بالنظافة وعامّة تخسر في مقارنتها مع المقاهي في دمشق. وقد يثري أيّ إمرئ يفتتح لنفسه مقهى أو فندقاً معتبراً. وثمّة فرصة أخرى لعمل مربح قد يكون مخزناً للأطعمة المبرّدة، حيث أنّ اللّحم غالي الثمن ولا يمكنك الحصول على السمك. لكنك تجد الكثير من الأطعمة الأوروپيّة في الحوانيت، ومن الغريب أن ترى في هذه الأنحاء إعلانات بضائع مثل شوكولاته كادبُري المعروفة، وهنتلي وبسكويت پالمر.

بحثتُ كثيراً لأحمل معي شيئاً يتضمّن خصائص المكان كتذكار، إنما لم أعثر على شيء ذي قيمة. فلم يكن هناك صناعة، ولا كتب مطبوعة. فابتعت بعض الصخور الغريبة، والتي تعرف عملياً بالغرانيت الملوّن، وتتواجد على إحدى الهضاب في الجوار[2]. وعند عودتي إلى مصر وجدت نفس هذه الأحجار تباع في القاهرة بنصف الثمن. ويبدو أنّ الكثير من الحجّاج قد أُخذوا على حين غرّة مثلي تماماً. وقد سُرّ عبد الواحد عند عثوره على بعض مخطوطات الكتب، والتي اشتراها بثمن باهظ على أمل أن يبيعها في أوروپا مع ربح كبير حيث كانت إحداها مكتوبة بالخطّ الكوفي، ومن المفترض أن تكون قد كتبت في عهد الرسول ممّا يزيد من قيمتها. وفي أحد الأيّام، حين كنت أمتّع نفسي بمحاولة فكّ رموزها، عثرت على ذكر لأحد الأشخاص الذي عاش بعد مئات من السنين من عهد الرسول، ووصلت إلى استنتاج أنّ من باع

---

(1) كتب المؤلف: لم يعد هذا السبب قائماً للاسف، حيث ان تأثيرنا قد اضمحل مذذاك. ولكي نفهم إنكلترا اليوم علينا ان نقرأ في السياسة الألمانية.

(2) كتب المؤلف: في الحقيقة، تتواجد هذه الصخور في اليمن.

المخطوطة تلك إلى عبد الواحد لم يكن مغفلاً إلى الحد الذي ظنّه به.

أقمنا علاقة صداقة مع الشيخ المسؤول عن المكتبة الجميلة الملاصقة للحرم. قمت بزيارتـه عـدة مرات هناك وقد اطّلعـت على عدة مخطوطات أصيلـة ومثيرة للاهتمام. وكانت المكتبة على صغرها مفروشة بشكل مترف ومحافظ عليه جيداً. والدخول إليها مجانيّ، إنما كتبها ليست للإعارة.

هنـاك حمّامان تركيّان في المدينة، وكلاهما سـيّء ومزدحم في هذا الموسـم. ترى هـذا التناقض في كل مـكان، حيث تتناوب القذارة والخباثة مـع الترف الفاحش. ومن الغريب أنّ هؤلاء الناس المعروفين باهتمامهم بالنظافة الشخصية يحتملون هذه الحالة القذرة في الحمّامات العامة هنا وفي مكّة.

أمـا طقس المدينة المنوّرة في هذا الوقت من السـنة فهو مبهج، فالهواء دافئ خلال النهار إنما مثير للنشـاط، وبارد خلال الليـل، وكنّا لا ننام إلا تحت طبقتين من الأغطية على الأقل. لا يستطيع أغلبية الحجّاج تحمّل نفقات السكن في منازل، لذا فهم يخيّمون في أي مكان خال يحصلون عليه، ومعظمهم يتمركزون في السـاحة الكبيرة التي تتوسّط قسـمي المدينة. ولا يحتمل القادمون من الجنوب البرد، وقد يكون هذا السبب لتعداد الوفيات العالي بينهم.

* * *

بدأت المشاكل تتصاعد مع البدو بعد أسبوعين هادئين مرّا علينا في المدينة المنوّرة. كان هـذان الأسـبوعان هادئين إلى درجة أنّ النـاس اعتقدوا بانتهاء المشـاكل وحاول بعضهم ممن يمتلك منازل وبساتين خارج النطاق المحمي أن يزوروا ممتلكاتهم، إنما دفعـوا حياتهـم ثمناً لهذه المجازفة. صحونا في فجـر اليوم التالي على أصوات إطلاق نيـران كثيف إلى الجنوب مـن المدينة، وعلمنا أنّ البدو توجّهـوا إلى القواعد الدفاعية الأماميـة وبـدأوا بإطلاق النار على جنودها. سـرنا، أنا وعبد الواحـد، بعد الإفطار إلى البوابـة التي تفضي إلى البقيع فوجدناها مقفلة وعليها حراسـة. فسـألنا أحد الجنود إن

كان بإمكاننا تسلّق السور لإلقاء نظرة على ما يجري، فلم يمانع إنما حذّرنا من تعريض أنفسنا للخطر. تسلقنا السور وسرنا بمحاذاة الحاجز إلى أن وصلنا إلى طاقة المدفع التي تسمح برؤية واضحة لما يجري، فهي تقع في الزاوية الجنوب غربية عند نقطة التقاء السورين. يقبع هناك مدفع كبير، وبعض البارود الأسود، ويتأهّب حوله ستّة من الجنود بإمرة ضابط شاب. وكما فعلنا نحن، وجدنا اثنين من الخصيان قد أخذا مكاناً محميّاً يراقبان ما يجري. ترامت الأرض أمامنا إلى نحو آلاف من الياردات، تناثرت فيها المقابر وظهرت آثار جدران قديمة تحدّ من ورائها مزارع النخيل الوارفة. تمترس وراء أحد هذه الجدران وفي موقع متوسط إلى اليمين أكثر من خمسين مسلّحاً يطلقون النيران بابتهاج ودون هدف معين. تصاعد من وراء الأشجار نفثات من الدخان تدلّ على مواقع الأعداء. أزّت بعض الطلقات من فوق رؤوسنا واستقرّ البعض الآخر بالحائط. أما مدفعنا فقد أطلق بعض القذائف المتفرّقة على الموقع المتصاعد منه الدخان الأكثف.

اتّخذنا لأنفسنا موقعاً نستطيع منه أن نراقب جيداً دون التعرّض لأي أخطار، وقضينا الصباح ندخّن ونتسامر مع الجنود. وللأسف، لم يكن القائد يتقن العربية لكن عبد الواحد استطاع أن يتخلّص من الكثير من الأخطاء في لغته التركية. وفي منتصف النهار، وبعد أن تبيّن عدم وقوع أيّة أحداث جديدة، توجّهنا نحو المسجد لإقامة صلاة الظهر ومن ثمّ لتناول بعض الغداء. ترامت الأخبار في ذلك المساء أنّ العديد من أفضل الفرق العسكرية في طريقها من القسطنطينية. يرافق هذه الفرق باشا ذو شهرة جديرة بالاعتبار في الحرب، سيستلم القيادة في المدينة المنوّرة[1]. كما يبدو، توصّلت الحكومة إلى قرار يقول بحسم المسألة المشينة الحالية.

---

(1) يعني بصري باشا، لكن أشهر حكام المدينة المنوّرة كان فخر الدّين باشا الملقب بالتركية بـ: Çöl Kaplanı (نمر البرّ)، الذي كانت له لاحقاً صولات وجولات أثناء حصار لورنس للمدينة المنوّرة أواخر الحرب العالمية الأولى (1916-1918)، فقاد فخري باشا الدفاع عنها بشكل بطولي استرعى احترام الإنكليز كثيراً. وسيرد خبره في كتابين قادمين ضمن هذه السلسلة: ثورة في الصحراء، ومغامرات مع لورنس في جزيرة العرب.

لقد أثّرت سياسة المسؤول السابق على الحاكم لاتّخاذ إجراءات نشطة. فمنذ بدأت الأحداث الكارثية، قنع هذا المسؤول بتبنّي موقف دفاع سلبي، ومن الأكيد أنه كان يتمنّى في قرارة نفسه أنّ البرد، الجوع والمشاكل الداخلية ستؤدي بجماعات البدو إلى التفرّق دون مواجهات دموية. أما الآن، فقد قرّر أن يقوم بعمل مدهش خلال الأيام القليلة المتبقية له، وكسابقة أولى من نوعها قرّر أن يعتمد العملية العسكرية المعروفة «قوة الاستطلاع»، أي اقتحام الخطوط الأمامية للعدوّ بهدف اكتشاف موقع الجسم الرئيس له وما يفعل. وإن أسعفتني الذاكرة جيّداً، فقد حدّد التدريب العسكري أنّ هذه الخطّة غير مقبولة وخطرة في الحصول على المعلومات، إنما يسمح بها تحت ظروف خاصّة فقط، وقد أثبتت هنا خطورتها.

* * *

إنّ المدينة محاطة بمزارع النخيل من ثلاث جهات، أما من جهة الغرب فإنّ الأرض مفتوحة، وتعلو قليلاً عن بعد، ثم تتناثر فيها بعض الهضاب التي تحوي بساتين نخيل. تسيطر على هذه الأرض المفتوحة مدفعية متمركزة على الأسوار والحصن المنفرد في جهة الشمال الغربي للمدينة. في فجر الصباح التالي، تقدمت فرقة من حوالي أربعة آلاف رجل بشكل متفرّق. وما لبثت أن واجهت مقاومة، وفي الساعة العاشرة، كان الجميع منهمك بإطلاق النار. علمنا أنّ هناك شيئاً ما يحصل فأسرعنا بالتوجّه إلى بوابة البقيع لاتّخاذ موقعنا السابق. إنّما، خاب أملنا حيث لم يُسمح لنا بالصعود إلى السور. فرجعنا أدراجنا رغماً عنا، إنما بعد الغداء، أصبح صوت القتال أكثر جذباً، فأصررت على المحاولة مرة أخرى. ومرة أخرى منعنا من تسلّق السور، إنما لم يكن لديّ أيّ نيّة بالاستسلام للرفض. فما شرعنا بالتقدم حتى تأهّب الحارس بسلاحه. نزلنا وأخذنا نجادله، فخرج القائد المسؤول وقال لنا إنّنا أغبياء، وأنّ موقع الدفاع من هذه الجهة تحت مرمى النيران. فأقسمنا أننا سنكون حريصين ولن نعرض أنفسنا للخطر إن سمح لنا بالصعود. التزم القائد موقفه قائلاً إنّ الأوامر التي تلقّاها صريحة وأنّه من المستحيل أن يأذن لنا. خلال هذا الجدال كنّا نصعد الدرج خطوة بخطوة إلى حين وصلنا إلى

إنحنـاء في الدرج فأسـرعنا الصعـود واختفينا من أمامه. توقّعـت أن يلحق بنا ويرجعنا بكل خزي، إنما يظهر أنّه قد يئس منا على أسـاس أنّنا أغبياء من الأفضل السـماح لهم بالصعـود ومـن ثم يصابون بطلقات نارية إن أرادوا ذلك حقـاً. عند وصولنا إلى القمّة، أخذنا طريقنا بمحاذاة السـور إلى موقعنا السـابق، إنما لم نجد المدفع في مكانه. تابعنا السـير على السـور الدائري إلى أن وجدنا المدفع في موقع آخر يحمي الجهة اليسارية مـن خـطّ الدفاع، وحوله أصدقاؤنـا القدامى تحت إمرة قائد جديـد. كنّا في موقع جيّد لمراقبة ما يجري دون التعرّض لأي خطر، ووجدنا ستّة مطوّفين وبعض الخصيان هناك لنفـس الغرض. إنّ الخصيـان طبقة من أهل المدينة الذين يتمتّعـون بامتيازات خاصة، ويعاملون بكل احترام، أما أهل المدينة أنفسـهم فهم غير معتادين على أن يتحكّم فيهم أحد، ممّا يفسّر وجودهم في هذا الموقع.

إنّ البنادق المستعملة من قبل الجانبين، كما بقية الأسلحة، تستعمل البارود الأسود، ولذا كان من السـهل تتّبع خطّ سـير المعارك. لم يكن هذا الأمر سهلاً في المعارك التي قامت في جنوب إفريقيا. بينما كشـف الدخان الأسـود مواقع المهاجمين والمدافعين بوضوح وكأنها مرتسمة على خارطة.

عندمـا وصلنـا إلى الموقع، كانت الفـرق التركية قد تقدّمت حوالـي ثلاثة أميال في السـهل المفتوح في مواجهة مع البدو المسـيطرين على الواحات والبساتين المتناثرة. كان الأتراك يطلقون وابلاً من الرصاص والكثير من الذخيرة، أما البدو فكانوا يتحيّنون الفـرص للقنص. أمـا المدفعية فكانت تطلق بطريقة غير منهجية وتراءى لي أنّها تمرين على القتال. واستعملت القذائف والقنابل التي تتشـظّى، حيث أنّي لم ألحظ استعمال فتيـل لهـا. تواجـد إلى الجهـة اليمنى مدفعان مـن النوع العامـل ببارود عديـم الدّخان smokeless powder، ولـم تسـنح لي الفرصـة بأن أدقّق فيهما عن قـرب، إنما كان يبدو واضحاً أنّهما من عيار كبير.

لـم يكن الهدف من هذه العمليات واضحاً، حيث أنّ إطلاق القذائف من هذا البُعد لا يحقّق النجاح المطلوب، وكأنّه لم يكن المقصود به دحر الهجوم. اقترح البعض ان

الطريقة الوحيدة لتحقيق أيّة نتائج حاسـمة هي التقدّم في مزارع النخيل، ودحر العدو، والسـيطرة علـى مـاوراء هذه المواقـع. فعلّق القائد المسـؤول بقوله إنّ هـذا هو الرأي السـديد، إنما للأسـف لـم يكن أحد ليتبعـه. ففي الحقيقة، تكوّنت الفـرق من مجنّدين حديثي العهد قليلي الخبرة بالالتحام المباشر.

بقينا في موقعنا عدة ساعات، لم يحصل خلالها أيّ تقدّم يذكر، بل بعض الجولات من إطلاق النار على من يدخل في مجالها. وكان أقصى ما حصل إيقاع بعض أشـجار النخيـل. قـدّم لنا عبد الواحـد والخصيان، الذيـن يعرفون الكثير عـن المعارك، عرضاً طويلاً عن الاستراتيجيات والخطط الحربية بشكل عام، وتفاصيل الحملة التي نراقبها، إن صحّ إطلاق هذا التعبير على ما يحصل أمامنا. بدأت بالتساؤل عمّا سيحصل عندما يتوقّفون، ولا بدّ من التوقّف. كان واضحاً أنّهم لن يستطيعوا التوقّف دون اعتداء عليهم بالنظر إلى مواصفات عدوّهم وطبيعة الموقع.

أردنا الحصول على رؤية أوضح، فقررنا تغيير موقعنا إلى البوابة المواجهة للمحطة. فنزلنا من على السـور الذي أصيب في بعض أجزائه وسـرنا إلى بوابة جانبية قادتنا إلى داخـل المدينـة، إلى أن وصلنا الشـارع الرئيسـي. كانت البوابة الكبيـرة مفتوحة تجمّع حولها حشـد من الناس يراقبون المعارك. وكانت المباني التي ما زالت تحت الإنشـاء والبوابـة والسـور محصنة حيث وضـع مدفعان فوق المباني. لم أجد حرجاً من السير قدمـاً إلـى حيث جلس البعض في ملابس مدنية. كان هنـاك العديد من المقاهي ما بين البوابـة والمحطّة تواجد فيها الناس. فانضممنا إلى المجموعة وكانوا خمسـة مطوّفين يراقبـون ما يجري منذ الصباح. لم تترك المعارك تأثيراً طيّباً عليهم حيث أنّه لم يحصل أيّ تقدّم يذكر مع اسـتمرار مرور الجرحى والقتلى أمامهم طوال النهار. كنّا قد صادفنا أربعـة جرحى فـي طريقنا، وقال لنـا أحدهم لا زال يحمـل بندقيته أنّه مـن المتطوّعين إنمـا اسـتغرق في النوم فتُرك فـي موقعه وحده. انضمّ المتطوّعـون إلى المحاربين قبل عدّة أيّام، وحصلوا على بنادق لحراسـة الأسـوار خلال الليـل وحماية مواقع ضرورية خـلال النهار. وطبعاً من الضروري إبعادهم عن أيّ التحام مباشـر مع العدو خصوصاً

في ظروف هذه الحرب. لم تُصرف لهم ملابس عسكرية ولم يغيّروا ملابسهم المريحة والملوّنة مع أنها لا تلائم ما يفعلون. أما فرقة حرّاس المدينة المحاربين فكانوا يشبهون حقلاً من الزعفران في شهر آذار، ومن السهل جداً رؤيتهم عن بُعد. سألتهم إن كان من المقبول انضمامي إلى صفوفهم، فرحُّب بي، وتطوّع أحدهم بأن يعرّفني إلى الشيخ المسؤول في اليوم التالي، ولم ألقِ بالاً إلى اعتراض عبد الواحد.

أصبحت الساعة الآن الخامسة بعد الظهر، وقد توقّفت المعارك منذ بعض الوقت. بدأت الفرق العسكرية انسحابها بطريقة منظّمة تقليدية، حيث يرجع بعضهم القهقرى ثم يستديرون لحماية البقية.

عندما وصل الجنود إلى مسافة نصف ميل منّا، بدأنا بالتفكير أنّه حان الوقت للرجوع، إنما كانت الأمور تسير بنظام ولم نكن في عجلة من أمرنا. وفجأة قامت بعض الفوضى بين الناس المجتمعين في المقاهي، حيث هبّوا واقفين وأسرعوا نحو البوابة. كان رجل يتناول قهوته قد أصيب في رأسه فقُتل على الفور. وتحول صوت إطلاق النار البعيد إلى لعلعة بنادق قريبة منا مختلط بأزيز الرصاص. وبنفس الوقت هرع حرّاس مباني المحطة إلى مواقعهم.

كان من الواضح أنّ موقعنا الحالي خطر، فشرعنا بالتراجع إنما لم نكد نصل إلى البوابة حتى أصبح صوت إطلاق النار هديراً مفاجئاً. نظرت خلفي فرأيت الجنود يسارعون إلى مواقعهم واشتعلت الهضبة بسحابات الدخان، وظهر حشد من الرجال على جمالهم وجيادهم يلوّحون ببنادقهم ويطلقون الصرخات العالية. سيطر الرعب على الناس الذين يحاولون العبور من البوابة، وأصيب بعضهم وتأذّى البعض الآخر في الزحام. وعندما أطلقت المدافع فوق البوابة شظاياها والبنادق المتمركزة على الأسوار وبقية الدفاعات توقّف تقدّم البدو وأعطيت الفرق الوقت اللازم لتنظيم نفسها. اغتنمنا فرصة الهدوء جميعنا للعبور من البوابة وتخلّف شجاع واحد مع بندقيته للاشتراك في المعارك.

كان هناك مشهد فوضوي خارج البوابات. جنود يهرعون في كلّ مكان، وتعالت

أصوات الأبواق تعلن إنذار الخطر أو الانتظام في الصفوف. وما لبثت أن خفتت أصوات البنادق القديمة وهدير القنابل بعد الارتجاج الشديد الصادر عن قنبلتين مرّتا من فوق رؤوسنا وغطّتانا بالغبار والدخان. وهرعت فرقة مع سلاحها الأبيض خلال البوابة. كانت الإثارة شديدة جداً.

أما الحجّاج فقد كانوا حكماء في التزام منازلهم، وترك أهل المدينة المنوّرة الأتراك والبدو يحلّون مشاكلهم. وقد هرع كلّ من يمتلك سلاحاً من أهل البلد في الدفاع عنها حيث كان يبدو واضحاً أنّ البدو قد قرّروا دخول المدينة.

حلّ الليل سريعاً، ولم يبادر العدو إلى هجوم آخر، بل اكتفى بإطلاق النار على مسافات قريبة. وسمعنا لاحقاً أنّ بعض الاقتتال وجهاً لوجه قد حصل في بعض الأماكن.

عندما قدّم الظلام بعض الأمان، تمّ سحب الجرحى والقتلى. لم يكن هناك الكثير من الجرحى في جانبنا مع أنّ السلاح المستعمل يسبب إصابات خبيثة. وبالطبع، أُسعف الجرحى الذين وقعوا قريباً من البوابة، وكان من بينهم العديد من المتطوّعين للحراسة.

لم أقدّم أيّ تعليق لأهل المدينة عند رجوعي، ولم أكن مستعدّاً لمناقشة نظرة البدو إليهم. ولم يكن هناك أيّ تفسير لقلّة احتمالهم منظر إهراق الدماء في حالة الطوارئ هذه. وظهرت ومضات من روح القتال المتأصّلة في نفوسهم. بدا الغضب والرغبة في الانتقام واضحين فيمن يحيط بي، واقترح العديد منهم هجمة مباغتة على العدو للإيقاع عليه.

حان الوقت للذهاب إلى المنازل حيث أنّ الظلام أصبح دامساً وفرصة حصول هجوم آخر قد اضمحلّت. وكان عبد الواحد قد توجّه إلى المنزل منذ فترة طويلة بعد أن أعرب عن اعتراضه على سفك الدماء، خصوصاً دمه. في طريق عودتي، التقيت بمسعودي الذي كان حاضراً للمعركة، كان يبحث عني في كل مكان خوفاً من أن أكون

لا زلـت خـارج البوابة. عدنا سـويّة إلى المنزل لنجـد صاحبه وعبـد الواحد يحضّران طعام العشاء.

تركنـا إيمان بعد ذلك ليسـاعد في تحصين السـور، كما فعـل كلّ أصحاب المنازل المحترمين تلك الليلة. وعرضنا عليه أن نرافقه إنما استطاع أن يقنعنا بعكس ذلك لأنّنا لا نملك أسـلحة. وبرغم أصوات القصف المسـتمرّ، نمت بسلام تلك الليلة خصوصاً أنّي كنت مرهقاً.

في الصباح وجدنا البدو قد تراجعوا إلى مواقعهم السابقة واستأنفوا عمليات القنص عـن بُعد. وكانوا بالطبـع قد أخلوا قتلاهم وجرحاهم الذين يعدّون بالآلاف، كما يفعل العدوّ دائماً. ولـم يكن بحوزتنا إلا أسرى ثلاثة من عمليات اليوم السابق، الذين أعدموا بالسـيف وعلقت رؤوسهم على بوّابة دمشق ليكونوا عبرة لمن يعتبر من أعداء حكومة جلالة السـلطان. إنما حتى لو تسلح الثوّار بمناظير قوية، ما كانوا ليتعرّفوا عليهم، وبما أنّ الـرؤوس الثلاثـة لم تثر أهمية كبرى لدى الناس، فقد أنزلت من على البوابة ودفنت في السـوق، الأرض التـي لوّثها الغزاة المغيـرون الذين وجدوا متعـة بكل ما يحصل. وجدتُ هذه الإجراءات عبثيّة في طبيعتها وغير صحية، وقد عبّرت عن رأيي هذا لأحد الموجودين فقال: «صحيح، لكن هذا الأمر سيزعج الغزاة إلى حد كبير عندما يعلمون بـه». وافقته الرأي في ذلك، حيث أنّ أيّ إجراء يخدم هذه المصلحة، طبعاً غير الخيانة نفسها، يصبح مسموحاً، ويتحوّل الأمر إلى مقبول في المدى البعيد.

مهمـا كانت خسـائر العدو، فإن خسـائرنا كانت للأسـف واضحة، مـع أنّي لم أكن لأصـل إلـى الرقم الصحيح، حيث تراوحـت التقديرات من مئتين إلـى ألف إصابة. لا بـدّ لـي مـن أن اعتمد المئتين في تقدير سـريع، وهناك عـدد كبير من القتلـى، حيث أنّ الجرحى الذين تُركوا في الميدان قد قتلوا خلال الليل.

وبعيـداً عـن أيّ تثبيـط للعزيمة بعـد هـذه النتائج، كان هنـاك حميّـة للانضمام إلى الجيش من قبل السكان. لقد تطوّع الجميع، وسُلّم معظمهم أسلحة حيث أن السلطات كانت مستعدّة للدفاع عن سلامة المدينة. لم يتدخّل الحجّاج إذ أن هذه الحرب ليست

من شـأنهم. إنما اعتمـد المطوّفون مظهراً يناسـب الحرب، فتسـلحوا بأحزمة عريضة للرصاص على اكتافهم، وحراب، ومسدّسـات صغيـرة وخناجر. وانطلق المتطوعون بطلعـات مباغتة بغير أوامر من أحد خلال الأيام القليلة التي تلت، واشـتبكوا مع البدو عدة مرات، وقد قيل لي إنّهم حاربوا ببسالة، على الأقل هذا ما كانوا يعتقدون.

لـم أكن ومسـعودي مسـتعدين أن نُتـرك جانباً، ولـم نكن لنصغي لاعتـراض إيمان باشـتراكنا فـي الحرب وأنه من الغباء أن نتدخل فيها. وبمـا إنّي قد اطمأننت أن لا أحد في المدينة قد يتعرّف علينا، فلم أكن قلقاً من أن أُرى معه. استفسرنا من عدّة أشخاص عمّـا باسـتطاعتنا أن نفعل حتى ننضـمّ إلى الجيش، وكذا فعل بعـض الحجّاج، إنما لم يفدنا أحد. وأخيراً صادفنا أحد الجنود الأتراك الذي رافقنا في رحلتنا من دمشق فطلبنا منـه المسـاعدة. فرافقنا إلى القيـادة العامة ونجح في تدبير مقابلة لنا مع المسـؤول عن تسـجيل المتطوعين، الذي كان متعاطفاً معنا ومسـروراً، إنما يأسـف أنه لن يستطيع أن يفيدنـا بشـيء حيث أن الأوامر كانت صارمة، فلا حجّاج مسـموح لهم بالاشـتراك في القتال. أما السبب فكان واضحاً، لو فتح المجال للحجّاج للاشتراك بهذه الاشتباكات، لكان للبدو كلّ الأعذار لاعتبارهم من المحاربين وسيشرعون بالاعتداء على القطارات أو القوافـل في الطريق. أمـا الحكومة التركية فكانت شـديدة الاهتمام بالظهور بمظهر السلطة القادرة على حماية السّلام والأمان في جزيرة العرب، وأن تكون حامي الحمى بالنسبة لإقامة الحجّاج في هذا الموسم. فإنّ منع أعداد كبيرة من الحجّاج من الوصول إلـى المدينة المنوّرة يشـكّل عاراً جديّاً عليها، فما بالـك إذا قُتل أو جُرح من وصل إلى المدينة؟ وقد يحمل الناجون معهم آراء غير مطرية لقدرة السلطان على أن يكون جديراً بحماية الحرمين الشريفين.

علـى أيّ حـال، لم يكن هذا المسـؤول ليسـاعدنا فيما أردنا، وذلك أن يرسـل معنا كتاباً لأحد الشـيوخ يسـمح لنا بالانخراط في قوّاته. وأُعلمنا حينها ألا نتسـرّع بالقرار، حيث أن المفاوضات كانت قد بدأت مرة أخرى هذا الصباح وقد لا يكون هناك المزيد من المواجهات، وكان لزاماً علينا أن نكتفي بهذا القدر.

ابتدأت المفاوضات فعلاً ذاك الصباح إنما وصلت إلى طريق مسدود. كانت مطالب البدو خارجة عن المعقول، وبعد نجاحهم الأخير لم تكن غطرسة شيوخهم لتحتمل. بالرغم من ذلك، لم تكن هناك أية مواجهات أخرى خلال إقامتنا في المدينة. فقد حصر العدوّ عملياته بالقنص على الأسوار، وحصر الأتراك نشاطهم في نيران المدافع والسيطرة على الأراضي ما حول المدينة.

وبعد أيام قليلة، وصل الحاكم الجديد برفقة كتيبتين وبعض المدافع. راقبناهم وهم يترجّلون من القطار، وكم أدهشني ترتيبهم وهيئتهم العسكرية، فهم يختلفون عن الفرق التي صادفناها إلى الآن. أما أسلحتهم فكانت من نوع ماوزر[1] Mauser 256 والحراب الكبيرة.

* * *

مرّ الأسبوع التالي دون حوادث تذكر، خلا مشادّة مع المطوّف حمزة، وهو شاب كردي ينحدر من عائلة ثرية، مختص بالحجّاج العجم وعادة ما يكون نصيبه مجموعة لا بأس بها منهم في موسم الحجّ. وكما علمت عنه فإن والده يمتلك منزلاً جيّداً للإقامة. وعليّ هنا أن أشرح أنّ لدى العجم سمعة في البلاد الشرقية كسمعة الإنكليز في القارّة الأوروربية، فلا بدّ أن يكون واحدهم دائماً ثرياً، ويدفع ثمناً مضاعفاً لكلّ شيء. ولا غرو أن يدّعي العجم أنهم من العرب خلال إقامتهم في تلك الأماكن، أولاً لدرء سمعة الثراء، وثانياً للخلاف القائم بين السنّة والشيعة والذي لا زال يسبّب بعض المشاكل من حين لآخر. أما حمزة ووالده فلديهما مكتبة في الشارع الذي يؤدي إلى الحرم الشريف، حيث ابتعت منه عدة مرات. ولسبب غير معروف، يعتقد حمزة ووالده أنّي عجمي الأصل وأنّ عمل عبد الواحد معي يحرمهما من حقهما القانوني. ولا زال

---

(1) بارودة الماوزر الألمانيّة معروفة، ولا ريب أن تصميم مغلاقها يبقى الأفضل في ميكانيك الأسلحة الفرديّة حتى اليوم، ويسمّى Mauser Action، لكن الشائع في عيار هذه البارودة هو عيار 8 مم (أي 8x57) أو بصورة أدق 7.92 مم. أما عيار 256. جزءاً من الإنش المعادل 6.5 مم (أي عيار 6.5x57) فهو يؤدّي إلى سرعة أعلى للمقذوف، واستواءً أفضل للرّمايات البعيدة.

حمزة يناقش هذا الموضوع متى التقينا، ودائماً باللغة الفارسية. كنت دائماً أصر أني لا أفهم الفارسية إنما دون فائدة. وفي أحد الأيام وعلى سبيل النكتة، ألقيت تحيّة الصباح عليه بالفارسية: «خُدا حافظ»، وهما الكلمتان الوحيدتان اللتان أعرف. يبدو أن لهجتي كانت جيدة جداً، فمنذ ذلك الوقت لم يكن هناك أي شـيء يقنعهما أنهما لم يخطئا في اعتقادهما الأوّل. وبسـبب المشاكل التي حصلت في بلاد فارس نفسها، والمواجهات مع البدو، ثم انتشـار وباء الكوليرا في السـنة التي خلت، أتى عدد قليل من العجم إلى الحجّ، ولم يعمل حمزة مع أيّ منهم. ممّا زاد في انزعاجه من حرمانه من العمل معي. بالحقيقـة كنـت أميل اليه، ولـن أمانع أن يعمل معي إن كان هـذا ممكناً. في أحد الأيام استوقف عبـد الواحـد في الطريق وشـتمه بعنف، فقـال له عبد الواحـد أن يذهب إلى الجحيـم. ومذذاك الحين، انكفأ ووالده يشيران علـيّ بالبنان أمام النـاس أو يتصرّفان بطريقة فظة في العلن، وكان لا بدّ من وضع حدّ لهذا التصرف.

بعد المداولة، قرّرنا، عبد والواحد وأنا، أن نتعامل مع الموقف وجهاً لوجه. فتوجّهنا إلى المكتبة وتكلمنا معهما. أخبرتهما أنّ زيارتي فسـدت بسـبب الإزعاج المتكرر من قبلهما بسـبب اتّهامي بالانتمـاء إلى مكان لم أطأه في حياتـي، ومعرفتي بلغة لا أعرف منها إلا ما سمعاه مني قبلاً. أضفتُ أني سأتوجّه إلى شيخ الحرم لأقدم شكوى وأُشهده على جواز سفري، وأن موطني الحقيقي ليس يعنيهما في شيء. أنهيت كلامي وخرجت من عندهما وكأني أنفذ ما هدّدتُ به. وكما قدّرت، فقد استسـلما للحال، وهرع حمزة وراءنا معتذراً بشدّة ومتوسلاً أن أعود أدراجي. عندما ألنت لهما، شرح والده أنهما لم يقصـدا أي ضرر وأنّهما يأخذان كلامي بأني لسـت عجمياً على محمل الجد، وما إليه مـن اعتـذارات. ويعلم حمـزة أنّي لو نفّذت تهديـدي لكان في مأزق جـدّي. فلم يكن الشـيخ ليقبل بأيّة ترّهات، والإشراف على الدلاّلين ومتابعة الشكاوى عنهم تأتي أكلها بالنسبة للسلطات. أما في حالتي فكانت شكواي مجرد تهديد طبعاً.

مـا لبثنا أن أصلحنا الأمور فيما بيننا ووعدت حمـزة أن أدعه يأخذنا إلى البقيع يوماً ما، وإلى أماكن أخرى، متى كان الأمر ممكناً.

وقد كان ذلك ممكناً فعلاً بعد بضعة أيام. إذ لم يجر أيّ قتال في تلك الناحية من المدينة مؤخّراً، وبناءً على طلبات عديدة، فُتحت أبواب المقبرة لدخول الحجّاج. قدم إلينا حمزة بعد الغداء ورافقنا إلى جميع المقابر هناك، وسيكون وصفها مملاً في هذا المقام، إنما ما هو أجدر بالذكر هو مظهر المباني المتواضع وحالة الإهمال التي تهيمن على المكان. بالحقيقة إنّ هذا لشيء مستغرب حينما تفكر بالملايين التي أُنفقت على المباني الدينية في بلاد إسلامية أخرى، مثل المساجد الفارهة في القاهرة ودمشق، والقبّة الذهبية في كربلاء، والرفاهية المطلقة التي يصفها المسافرون الهنود. بينما هنا، وفي مهد الدين نفسه، فإن أضرحة زوجات النبي، وابنه الرضيع إبراهيم، وحفيده الحسن، وغيرهم كثير ممن لا تذكر اسماؤهم إلا مُقترنة بالدّعاء والرّضوان، لهي هزيلة الحجم والجمال، ولاتُرمّم مثلما ترمّم أماكن خاصة أخرى. وليس لديّ أيّ تفسير أو تبرير لهذا الأمر بالذات.

وجدنا حمزة دليلاً جيداً. لقد قرأ أدعية الزيارات بصوت جيّد ولفظ واضح، وكان على مقدرة أن يجيب على كل سؤال وجّه اليه. لكن كان لديه تأتأة مزعجة خلال الحديث.

لم يُسمح لنا بدخول أضرحة أيّ من النساء، حيث كان يشغلها حارسات نسوة تحسباً لأمر مثل هذا. فلزم علينا بوجودهن أن نقوم بالزيارة والدعاء عن بعد، واستغرقت الرّحلة تلك عدة ساعات.

* * *

في اليوم التالي، رافقنا حمزة إلى عدّة أماكن مثيرة للاهتمام في الطرف الآخر من المدينة، أحدها ضريح عبد الله، أبي الرّسول. وقد أثار هذا الضريح أزمة لعلماء المسلمين. فإن عبد الله توفّي عندما كان الرسول طفلاً، ومن الواضح أنّه لم يكن مسلماً، بل كان على دين أهل مكّة. فهل يجب أن يُعامل معاملة الأولياء؟ أعلمنا حمزة حقيقة أنّ الرسول قد طلب له الغفران، وللحال استجاب له ربه فأعاد أباه إلى الحياة أمامه، حين نطق الشهادة وآمن بالدين الذي يدعو إليه ابنه على أنه الدين الحقيقي ثم عاد إلى

قبره[1]. إن المسلمين يؤمنون أن كلّ ما على الأرض يموت قبل يوم الحساب، حتى ملك الموت نفسه. ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾.

أطلعنا حمزة على رأينا في هذا الموضوع، فإن منطقنا لا يقبله. فكان أن قال إنه هو نفسه لا يصدّق هذه القصة إنما هي قصّة جميلة تخطت الواقعية ولا يمكن إثبات عكسها، لذا فلم الجدال في مصداقيتها؟ إن تعليقاته عادة ما تعكس فلسفة خاصة، وفيها سرعة بديهة.

توجّهنا لنرى ما تبقى من الخندق الذي حفره أتباع الرسول للدفاع عن المدينة في حربهم مع قريش. يعترف الكثير من الناس أنهم يشكّون في هذا، إنما على غرار حمزة، لستُ أرى أيّ سبب في عدم التصديق. فمن الأكيد أنّ مشاهدة موقع مثل هذا صعب النسيان.

* * *

وفي يوم آخر زرنا مسجدين يبعدان ميلاً تقريباً عن البوابة الشمالية، وقد كنّا في خطر لفت انتباه بعض القنّاصة، إنما لم يحدث شيء. دُفن في أحد هذين المسجدين ابن عم الرسول، وقد نسيت اسمه، وقد اعتاد أن يصلّي العشاء في المسجد الآخر بعد مشاهدة مباريات السباق، والتي يظهر أنّه كان مداوماً عليها. يضاف إلى مزايا الرسول محمّد أنه النبي الوحيد الذي كان فارساً وبأسمى معاني الرّجولة والفروسية، حيث أنه منع المراهنة على نتائج السباقات.

من إحدى عادات حمزة الدائمة أنّه يكحّل عينيه، والكحل هو مسحوق أسود مرغوب الاستعمال عند العرب منذ ما قبل الرسول الذي قيل إنّه قد استعمله[2]. يُنسب

---

(1) ترد في المرويات الشفاهية بذلك العصر أقاويل وأساطير كثيرة لا علاقة لها بالواقع من قريب أو من بعيد، لكننا نبقي عليها في النص من باب أمانة الترجمة على لسان راويها، لا من باب الأخذ بها كمسلّمات. وإن أفادنا ذلك بشيء فهو مجرّد الاطلاع على عقلية أبناء ذلك العصر وانتشار الجهل والخرافات بينهم.

(2) كتب المؤلف: يروى عن الرسول انه قال إن الكحل أحد ثلاثة لا تعار، بجانب مسواك الأسنان والزوجة. لكن هذا حتماً لا علاقة له بالحديث الشريف، ومصدر هذه الطرفة لا بدّ أن يكون العصور الوسطى.

إلى الكحل أنّه يحافظ على النظر ويحمي من التهاب العينين. لقد جرّبتُ استعماله عدة مـرات، إنما وصلت إلى نتيجة أني أتشبه بالفتيات في جوقـات الغناء. أما عبد الواحد فقـد اسـتعمل منه كمية كبيـرة في عينيـه كاد يطفئهما، وعندما حـاول تنظيفه بقطعة من الإسـفنج، لوّث كامل وجهه باللون البنفسـجي الفاقع، وقضى بقية النهار يحاول إزالته بالصابون دون فائدة تذكر، حيث أن هذه المادة تلصتق التصاقاً عجيباً.

* * *

مرّ علينا إلى الآن في المدينة المنوّرة ثلاثة أسابيع وبدأنا بالتفكير في الرحيل، واتباع الخطة الأوليّة للسّفر إلى مكّة مع المحمل الشامي، أو إن لـم نستسغ الفكرة مرة أخرى، مع أيّة قافلة متوجهة إلى هناك. تتحرك القوافل في هذا الموسـم من كل عام كل بضعة أيّام، إنما ونتيجة للحرب الدائرة هذه السنة، لم تخرج أيّة قافلة إلى مكّة، وقد لا يخرج أي منها لبقية الموسم. وقد أشيع أن المحمل قد يسلك طريق البحر وهو أمر لم يعرف حدوثه من قبل.

لقـد أقلقتني فكـرة بقائي فـي المدينة المنوّرة. وتبلـور لدي يقين بـأن موقف البدو الحيادي تجاه الحجّاج لن يصمد طويلاً، خصوصاً إن قامت الفرقة العسـكرية القادمة بأي عمل عدائي وهو ما كثر اللغط حوله. فقد نرى أنفسنا تحت الحصار في أيّة لحظة ولا نتمكن من الخروج أبداً. لم أحبّذ فكرة فشـلي في الحجّ إلى مكّة والذي هو هدفي الرئيس.

مـا تيسّـر من مخارج لنـا كان الآتي: أوّلاً البقاء فـي المدينة المنـوّرة وانتظار فرصة خـروج قافلـة إلى مكّـة، أو مرافقة قافلـة إلى ينبُع ومن ثـمّ إلى جدّة عـن طريق البحر، أو أخيـراً الرجوع إلى دمشـق. كان المخرج الأخير آمناً ومؤكـداً، لكني لم أحبّذ تجربة الرّحلة في القطار مرّة أخرى، ولـم أكن لأفوّت تجربة السفر مع قافلة في جزيرة العرب. كثـر الـكلام عن قافلة متوجهة إلـى ينبُع قريباً، إنما لـم يكن هناك أيّ شـيء مؤكّد عنها. وكل مـن سـألناه عنها أعطانا إجابة مغايرة. فقد ضحـك البعض من مخاوفي، وقال إنّه من غير المقبول أن نُمنع من الحجّ، فقد كان هناك حدود حتى للجاجة البدو. ونصحني

البعض الآخر أن أغتنم الفرصة وأخرج من المدينة طالما الفرصة سانحة.

أما الأحداث التي تلت فقد أتت بالقرار على عُجالة. إذ رجع مسـعودي إلى المنزل في أحد الأيام وقت الظهيرة محمّلاً بأنباء غير سارة، وروى أنّه كان في المسجد للصلاة عندما شعر بيد على كتفه، فاستدار ليرى نفسه وجها لوجه مع خمسة من أهل مومباسا السّـواحليين، والذيـن تربطهم به معرفة حميمة، والأسـوأ من هـذا، أنّ اثنين منهم كانا قـد وطئـا منزلي في مومباسـا بحجّـة عمليـات شـراء أراضٍ. بالطبع، غُمـر بالترحيب والتسـاؤلات عـن موعد وصوله، وعن إسـم صاحب النزلّ، وعن أحوالـه في إنكلترا، وعن المكان الذي تركني فيه.

ولقـد أظهر مسـعودي حضور بديهة جيـداً، فقد ادّعـى أنّه تركني فـي إنكلترا، وأنّه لـن يحظى بفرصة أفضـل من الآن للقيام بالحجّ خصوصاً وأنه قـد ادّخر بعض النقود. وأضـاف أنّـه عند وصوله إلـى مصر عمل مع بعـض الحجّاج المصرييـن وأقام معهم. وعلـم أن هذه المجموعة وصلت من ينبُع قبـل يومين، وتنزل في دارة مطوّف زنجبار، إنما لا تكنّ له أيّ استلطاف لشخصه أو لدارته.

بعد الصلاة، سـار مسـعودي مع الجمع في طريق العودة، إنما كان قد ترك مسـبحته فـي المسـجد عن قصد. وعندما سـألوا عن منزلـه وعدهم أن يدلّهم عليه ثـم ادّعى انّه تذكر مسبحته التي أضاعها في المسجد، فانطلق عائداً أدراجه إلى المسجد، ونجح في أن يختفي في الحشد، وعاد إلى المنزل من طريق آخر.

لـم أكن لأعلّـق أهمية كبرى على ما حصـل، فلم أظن أن أيّهم سـيذكرني إن التقينا مصادفة في المسـجد أو في السـوق. إنما عليّ أن أكون حريصاً في المستقبل، بالطبع، فـي ألا أتواجد مع مسـعودي فـي أي مكان، وعليـه أن يتجنّب إحضارهـم إلى المنزل تحـت أي ظـرف. كنت أدرك الخطـر المتربّص، ومن الجليّ أن السـفر معهم في نفس القافلـة إلى مكّـة غير مُجدٍ. أما عبد الواحد فقد كان أكثـر رصانة في التفكير، إذ أعرب عن رأيه أنّ حياتنا أضحت لا تساوي شيئاً، وكان رافضاً لفكرة مرافقة مسعودي لنا منذ البدء.

لحسن حظنا، نودي في المساء أن القافلة إلى ينبُع ستتحرك في خلال يومين، وكان هذا خلاصنا من المأزق ولا بد أن نتحيّن الفرصة.

أمضينا اليوم التالي نتحضّر للرحيل. دبّر عبد الواحد جمالاً ثلاثة أحدها للركوب وباقيها لحمل الأمتعة. وابتعنا زادنا المكوّن من الأرز، والتمر والخبز الجاف. واتخذنا العجمي جعفر[1] Jaffa طاهياً لنا وقريبه إبراهيم العجمي خادماً. وقبضت مالي نقداً، مئة جنيه إسترليني، فدفعت ما عليّ وسدّدتُ الإيجار وابتعت بندقية وخمسين مشطاً من الذخيرة. انتهت التحضيرات بعد الظهر فأرسلنا إلى حمّالين لينقلوا متاعنا إلى حيث تتجمع القافلة. عندما دخل مَن في المقدمة من الحمّالين إلى غرفتنا، أطلق صرخة وهرع مهرولاً في الشارع. استغربنا تصرفه فأسرعنا إلى النافذة نادي عليه ونسأل عن السبب فقال إنّه لم يرافقنا ليحمل جثة هامدة إلى مثواها الأخير. نظرنا إلى بعضنا البعض في تعجّب مطلق، وعندما درسنا الغرفة توضّح الأمر. كانت الخيمة المطويّة والموضوعة فوق الصناديق تحاكي منظر جثة مكفّنة. شرحنا الأمر لبقية الحمّالين الذين وصلوا حينذاك فضحكوا لهذه النكتة ولا أشك أنّ الهارب اضطر أن يرزح تحت وطأة الاستهزاء من خوفه لمدة طويلة.

نقلنا أمتعتنا في عربة إلى حيث اجتمعت القافلة. وأمضينا ليلتنا هناك. وقبل الرحيل، تولّى مسعودي مسؤولية ملاحظة الأمتعة في حين أنّي توجهت مع عبد الواحد إلى الحرم الشريف لزيارة وداعية. وهي عبارة عن تكرار للأدعية إنما يضاف فيها أدعية خاصة أكّد لي انها مستجابة. رافقنا حمزة لقضاء هذا المنسك وعند انتهائنا نقدناه خمسة دولارات سُرّ بها. واتبعنا بالتمنيات ودعا لنا برحلة آمنة وأعرب عن أمله بإقامتنا عنده في زيارة أخرى. وعند توجّهنا للمخرج لآخر مرّة لم أستطع أن أمنع نفسي من التفكير أنّنا على الأقل سنخرج من المدينة المنورة بسلام. وكما هي العادة في تهنئة النفس، كان شعوري سابقاً لأوانه.

---

(1) كذا يرد الاسم بالحروف اللاتينية في أصل الكتاب: Jaffa، وأظنه محرّفاً عن جعفر فأثبتّه كذلك.

بالرغـم مـن حلول الظـلام كانت بعـض الحوانيت لا زالـت تعمل. كنّا نسـير نحو معسكرنا حين خطر لي أن أبتاع بعض الحلوى، فطلبت من عبد الواحد أن ينتظر قليلاً وتوجهـت إلـى حانوت ظننت أنه يبيع مـا أطلب. وقف أمام الحانـوت دليلان وعندما مـررت مـن أمامهمـا، قال أحدهمـا «انظر، إنه هـو». من الواضـح أنهما كانـا يتحدّثان عني. كانا يتهامسـان طوال وجودي في الحانوت وعندما إستدرت للخروج اقتربا مني وسـألني أحدهما «من أين أنت؟ نعرف أنك لسـت بغدادياً. ولم كل هذا الغموض عن بلـدك؟». فأجبتهما «ما دخلكما بهذا الموضوع؟». فكان ردّهما أن قالا: «الكثير، لكلّ منـا حـقّ في بلـد معيّن، ونريـد أن نعرف مـن أي بلد أنـت». فقلت لهما أني لن اشـبع فضولهمـا في المعرفة وسـرت بعيداً. لحقا بي وأمسـكني أحدهما مـن ذراعي فأبعدته وأغلظت له القول وشتمته، فردّ باتهام أجدادي بالكفر والعصيان. ومع أن الجزء الأول من اتّهامه كان صحيحاً، فقد بدأت أشـعر بالغضب، وبدا لي أنّ اسـتعمال الأسـلحة لا بد منه، فشهر كلّ منا سلاحه. عندما رأى من حولنا ما كان معي من سلاح وهو من نوع كولت أسـرعوا بالتدخل وكأنهم يعلمون من سـابق خبـرة الأذى البالغ الذي يمكن أن يسببه سلاح كهذا. حينئذ، وبرعاية إلهية خاصة، وصل صاحب المنزل إيمان مصحوباً بصديقين له وتدخلوا في الوقت المناسب. تجمهر الناس حولنا بسرعة، ولحسن الحظ ضاع السـبب الأساسي للجدال في المعمعة. في نهاية المطاف، حصلنا على محاضرة في مسـاوئ الشـجار في الشوارع، وذكّرنا بحسـن حظنا حيث لم يصدف أن مرّ أيّ من الحرس في تلك اللحظة وإلا فكنا سنواجه متاعب أكثر حينها.

وحيـث أنّنا كنّا قد هدأنـا قليلاً، فلم يكن أحدنا نادماً علـى التخلّي عن ترضية. كان خصومي على علم تام أنهم مخطئون، وعلى كل حال فإنّ ضربهم أو سجنهم لم يكونا ليعوّضـا فكرة أنّي سـأواجه نفس المصير، بغض النظر عـن فرصتي في إعطائهم بعض الفجوات في أجسـادهم من الرصاص المنطلق من مسدس كولت الذي أحمله. ولذا، فقد تراجعنا وكنا لا زلنا نزمجر من الغضب.

فـي طريقنا إلى وسـط المدينة، سـأل ايمان عن سـبب الشـجار فأخبرتـه، وظهرت

مراسم حيرة على وجهه. لا بدّ وانه قد بدأ يشكّ بحقيقة الأمر.

عندما وصلنا إلى حيث تركنا أمتعتنا، ودّعنا إيمان وابنه إبراهيم. كنت قد أعطيت مسعودى ساعة فضية ليقدّمها هدية لإبراهيم والذي أبدى سعادة لحصوله عليها. أعتقد أنّهم كانوا يأسفون لمغادرتنا، وقد قال إيمان بكلّ لطف أنه يتمنى أن يكون محظوظاً بمن سينزل بعدنا في منزله تماماً كما كان الحال معنا.

عند عودتنا، أُحلّ مسعودي من التزامات الحراسة، فأسرع إلى الحرم الشريف ليقدّم احتراماته ويرفع أدعية الوداع. وبعد عودته، تناولنا وجبة بسيطة وأخلدنا للنوم على قدر الاستطاعة.

* * *

أصبحت الساحة الآن تضجّ بأمتعة المسافرين، والجمال، والخيم، وكلّ ما تحتاجه قافلة مسافرة. لم يكن هناك متّسع لأحد ليتحرّك في الساحة، وكنت مشغول الفكر بكيفية تحرّك القافلة مع هذه الفوضى في الصباح، فلن يكون بالإمكان ترتيب هذا كله قبل موعد الرحيل.

أمضينا ليلة باردة وغير مريحة، ووقعت الخيمة التي كنت أنام فيها حوالي الساعة الواحدة بعد منتصف الليل. هذه الخيمة هي نوع من الهودج الذي يوضع على ظهر الجمل مؤلفة من صحنين مركّبين في إطار خشبي يعلوهما سقف من القماش الكتّاني أو الخيش الخشن، يجلس المسافران أو يضطجعان فيها متقابلين يتوسّطهما ما يحملان من أمتعة. أما حركة الجمل المتثاقل في المشي في المروج الوعرة، فلا تشبه إلا حركة قارب صغير محمّل بالطوربيدات في عاصفة نوّ. لا بدّ وأن يكون المسافران بنفس الوزن تقريباً وأن يدخلا قتب الهودج أو يترجّلا منه في نفس الوقت وإلا فإنه سرعان ما ينقلب. أما إذا تعثّر الجمل في مشيه، أو نخّ أو ركع دون سابق إنذار، فإنّ على المسافرين أن يغادرا الهودج من فوق الأقواس برفقة أمتعتهما الواحد تلو الآخر. أما في حين سفر عسكريّ تركيّ بدين في هذه المركبة مصطحباً مع عائلته المكوّنة من

زوجة وثلاثة أولاد في ملابس الإحرام، فإنّ مراقبة خروجهم تكون ممتعة إلى حدّ ما.

وثمّة نوع آخر من مستلزمات السفر على الجمال هو مجمع نفايات معلّق على عمود مثل الكرسيّ ما بين جملين، وشيء مثل صينية الشاي مربوطة بحبال على ظهر الجمل. يستعمل المجمع من قبل السيّدات المسافرات وقد قيل إنه مريح في الاستعمال، أما الثاني، فيستعمل من قبل الذين لا يتحمّلون تكاليف أقتاب الجمال. ويسافر العديد جلوساً على أمتعتهم، وقد ثبت أن هذه أفضل طريقة للسفر. والقليل يمتلكون جمالاً خاصة للسفر وسروجاً، إنما لا تسير هذه الجمال بالسرعة المرغوبة لسير قافلة.

تُرتّب الأمتعة بطريقة تضمن التوازن على ظهر الجمل، وتثبّت الصناديق مع بعضها عن طريق لفّها بخيش خشن ثم ربطها بالحبال، فلا تستطيع الوصول إلى شيء فيها إلا بعد انتهاء الرّحلة.

استفقنا في الفجر على صوت تمرين المدفعية الذي تعوّدنا عليه وبالكاد لاحظناه. بالطبع وفي البدء، سيطر الارتباك على الجميع، إنما وفي وقت قليل جداً وتحت كل الظروف، انتهى تحميل الجمال وكان بإمكاننا التحرّك. تركنا المدينة من بوّابتها الشمالية، وتجمعنا خارجاً ننتظر انتظام القافلة للمسير.

* * *

يمتلك العرب البدو جمال القوافل، فهم يؤجّرونها ويقودون القوافل ليكسبوا قوتهم. ولديهم منظمة فيما بينهم تشرف عليها الحكومة، ويدفعون رسوماً سنوية ثابتة متّفق عليها، ولا تتغير إلا تحت ظروف خاصّة. في كل مدينة يتولّى شيوخها مسؤولية عدد معيّن من الجمال والرجال أمام السلطات المحلية، ويصدرون بطاقات للحجّاج، يُقطع طرفها ويُحفظ وتكون ضماناً لوصول آمن. وتُقدّم أيّة شكاوى أو احتجاجات على تصرفات مسيئة أو جمال غير صالحة بنفس الطريقة. يثنى على الحكومة التركية في هذه الإجراءات حيث قد قللت الكثير من التعسّفات. إنما في هذه السنة، لم يكن التأثير قوياً بالنظر إلى الفوضى الحاصلة من جرّاء القتال الدائر.

إن القوافـل الكبيرة في السـنوات الاعتياديـة، وخصوصاً التـي تتضمّن محمل مكّة المكرّمة، جيّدة التنظيم حيث يرافق القوافل فرقة مسـلّحة بالبنادق، وفرقة من الكشّـافة في النهار وحُرّاس في الليل. ينظّم سـوق لبيع وشـراء المواد الغذائية والحطب في كلّ مساء في وسط المخيم وذلك مقابل تعرفة متّفق عليها. ويقوم قاضٍ بمحاكمة وعقاب المجرمين بشـكل فوريّ ويفصل في الخلافات، فيجد أي حاج منْ يسـتمع له في حال وجود أي شـكوى من المسـؤولين عن الجمال. وتتوقّف القافلـة عندما تحين الصلاة ويعلو الأذان. تسـير الأمور بنظام كأنه نظام عسـكريّ. إنما هـذه القوافل عالية التكلفة للمواطنيـن متوسّـطي الدخـل، فلا يسـتعملها إلا الطبقة الغنية من الحجّـاج، حيث أنّ التكلفة قد تصل إلى عشرين أو حتى ثلاثين جنيهاً للمسافر الواحد.

اتّصفـت قافلتنا بمواصفات مختلفة، حيث كان المسـافرون تقريباً كلّهم من الطبقة الفقيرة لأن قليلاً ما توجّه غيرهم إلى المدينة هذه السنة، ومن فعل فقد خرج من المدينة المنوّرة عن طريق دمشـق حتى لا يواجه مصاعب الرّحلة إلى ينبُع. إنّ الطريق إلى ينبُع مـن أكثر الطرق مشـقّة، فهـي أكثرها خطراً وأصعبهـا طريقاً. إنما تتميـز برخص الثمن ويسـقط فـرض الإحـرام الواجب على من يغـادر المدينـة المنوّرة إلى مكّـة المكرّمة. ولـم تكـن هناك أيّة مرافقة أو تواجد لرجال الشـرطة حولنا ولـم يقم السـوق في وسـط مخيمنـا، فـكان على كل مسـافر أن يحمل معه زاده وماءه الخـاص. وصل تعدادنا إلى خمسة آلاف جمل تحت مسؤولية شيخ من البدو يساعده عشرون من قومه تحت إمرته يركبون جمالاً سـريعة وهم مسـلّحون بالبنادق والسـيوف وبنسـبة واحد إلى كلّ ثلاثة جمال. إنما معظم الحجّاج يحمل سلاحاً.

عند الساعة الثالثة دخلنا في الجبال ولم نعد نرى المدينة المنوّرة، وفي خلال ساعة أخرى من الزمن رأينا لآخر مرّة قبّة ومآذن الحرم الشـريف من خلال الفجوات ما بين الهضاب.

* * *

الفصل الخامس

من المدينة المنوّرة إلى ينبُع

وصلنا إلى ينبُع الساعة العاشرة تقريباً، بعد أن تمّ تفتيشنا من قبل عسكريّ تركيّ وقّع إمضاءه على تذاكر سفرنا. وقد رافقنا والد إبراهيم الذي سلك هذا الطريق عدّة مرات من قبل إلى البوّابة وقدّم لنا نصيحة مهمّة، لقد طلب منا أن نكون جدّ حذرين بالتعامل مع الجمّالين وألا نستسلم لمراوغاتهم في زيادة أجرة الرّحلة، وألا نتبعد عن القافلة تحت أيّ ظرف، بالإضافة إلى تجنّب التواجد في مؤخّرتها خلال الليل. وأوصانا أن نضع كلّ أمتعتنا داخل الخيمة وأن ننام بعين مفتوحة وسلاح جاهز.

وجدنا أنفسنا تقريباً في مقدّمة القافلة، فلم يكن في البدء أكثر من اثني عشرة جملاً أمامنا. أما خلفنا، فقد امتدّت القافلة أميالاً عدّة. لم يغادر آخرها المدينة إلا بعد ساعة كاملة من مغادرتنا. جلس مسعودي وعبد الواحد في الخيمة على ظهر الجمل أما أنا فقد ركبت أفضل الجمال المعدّة لحمل المتاع، وأكثرها راحة. أما إبراهيم وجعفر فقد تناوبا على ركوب الجمل الآخر. كان جمّالنا، واسمه سعد، بدوياً قصيراً نحيلاً لوّحته الشمس والهواء. تنمّ ملامحه على سلالة ساميّة لم تختلط بسلالات إفريقيا. أما زيّه فيشبه زيّ رعاة الماعز. وليفوز بنا أغدق علينا وعوداً وآمالاً بما سيقدّمه لنا خلال الرّحلة بكلّ تهذيب، إنما سرعان ما اختفى هذا السلوك عندما خرجنا من المدينة.

أجبرت آخر قافلة خرجت من المدينة أن تحوّل سيرها لتتجنّب مجموعة من قطّاع الطرق الذين احتشدوا لها لسرقتها. لا بدّ أنّ هذا كان متعباً جداً للحجّاج المساكين الذي اضطروا للمسير حوالي ثمانية ساعات بلا توقّف في طريق وعرة. إذ أنّ الطريق

المعتـادة صعبة للغايـة فما بالك بطريق موغلة في قلب الصحراء؟ لم يكن بوسـعنا إلا التمنّـي أن هكـذا ضرورة لن تقع لنا، لكن أُعلمنا أنهـا واردة. انعطفنا نحو الغرب على بعـد ثلاثـة أميال من المدينـة المنوّرة، فقطعنا سـكّة الحديد وابتدأنا بتسـلّق الهضاب. مررنـا بين خطوط العدو دون أيّ إعتداء حيث لم تُطلق رصاصة واحدة نحونا، بالرغم مـن أنّ المدفعيـة من الحصـون الواقعة علـى بعد نصف ميـل إلى يسـارنا كانت تطلق بعنف. عند الساعة الثالثة بدأنا بتسلّق الجبال ولم نعد نرى المدينة المنوّرة، وفي خلال سـاعة أخرى من الزمن رأينا لآخر مرة قبة ومآذن الحرم الشـريف من بين الشـقوق في الهضاب.

واصلنـا طريقنـا ببطء ودأبت الطريق تسـوء مع كلّ خطوة أخذناهـا. كنّا نترجّل من وقـت إلى آخر لنسـير على الأقـدام ونرتاح من الحركـة الرتيبة للجمـال. عندما توقفنا خمس دقائق لصلاة المغرب كنّا قد تسلّقنا ألف قدم كاملة في الجبال، وازدادت برودة الطقس كلّما أوغل الليل فاقشـعرّت أبداننا من الريح القارسـة. ثم وصلنا إلى مكان لم تعـد تظهر فيه الطريق بوضوح، فكأنه حوض تجمّع للسـيول، ولحسـن حظنا أسـعفنا ضوء القمر وإلا لواجهنا العديد من الحوادث.

أمـا الحجّـاج الذين كانوا هادئيـن طوال النهار فقـد حاولوا رفـع معنوياتهم بالغناء والصـراخ وإطلاق الرصاص. عندما بدأت هـذه الضجّة اعتقدت أنّنا في خطر ما، إنما يظهـر أنّها طريقة معتمدة في تمضية الوقت، وطوال الطريق إلى ينبُع، كانت النار تطلق في الهواء ابتداء من مقدمة القافلة إلى آخرها. يقول البعض إنّ السبب في هذا هو بعث رسالة إلى البدو أنّ القافلة مسلّحة، إنما أعتقد أنا أنّ إطلاق الرصاص بهذه الطريقة كأنه استدراج لمعركة. أصبح الجميع متعباً وجائعاً حوالي السـاعة الحادية عشـرة، فهدأوا قليلاً، وما إن انتصف الليل حتى ضاق صدري ولم أكن أرى نهاية لهذا التعب. لقد مرّ علينا أربع عشـرة ساعة متواصلة من السـفر ولم نتناول أياً من الزاد إلا بضع حبّات من التمر ابتلعناها ونحن على ظهر الجمل، وهو أمر ليس بالسـهل ومن المؤكد أنه يسـبّب عسر هضم عنيف.

عقب نصف ساعة بعد منتصف الليل تقدّم الشيخ المسؤول أمام القافلة ليختار مكاناً للتخييم، وكم سررنا لسماع هذا الخبر، وما هي إلا دقائق معدودة حتى توقّفت الجمال في المقدّمة وحططنا الرحال في وادٍ فسيح بين الجبال الشاهقة. تكوّن المخيم بأبسط الطرق حين ناخت جمال المقدمة وكوّنت نواة للمخيم تحلّق حولها الباقون حين وصولهم مؤلفين معسكراً دائريّ الشكل في أقلّ مساحة ممكنة.

كانت الفوضى عارمة وأصبح المشهد مفعماً بالحياة، وتحوّل سكون المسيرة في الساعة السابقة الذي لم يكسر إلا بأصوات عويل أو صراخ الجمّالين من وقت لآخر إلى صخب حقيقيّ بأصوات الجمال عندما أُمرت أن تنوخ وأوامر أصدرت بمختلف اللغات وصراخ متداخل، واعتراضات وضحك. اندلعت نيران المخيّم في كلّ مكان كالسحر مضفية حياة على المشهد. وانهمك الجميع بإعداد الطعام الذي كان ملحّاً جداً. أما أنا فقد كنت متجمداً من البرد ولم أستطع الوقوف بسهولة بادئ ذي بدء. ولحسن حظّنا جلبنا معنا كمية كافية من الحطب، وسرعان ما كانت النار تشتعل أمامنا. لقد أثبت مسعودي والخادمان أنّهم ماهرون في العمل ونصب الخيم، بينما حضّر عبد الواحد مستلزمات الشاي، أما الجمّال سعد ومن رافقه من المصريين فقد جمعوا جمالهم في دائرة وجلسوا في وسطها ظهراً إلى ظهر يطعمون الجمال تبناً مرصوصاً كالحبال، وقد حصل كل جمل على نصيبه من التبن بالتساوي وظهر عليها الاستياء من هذا الأمر.

أدهشني تحمّل الجمّالين البدو للبرد القارس، فلم يقترب أيّ منهم من النار مع أنّ ملابسهم كانت من القطن الرقيق، بل جلسوا داخل دائرة الجمال يتحدثون ويضحكون ولم يبدُ عليهم التعب ولا الجوع ولا العطش ولا البرد بعد مسيرهم أربعة عشرة ساعة متواصلة في برد قارس ودون طعام. لا غرو أنّهم يصلحون لهذا النوع من العمل فمن الأكيد أن لا جندي متحضراً يستطيع تحمّل هذه الظروف لفترة طويلة.

بينما كنت أدفئ نفسي تعثّر بي رجل مارّ وكاد يرميني في النار فأحترق. استدرت لألقي نظرة عليه فتفاجأت به مغمساً بالدم من رأسه إلى أخمص قدميه من ضربة

سيف في رأسه. استسقاني فتوجهت إلى داخل الخيمة لأحضر له الماء لكن عندما خرجت كان قد اختفى. سمعنا في اليوم التالي أنه لا أقل من ستة رجال قتلوا خلال الليل وجرح الكثير. واستمرّ الحال هكذا إلى أن وصلنا ينبُع. كانت هذه الإصابات بين الرجال الذين لم يقدروا على دفع تكاليف رحلة على الجمال فاضطروا إلى السفر سيراً على الأقدام مع القافلة. وعندما ابتعدوا عن القافلة بحثاً عن حطب للنار هوجموا من قبل اللصوص الذين يلحقون بأطراف القافلة يغتنمون أي فرصة ليغنموا ممن يبتعد ويقتلون من يقاوم.

كنا نحتسي الشاي في خيمتنا في خلال ربع ساعة من وصولنا، أسرّتنا حاضرة وتغلغل الدفء والراحة تغلغلاً إلى أجسادنا. حضّر لنا جعفر الطاهي وجبة من الأرزّ واللحم وكانت جاهزة في خلال ساعة أخرى، قلّما استمتعتُ بوجبة مثل هذه. ولم نكن لنضيّع أي وقت في الإخلاد إلى النوم حيث أنّنا عرفنا أنّنا سنعاود المسير عند الفجر، وكانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل عند انتهائنا من الطعام.

وما إن خلدنا إلى النوم حتى سمعنا جلبة الجميع ينسحبون إلى داخل خيمهم معلنة وقت الخلود إلى الراحة. كان الظلام دامساً، والريح الباردة تهبّ بقوة. أما القمر فقد غرب وتلألأت النجوم كما لم أرها من قبل. بينما كنّا نوضّب أغراضنا من قبل، تشاجرنا مع سعد الجمال حيث أساء القول بغلظة لعبد الواحد لأننا لم نكن سريعين كما كان يرغب. لم يردّ عبد الواحد عليه حينذاك إنما بعد بدء الرّحلة احتجّ أمامه بنفس الحدة. استمرّ جدالهما ساعات طويلة إلى أن قبل سعد بالمصالحة. تسلقت إلى الهودج على ظهر الجمل مع مسعودي بينما أخذ عبد الواحد دوره على الجمل الآخر وأكملنا نفس الطريق الوعرة صعوداً، وحوالي الساعة العاشرة عمّ الدفء علينا إنما أصبح الطقس حاراً عند الظهيرة. عندما بدأنا في الصباح الباكر كنّا ملتحفين جيّداً ضد البرد لدرجة أن الصعود إلى الخيمة كان عملاً شاقاً، إنما وجدنا تخفيف الملابس إلى مجرد قميص عملاً جيّداً. إحدى سلبيات هذا النوع من السفر أنّه إذا اضطر أحدهم إلى النزول لأيّ سبب كان فمن المستحيل إيقاف الجمال لمعاودة الصعود إلى ظهره، وعلى الراكب أن يصعد والموكب

فـي حركة. إنّ الصعود إلى تلك الخيمة ليس بالأمر السـهل فـي أي وقت، لكن حين يكون الجمـل فـي حركة، يحتاج الصعود عليه إلى لياقة بدنية عالية وهي ممّا لا أملك. إنّ الطريقة الوحيـدة هـي إجبـار الجمل على إناخـة رقبته لتكون مسـند قدم للقفز على ظهـره. وإن لـم يكـن الراكب الآخر ذكياً في الحفاظ علـى موقعه في الهودج فإنّ المصيبة حتمية لا محالة. وعندما يصبح داخل الهودج عليه أن يجثم على ظهر الجمل ولا يميل إلى أيّ جانب تحت أيّ من الظروف، وإلا فان الهودج المبارك سيهوي بأكمله.

* * *

في فترة بعد الظهيرة اسـتعاد سـعد مزاجـه الجيّد، وأتحفنا بوصف حيـاة الجمّالين. لقد سـار هذه الطريق جيئة وذهاباً منذ نعومة أظفاره ولم يتسـنّ له أن يفعل أيّ شـيء آخر. لقد كان أمّياً وبدا عليه أنّه لا يعرف حتى أصول دينه. لم أر أياً من هؤلاء البدو يصلّون ولا أعتقد أنّهـم يعرفـون كيفيتها. ولدى سـعد نظرة متميّزة إلـى العالم الخارجي، وكم كانت دهشـته عظيمة عندما عرف أنّ هناك مدناً أكبر من المدينة المنوّرة حول العالم. لقد كان مهتماً جدّاً بتوصيف عبد الواحد لمدينتي برلين وباريس، مع أنّي لاحظت أنّه قد آمن منذ بدء الحديث أنّ عبـد الواحـد كاذب من الدرجة الأولى. يظهر أنّه كان يؤمن أنّ معظم الأوروبيين هم من آكلـي لحوم البشـر. أما لغتـه العربية فكانت صحيحة وكلاسـيكية تماهي لغـة القرآن، وقد حاولنا، عبد الواحد وأنا أن نقلد لفظه للحروف العربية المميّزة بلا جدوى.

استمرّت رحلتنا إلى الساعة التاسعة مساء، حين حططنا الرحال في مخيّم جديد كما الليلة السابقة. أطلقت على القافلة عدّة طلقات نارية خلال المسيرة وعند التخييم إنما لم تكن مباشـرة. كما قتل المزيد من الشـاردين عن القافلة وحصلت بعض السـرقات داخل المخيّم إنما لـم يُعر لها أهمية لأنها حوادث طريق اعتيادية.

* * *

فـي اليوم التالي اسـتمرّت مسـيرتنا من الفجر إلى المغرب مجتازين سـهلاً واسـعاً بيـن سلسـلة جبـال تتراوح من الشـاهقة إلى شـديدة الانحدار. إنّ طبيعـة هذه الأرض

موحشــة مقفـرة فلا ترى أثراً للنبات وتتّخذ الصخور أشـكالاً غريبـة رائعة، ولا عجب في هذا، فالاختلاف في الطقس من الشـديد الحرارة إلى الشديد البرودة يسبّب شقوقاً في الصخور في جميع الجهات. رأيت إلى جهة الجنوب قمّة شـاهقة تستدرج الثلوج. لقد اختفت القمة بين الغيوم يحرسـها جُرف شاهق بعلو ألفي قدم على الأقلّ، ويحيط بها أرض واسعة مقابلة لنا وتؤلف حاجزاً عالياً من الداخل.

تعتبر هذه الأرض موضوعاً قابلاً للمستكشـفين، إنّ أرض جزيرة العرب لها طبيعة مجهولـة المعالم حتى في المعنـى الجيولوجي للكلمة، فلا يُعـرف الكثير عن ثرواتها الحيوانية والنباتية أو خصائصها الفيزيائية. لقد مرّ بجزئها الشمالي الرحالون الغربيون فـي أوقات مختلفة وتكوّنـت فكرة معقولة عنها من خلال رواياتهم، وبالإمكان رسـم خرائـط تقريبية لهـا. إنما يتطلب العلـم الحديث أكثر من هذا من المستكشـف، حيث عليـه أن يحمـل كميّـة معيّنـة مـن الأدوات الضرورية والتي لا يسـتطيع نقلهـا من كان مسافراً على عجل وتحت التنكر من مكان إلى آخر. لقد عاش تشارلز داوتي[1] Charles Doughty بيـن البدو في هذا القسـم من جزيرة العرب مـا بين 1875 و 1877 وتجوّل في مسـاحات كبيرة منها معهم. لقد كان قـادراً على ذلك لأنه لم يكن يحمل معه ما يمكن سـرقته، إنمـا كانت النتيجة أنّ رحلته المشـوقة تلـك لم تنتج تدويناً دقيقـاً للمعلومات التـي يحتاجهـا العلم الحقيقي. ولا يُقصد بهذه الملاحظـة تحقير أحد أهم الإنجازات في تاريخ الرحلات، إنما للإشـارة إلى الصعوبات التي تواجه من يودّ الاستكشاف في جزيـرة العرب. فإذا تـرك أدواته وراءه فقد يرجع بخفيّ حنيـن، وإن أخذها معه فقد لا

---

(1) تشارلز مونتغيو داوتي Charles Monagu Doughty شيخ رحّالي الإنكليز وأعمقهم معرفة بحياة البدو وطبائعهم، قام برحلة مطولة دامت سنتين (1875-1877) إلى مدائن صالح (الحِجر) وتيماء وخيبر، وتجوّل ملياً في الحرّة الواقعة إلى جنوب صحراء النفود، ثم زار حائل في أيام أميرها محمد بن رَشيد. كان من أوائل من أشاروا إلى حجر تيماء الأثري، ورغم أنه لم ينسخ نصّه فقد كان تقريره عنه هو من جلب الرحالة الفرنسي شارل أوبير Charles Huber (هوبَر بالألمانية) إلى تيماء وحصل على الحجر وشحنه إلى متحف اللوڤر في پاريس. وقد دوّن داوتي أخبار رحلاته وخبراته بحياة البداوة في كتابه الكبير *Arabia Deserta* في قرابة 1400 صفحة.

يرجع أبداً، هذا إن استطاع الشروع في هكذا رحلة.

إنّ حقيقة أنّ الرحّالة داوتي لم يخرج عن دينه أو جنسيته خلال إقامته في جزيرة العرب قد أثارت زوبعة. وقد يكون هذا الأمر أقلّ ما حققه. لا يكترث البدو لهذه الأمور وهو لم يحاول الدخول إلى المدن المحرّمة عليه. وبالطبع إن كان الغريب مسيحياً فهذا دائماً سبب وجيه لتوجيه ضربة إلى رأسه، وإن لم يفعلوا فهناك دائماً مسيحيّ آخر، ولو لم يفعلوا فلن يؤثر ذلك عليهم. أعتقد أنّ عليّ أن أذكّر قرّائي الكرام أنّ الكلام السابق ينطبق على العرب الأصليين في الصحراء العربية، ولا ينطبق على بقية مناطق الشرق الإسلامي.

خلال النهار كان سعد قد أعلمنا أنّه من العادة المتّبعة إعطاء بقشيش يوميّ بمقدار دولار واحد على مدى الرّحلة، وطالب بباقي المبلغ المتبقّي في ذمتنا له. كنت على وشك أن أكيل له الجواب على طلبه الوقح هذا إنما كبح جماحي عبد الواحد اللبق حيث أعلمه إنّنا لا نملك المال نقداً ولن نستطيع أن ندفع له إلا عند وصولنا إلى ينبُع حيث نصرف حوالتنا. اعترض سعد بشتى الأشكال، وادّعى أنّه لا يحبّ الطعام الذي قدمناه له، ثمّ هدّد أن ينسحب وجماله ويتركنا في المحطة التالية. لقد أصبح صلفاً إلى درجة أنّي قرّرت إطلاق النار عليه. وعندما علم بنيّتي هذه اقترح أن نتنازل بالسيوف عندما نخيّم. سمع الحجّاج من حولنا جدالنا فتمنّوا علينا أن لا نلجأ للعنف وقالوا في حال قتل هذا الرجل فإنّ قبيلته ستتجمّع وتطالب بديّته وقد يهاجمون القافلة. على كلّ، لم أكن لأقبل بالوضع الراهن وكنت قد عزمت النية على أنّ شجاراً حاصل لا محالة إن استمر الوضع على ما هو عليه. انما لدهشتي العظيمة، انقلب سعد إلى رجل مهذب والتزم بهذا السلوك إلى أن انتهت الرّحلة. عندما وصلنا إلى المخيّم تلك الليلة ساعدني بالترجّل وأمور عدة أخرى، ولم أفهم كنه التغيير. كان التفسير بسيطاً للغاية، فقد أعلمه إبراهيم، الذي كان دائماً رائق المزاج ومستعدّاً للكذب، أنّي ابن أخي حاكم ينبُع. وقد عملت الكذبة عملها وممّا أضفى عليها المزيد من الرونق الطريقة التي يعاملني بها الآخرون.

لم يكن الجميع محظوظاً بالتعامل مع هؤلاء العُتاة كما كنت أنا. فبعدّة طرق، نجح الجمّالون في إرهابهم وسرقتهم إلى أن جَبوا ما اتفقوا عليه أضعافاً مضاعفة. ومع ذلك ما كانوا ليرعووا، وما فتئوا يهددون بسحب جمالهم وترك الحجّاج في وسط الطريق ما لم يُدفع البقشيش الذي يطالبون به. إنّ هذا التهديد، إن نُفّذ، يعني أنّ المسافرين سيفقدون كل ما يملكون ويسيرون على الأقدام بقيّة الطريق. والتخلف عن القافلة في مكان المخيّم يعني كارثة محقّقة. لقد شُجّعت مجموعة المصريين السابقي الذكر على دفع ما يتوجب عليهم منذ بدء الرّحلة، إنما أُزعجوا باستمرار لدفع البقشيش وضُيّق عليهم بعدّة طرق حتى استسلموا للابتزاز. وحين وصلتهم إشاعات ما حصل معي، قدموا إليّ يشتكون أمرهم. فبعثت بطلب الجمّالين المشاكسين وحاضرت لهم، مهدداً بنفس الوقت لتقديم تقرير «لعمّي». كنت أحبّذ أن أصدر أوامر بقطع رؤوسهم في تينك اللحظة، إنما سيكون هذا تفريطاً في التمثيل.

إن كان مسلك الجمّالين سيّئاً مع الحجّاج العرب فإنّ مسلكهم أسوأ مع غير العرب خصوصاً من لا يفقهون العربية، فقد عانى الهنود خصوصاً الأمرّين وهم لا يمتلكون الجرأة الكافية للدفاع عن أنفسهم. وبالطبع، يحصل أحيانا أنّهم يكشفون أمر أحد هؤلاء الطغاة، ودائماً ما تجد بدوياً يتصف بغطرسة بالغة. إنما يدرك الحجّاج تماماً النتائج المعتادة لهذه المواقف، وعادة ما يستكين أكثرهم صلافة. في إحدى المرّات شهدتُ رشق هنديّ طاعن في السن بالحجارة رفض أن يدفع الدولار المطلوب منه بإصرار إلى أن وقع من على جمله. اضطررنا أن نتدخّل عدّة مرّات لنجدة الضعيف والعاجز من سوء المعاملة تلك أو حتى أسوا منها.

إنّ هذه الحوادث بالطبع لا تتوافر في القوافل جيّدة التنظيم، إنما تجدها على هذه الطريق فقط والتي ترتادها الطبقة الفقيرة من الحجّاج. وأعتقد أنها كانت الأسوأ هذه السنة، فعادة ما تكون إجراءات التذاكر والتسجيل المتّخذة من قبل الحكومة كافية لضمان السلامة من أي انتهاكات فادحة.

* * *

مررنا وسـط قرية للبدو تتضمّن أكواخاً من الطين وبعض أشـجار البلح، وقد كانت أول مظاهر الاستيطان مذ تركنا المدينة المنوّرة. يتواجد في هذه القرية بئر إنما قيل لنا إنّه لا يكفي مستلزمات القافلة. ستحصل الجمال على حاجتها من الماء بعد توقفين اثنين. وكان يومنا الرابع مشابهاً للأيّام السابقة، إنما قطعنا فيه منقع الأمطار (الخَبرة) وننحدر الآن بقوّة نحو الساحل. كانت الطريق وعرة في بعض الأماكن وفاجأتنا الجمال برشاقة حركتهـا فـوق الصخور والجلاميـد. لم أر في الأفـق أيّة حوادث مع أنّنـا اجتزنا طريقاً لـم أكـن لأجد الشـجاعة على أن أقطعها على ظهـر جواد، ووصلنا إلـى موقع المخيّم باكـراً، نصف سـاعة قبل المغيب. وكانت الفرصة الأولى لـي لأتفقد المخيّم في ضوء النهـار، حيث كنت مندهشـاً للغاية لمّا علمـت أنّ مجموعتنا هي الوحيـدة التي تملك خيمـة أو علـى الأقلّ صرفت جهداً لجلـب إحداها. توجد بئر كبيرة فـي الموقع بعمق مئة قدم تعلوها رافعة (مَحالة) تفرغ الماء المسحوبة منها في أوان مقعّرة غريبة الشكل مبطّنة بصلصال مجفّف تحت الشمس تستعملها الجمال. لم أدر كم من الجمال روت عطشها هنا، إنما من الأكيد أنّها لم تفعل جميعها.

تقام السـوق هنا بنصب سـقيفات مؤقتة يبيع فيها بدو قساة المظهر اللحم والسمك المقدّد. من المفترض أن يكون هذا المكان خطراً جداً وقد حُذّرنا من التوغّل فيه كثيراً. كانـت أرض المخيّـم في حال قذرة إبّان اجتلائها في ضوء النهار. أما ما تبقى، فقد كان الحال مقبولاً، وبما أنّنا لن نغادر المكان إلا في الساعة العاشرة صباح اليوم التالي، فقد كنّا متشوقين لنيل قسط جيّد من الراحة.

* * *

كان علينا الآن أن نسير قُدماً إلى ينبُع دون توقّف متذرّعين بقلّة الماء. انطلقنا الساعة العاشـرة في الصباح ووصلنا السـاعة السادسـة صباح اليوم التالي. ركبت على الجمل الإضافـي إلـى أن غربت الشـمس، ومن ثم صعـدت إلى الهودج. تركنـا الهضاب إلى أرض مسـتوية قفراء واسعة تتصل بالبحر في السـاعة الرابعة بعد الظهر. وبانت أضواء السفن الراسية على طول الطريق إلى ينبُع بعيد منتصف الليل. وصلنا إلى الأسوار قبيل

الفجر، إنما طبقاً للقوانين المتّبعة لا تفتح البوابات إلا بعد شروق الشمس فكان علينا الانتظار خارجها. وكان هناك قافلة إلى المدينة المنورة تنتظر وقت الانطلاق مع أول ضوء النهار.

بما أنّنا كنّا محظوظين بوجودنا في مقدّمة القافلة، فقد كان بإمكاننا أن نتزاحم للدخول عندما فتحت البوابة. ولو كنّا في غير المقدّمة لتأخّرنا ساعات طويلة للدخول. دخلنا إلى شارع واسع وأُوقفنا في ساحة مفتوحة قرب قلب المدينة. لم يكن مؤكّداً إن كان بالإمكان الحصول على سفينة في ذلك اليوم، فقرّرنا أن نستأجر غرفة لنيل قسط من الراحة وبعض الطعام الذي كنّا بأمسّ الحاجة له. انطلقت وعبد الواحد لغايتنا بينما تخلّف الباقون لإنزال الأمتعة من على ظهر الجمال.

تحققنا من بعض الغرف المعروضة للإيجار وكانت قذرة بشكل لا يوصف، أما التي اخترناها فلم تكن أفضل حال بكثير، لكن كنّا جد متعبين وجائعين إلى درجة لم يكن إرضاؤنا صعباً، فقبلنا بدفع روبيّة يومياً للغرفة التي كانت في الطابق السفلي من منزل يقابل الساحة التي أنزلنا أمتعتنا فيها، وقد أُخليت للتوّ من سكّانها السابقين. غطّى أرض الغرفة قشر البرتقال ونفايات أخرى، والغبار يكسو المكان. وكمن في إحدى زواياها آثار نار الفحم. تسللت أشعة شمس الصباح إلى داخل الغرفة وأضاءت كآبة المكان بغير ما تجميل. وممّا لفت أنظارنا أنّ ذاك المنزل أثّر بنا جميعاً بنفس الطريقة حيث كان البناء ملوّثاً بوباء ما.. وقد يكون هذا صحيحاً. من الغريب أن لا تجد مكانا مناسباً للسكنى في هذا البلد، فأيّ امرئ ينشئ فندقاً هنا أو في جدّة لا شكّ أنّه سيثري.

تناولنا إفطاراً شهياً مكوّناً من البيض المسلوق وأقراص الخبز الساخنة لكنا قرّرنا أن لا نأخذ أي قسط من الراحة قبل أن نؤمّن سفرنا إلى مكّة المكرّمة، فتوجّهنا إلى الميناء حيث تتواجد معظم مكاتب الشحن والسفر. كان هناك حوالي ستّ من السفن من مختلف الجنسيات راسية في المرسى مقابل المدينة. اصطفّت المكاتب بجانب بعضها البعض ووقف مُنادٍ خارج كل باب يعدّد محاسن سفينته وثمن التذاكر وساعة الرحيل. ولم يكن هناك العديد من الاختيارات، فرسونا على أحدهم وان يطالب بأعلى

صوتـه دعماً من المؤمنين لسـفينته والتي هي تحت رعاية العلـم التركي، ممّا كان كذباً فاضحاً اكتشـفناه لاحقاً. كانت السـفينة يونانيـة قديمة الطراز بُعثت للعمل في موسـم الحجّ من قبل مجموعة من العجم. لم يكن هناك درجات مختلفة على السفينة وكانت التذاكـر بنفـس الثمن للجميع، ثمـن يتغيّر من لحظة إلى أخرى بحسـب المنافسـة في العـرض والطلب. عندمـا يكون هناك فرصة للحصول على عدد كبير من المسـافرين، يرتفع السـعر، وإن لم يتوفّر المسـافرون، ينخفض سـعر التذاكـر. كان الهدف الوحيد لأصحاب السفينة أن يحصلوا على حمولة كاملة بأيّ طريقة.

كنّا متشـوّقين للسـفر في ذاك اليوم ولذا فقبـل ابتياع تذاكرنا أخذنا وعـداً قاطعاً من الدلاّل أنّ السـفينة ستبحر قبل المغرب. وفي الحقيقة أصابنا وقت عصيب ودفعنا مالاً أكثر من المسافرين الذين قدموا بعدنا، دولارين للشخص الواحد. وقيل لنا إنّه لا يسمح لأحد بالصعود إلى السفينة إلا بعد الظهر، وكان هذا مناسباً لنا. عدنا إلى المنزل ونقدنا سـعداً ماله المتبقّي والمتّفق عليه وأضفنا إليه مبلغاً زهيداً من البقشـيش. وبالطبع، هنا في ينبُع كان تحت رحمتنا، ولـم أعرف أبداً إن اكتشف الخدعة الصغيرة التي مارسناها عليه، لكنّي لا أشـك أنّه لـم يقابل في حياته المزرية فريقاً مربحـاً مثلنا. على كل حال، اغتنم سعد الفرصة على أكمل وجه واعترف أنّه راضٍ بالنتيجة ثم غادر. وقبل أن أختم هذا الموضوع لا بدّ لي من ذكر أنّ الطريق التي سلكناها لم تكن الوحيدة إلى ينبُع، فقد كان هناك اثنتان أخريان على الأقل تستعملان في أوقات مختلفة من السنة، إنما لم أكن قادراً على الحصول على معلومات عن أيّ منهما.

حملنـا أمتعتنا إلى المرفأ وتركنا مسـعودي هناك لحراسـتها، وتوجّهنا إلى السـوق لنتزوّد للرحلة. إنّ ينبُع من أكثر المدن التي زرتها إهمالاً، فبيوتها منحرفة، وتقف مئذنة الجامـع الوحيـد فيها على زاوية تحاكـي برج پيزا المائل. وهي أيضـاً من أكثر الأماكن التي زرتها تشـعثاً، فتنتشر بأسواقها الهزيلة شتّى أنواع البضائع الرّديئة والروائح المنبعثة منها متنوعة ومزعجة. لكن لا يخلو الأمر من بعض الحوانيت الجيّدة التي تسدّ الرمق. يحمي المدينة سور يحيط بها من جهة مزارعها ومن الضروري وجود الفرقة العسكرية

الكبيـرة هنا. أما الماء، فهو المشـكلة الكبـرى، إذ أنه نادر ومالح جـداً، ويقال إنّه ضار جداً. وقد أنشئت محطة لتكرير المياه مؤخراً ممّا يحسّن الوضع قليلاً.

عندمـا انتهينا من التسـوّق، بحثنا عن مقهـى لنتاول بعض القهـوة وندخّن. وأفضل مـا وقعنا عليـه كان مقهى مثل باقي المدينة، إنما لم نكن لندقّق في الأمر، فجلسـنا إلى طاولة صغيرة على الرصيف، بعد أن اسـتأذنا من شـيخ بدوي كان يجلس هناك، وتلك عـادات اللياقـة في البلـد. طلبنا النرجيلة وبعـض القهوة، وفي تلـك اللحظة أُحضرت نرجيلة الشـيخ البدوي فأخذ منها نفسـاً وبدت على وجهه علامات الامتعاض، وتوجّه إلى النادل قائلا: «أيّها الجبان، إنّ هذا الماء ليس جديداً». فتعجّب النادل وقال: «ليس جديـداً؟ لقـد أُبدل الماء من يومين خليـا». كان هذا كثيراً على الشـيخ فتناول النرجيلة ورماهـا على النـادل، لكن لم يصبه فخرجت النرجيلة من الشـباك المفتوح وتحطمت أشلاء في الداخل. أما أنا فأسرعت بالغاء طلبي وقررت الاكتفاء بالسجائر.

وبالرغـم مـن كل ما حصل، قرّرنا أن ننظر إلى الحيـاة بعين المرح وهذا ما لم نفعله سابقاً. كان الطقس دافئاً ومنظر أشعة الشمس تتلألأ فوق المياه الزرقاء كان مشهداً أكثر بهجة من وهج الصحراء وعجاجها. كما أنّ من الممتع ارتداء ملابس نظيفة والشـعور بالراحة بعد إرهاق السـفر علـى ظهر الجمال. ولم نبال بالمشـقّات الصغيرة بالمقارنة مع المعاناة السـابقة. بالإضافة إلى أنّ النصف الأوّل من المغامرة قد مرّ بسـلام وأقمنا الدليل على أنّ رحلة من هذا النوع ممكنة.

جـاء تركيّان (أو قد يكونا أناضوليين) ضخمين وجلسـا إلى طاولتنا. كان مظهرهما مضحـكاً حيـث جمعا بيـن مظهر قطّاع الطـرق المسـرحي والملامـح اللطيفة لطبيب عائلـي. كانـا يرتديان بنطالين فضفاضين معقودين ما تحت خصريهما وكأنها سـيقعان فـي أيّ لحظـة. ويحمل كل واحـد في حزامه ما لا يقل عن ثلاثة مسدسـات متوسّـطة الحجـم، وبعـض السـيوف القصيـرة المعقوفـة وبعـض الخناجـر المنوّعة. لقـد كانا ماردين، فكلاهما أكثر من سـتّة أقدام في الطول (أكثر من 180 سـم)، بدينين وبلحيتين رماديّتي اللون وشاربين. تظاهرنا أنّنا مذعوران من مظهرهما المخيف وناشدناهما ألا

يتقاتـلا. لـم يفهما مزاحنا بـادئ ذي بدء، لكن عندما وُضّح لهمـا الأمر وكان ذلك بعد برهـة طويلة، انفجرا بالضحك الشـديد وطفقا يربتان على أكتافنا بقـوّة، ثم دعوانا إلى مشاركتهما في بعض الليموناضة.

تناولنا طعام الغداء سـمكاً مقلياً، وكان شـهياً جداً كما هي الحال مع سـمك البحر الأحمر، ولم يشـب المذاق شـائبة. تناولنا إياه بالأصابع وقوفاً وراء العربة اليدوية التي كان يبـاع عليها، إنما كان الذباب الحائم مزعجاً حقاً، فلقد كان يعدّ بالملايين. توجّهنا إلى مكاتب السـفر أكثر من مرة نسـأل إن كان باستطاعتنا الصعود إلى متن السفينة لكن الجواب كان دائماً سلبياً لسبب أو لآخر. بدأنا نشكّ أنّهم لم يكن لديهم النية في الإبحار ذلك النهار وكان الشـكّ فـي محله. خلال فترة بعد الظهر انطلقت أكثر من سـفينة إلى عرض البحر لكن حوالي السـاعة الرابعة بعد الظهر أعلن المسـؤول عن سـفينتنا انهم لـم يحصلوا على الإذن للإبحار إلا في اليوم التالي ولذا فلن نسـتطيع الصعود إلى متن السـفينة إلا في الغداة. طبعاً لـم يصدّق أحد هـذه الذريعة فقد كان واضحاً أنّهم يأملون بالمزيد من الركّاب وأنّهم اقترحوا ببساطة أن ينتظروا الغداة لتمتلئ السفينة.

أُخبرنا ساعتئذ أنّ موعد رحيلنا قد يتأجّل ثلاثة أو أربعة أيّام، فأُسقط بيدنا واضطررنا أن نسـتأجر غرفـة أخـرى وننتظـر فلم يكـن بالإمـكان أن نخيّم فـي المرفأ. أسـأنا إلى أصحاب المكتب إلى أن تعبنا ثم اسـتأجرنا غرفة في منزل قريب من المكاتب وكانت أنظـف وأفضل من الغرفة الأولى إنما أغلى ثمناً بدولار واحد. لم يؤثر هذا سـلباً عليّ وكان لدينا متسع من الوقت فلم أبالِ إن قضينا يوماً أو يومين في ينبُع فنحن بحاجة إلى بعض الراحة. ولم يكن الجميع محظوظاً مثلنا حيث لـم يكن باسـتطاعتهم دفع المزيد مـن الـدولارات لتأمين مسـكن مدفوع مسـبقاً، فتجمّع جمهور غاضب أمـام المكتب يطالب بتحرّك السفينة. كنت أغيّر ملابسي في غرفتنا الجديدة بقصد الاستحمام عندما صدرت أصوات شـغب من الخارج جذبتني ومسـعودي إلى النافذة. شاهدنا المكتب محاصراً من قبل حشـد المسـافرين الغاضبين يصرخون بأعلـى أصواتهم بينما الفُرس أصحاب المكتب المسـاكين يحاولون أن يسـمعوا صوتهم. تفاجأنا برؤية عبد الواحد

في مقدّمة المشاغبين يصرخ بصوت أعلى من غيره.

هرعنا إلى الخارج وشققنا جمهرة الناس لنصل إلى عبد الواحد خوفاً من أي يقع في أيّة مشاكل، فوجدناه كثير الانفعال وينظر اليه الآخرون على أنّه قائدهم. وبناء على أمر منه، قبضنا على الفُرس ما عدا واحداً يرتدي عمامة خضراء اللون على أساس أنه «شريف» متحدّر من سلالة النبي، ولذا فلا نستطيع أن نمارس عليه العنف، واقتدناهم أجمعين إلى منزل الحاكم الذي طلبنا مساعدته. إنّما، لم يكن الحاكم في منزله بشكل ملفت للنظر. فأُحبطنا وعدنا إلى المرفأ. صعد عبد الواحد على كومة من أكياس السكّر وتوجّه مخاطباً الجمهور، وحصل على استجابة محمومة منه وقوطع عدة مرات بتصفيق حادّ، وذلك عندما استنكر عملهم هذا على أنّه ليس من الإسلام في شيء. وفي مجرى خطابه قال: «كان من الأفضل لنا أن نتعامل مع نصارى على أن نتعامل مع مسلمين يخدعون إخوتهم بهذه الطريقة». تذمّر الجمهور واحتجّ مشمئزّاً على هذا التشبيه، حيث شعرنا أنّه قد تخطّى حدّه فيه. وفي النهاية، تراجع الفُرس عن قرارهم وسُمح لنا بالصعود إلى متن السفينة على الفور، واستخلصنا منهم وعداً صادقاً بالإبحار عند المغيب.

مرة أخرى كان علينا أن نوضّب أمتعتنا ونرحل على عجل. حصلنا على قارب بمشقة، وبعد مرورنا بتفتيش رمزي في مركز الحجر، انطلقنا إلى السفينة الرابضة على بُعد حوالي نصف ميل من الشاطئ. سبقنا إلى متن السفينة حوالي مئة من الحجّاج وتجمّع الكثيرون غيرهم على السلّم حيث كان يقف أعلاه رئيس نقابة العجم يشرف على سير العملية. وما أن وقع نظره علينا حتى بدأ بإطلاق ألفاظ نابية بالفارسية فردّ عليها عبد الواحد. والسبب في هذا أنّنا تزعّمنا الشغب الذي قام وكنا السبب في هذه المشاكل، والخسارة التي سيتكبّدونها عندما يبحرون بسفينة نصف ممتلئة بالركّاب، وكانوا يرغبون في إعادة مالنا ولا يرغبون في أن نصعد إلى سفينتهم. لم نلق بالاً إلى ما قيل، وأوقفنا القارب بمحاذاة السفينة وشرعنا نصعد سلّم السفينة بالقوّة. كان إبراهيم في مقدّمتنا، وعندما وصل إلى الفارسي نطحه في معدته وأخلى طريقه، تبعه جعفر ثم

جاء دوري حاملاً الأمتعة المحمولة باليد، والتي استولى عليها الفارسي محاولاً رميها في الماء. أما عبد الواحد، فقد أصبح الآن بطلاً شعبياً ونحن نستظلّ بظلّه. يدرك الجميع أنّهم يدينون لعبد الواحد في إخضاع هؤلاء العجم، فهرعت مجموعة من الحجّاج المتحمّسين لنجدتنا. أمسك بعض المغاربة العرب برئيس النقابة التعس وأقسموا له إن رُمي أيّ شيء من أمتعتنا في الماء فإن مجموعة العجم على السفينة ستلحق بها. وتسابقت أيد كثيرة لمساعدتنا على رفع باقي أمتعتنا الثقيلة إلى متن السفينة واقتُدنا منصورين إلى أفضل مكان على السفينة حيث مُدّت حصيرتنا ووضّبت أغراضنا. إنّ رذيلة الجحود ليست من شيم أهل الشرق.

* * *

إبّان ذلك الوقت، تحدّث إبراهيم مع الفُرس حديثاً وضع نهاية للخلاف بيننا. يبدو أنّني الآن غدوت من أقرباء حاكم جدّة وأنني مصممّ على نقل هذه الوقائع له حين وصولي، خصوصاً أنّني صُدمت بعملهم غير الأخلاقي حتى الآن. تسبّب هذا الخبر بذعر كبير بينهم، ومنذاك الحين لم يفتهم تقديم أيّ مساعدة لنا أملاً في تصحيح ما بدر منهم. وفي ظلّ هذه الظروف والعرفان بالجميل من قبل المسافرين، تمتّعنا برحلة مريحة لم تكن في الحسبان. لم أستطع كبح شعوري بالإطراء من جرّاء تأثير تصديق قرابتي بأشخاص معروفين.

* * *

كانت السفينة معدّة لأن تكون سفينة شحن، إنما جُهّزت خصيصاً لسفر الحجّاج. لقد أضيف إلى متن السفينة طبقتان، في مقدّمتها وفي المؤخّرة يُنفذ إليهما عن طريق سلالم تؤدي إلى الأبواب الأرضية. وبما أنّ السفينة كانت خفيفة الوزن فقد كانت تطفو على وجه الماء بخفّة، ولا أشكّ أنها كانت ستنقلب بسهولة في أيّ من أنواع البحور. ولحسن الحظ، كان البحر هادئاً مثل بحيرة مليئة بالبط. وسرعان ما امتلأت السفينة، وحين المغيب كان على متنها ما يقارب الألف وخمسمئة مسافر وما زال الركّاب يتوافدون عليها. لقد شغل الركّاب كلّ أنحاء السفينة. وتوجّهتُ إلى أصحاب

السـفينة بالقول إنّهم إن كانوا يرون أنّ هذا الحشد من الركّاب هو سفينة نصف ممتلئة، فمن الأكيد أنّي لن أحبّذ الإبحار على متنها وهي ممتلئة بالكامل. فبرّروا إحجامهم عن الإبحار حسب وعدهم بقولهـم إنّهم لا يستطيعون ترك ركّاب يودّون الإبحار.

كنا على الطبقة العليا من السفينة وراء مقصورة القيادة، وكان لدينا متّسع من المكان خمس مرات أكثر ممّا نسـتحق. حضّر لنا جعفر الطاهي عشـاء ممتازاً مستعملاً مجمرة الفحـم، وأخيـراً حصلنا على ليلة مريحة للغاية. لقد اسـتغرقتُ في النـوم قبل أن أنهي نرجيلتي ولـم أشعر بشيء إلى الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي.

* * *

الفصل السادس

جــدّة

عندمـا اسـتفقتُ كنّا قد قطعنا شـوطاً كبيـراً. واندلعت مشـادّة كبيرة حول المسـألة التالية: مجموعة من المغاربة العرب مرّوا على التفتيش في الحجر وكانوا في منتصف الطريق إلى متن السفينة عندما توفّي أحدهم. لم يقبل ربّان السفينة استقبالهم ولم تقبل شـرطة الميناـاء أن يرجعـوا أدراجهم. فتوجّهوا إلى السـفينة لكنّ العجـم رفضوا رفضاً قاطعاً أن يسـتقبلوا الجثمان. ولم يكونوا قادرين على رمي الجثمان إلى البحر حيث لا بدّ من تغسيله وتكفينه والصلاة عليه. كان الخلاف حول حقّهم في وضع الجثمان على متن السفينة. طُلب من محام مصري أن يفتي في الأمر من وجهة نظر القانون، فبتّ رأيه على أحقيته في الصعود إلى السفينة، حياً أو ميتاً طالما أنّه قد اشترى تذكرته، خصوصاً أنّ التذكرة لا تنصّ على حياة صاحبها بعد البيع. تتكوّن التذاكر من قصيصة ورق كتب عليها اسم السفينة ورقم، ولا شيء غير هذا. أما رأيي الخاص فكنت أميل إلى الاعتقاد أنه طالما توفّي بعد مغادرته الشاطئ، فإنه يُعدّ من ركّاب السفينة ويجب إعتبار موته قد حصل على متن السـفينة. أما المغاربة فقد ملّوا من الجدال، ولذا انقضّوا على السـفينة وأمّنـوا موطئ قدم لهم ورفعـوا جثمان فقيدهم دون أيّ تأخير. أما وجوههم السّـمراء الغاضبة وسـكاكينهم الطويلة فقد منعت أيّاً كان من التدخّل. وصدرت الإشـاعات أنّ المتوفّى كان مصاباً بداء الكوليرا والتي لحسن الحظ لم تكن صحيحة.

* * *

غادرنا ينبُع في السـاعة الثامنة والنصف وسـرعان ما غابت عن الأنظار. آخر مشهد

رأيناه كان قافلة شرعت برحلتها إلى المدينة، وامتدّ طابور الجمال أميالاً عدّة فوق الشاطئ الرملي. وسرعان ما اندلعت مشادّة أخرى حول مسألة المياه. من المسلّم به أنّ كمية معقولة من مياه الشفة متوفّرة مجاناً على هذه السفن، إنما أراد أصحاب السفينة الفُرس بيعها لنا. وفي النهاية تجمّع الركّاب جميعهم على جسر القيادة وهدّدوا بإلقاء جميع أعضاء النقابة في البحر إن لم تؤمَّن المياه مجّاناً لهم. تدخّل حينئذ ربّان السفينة، وهو مصري بدين جداً، واقترح أن يوزّع نصيب من المياه مجّاناً وعلى الفُرس أن يوافقوا على هذا. أما نحن فلم نتدخّل في الأمر حيث كنّا مسرورين بأمورنا كما هي.

كان هناك أوروبي غربي وحيد على السفينة، أعتقد أنه طبيب ولا بدّ أن يكون إنكليزيّاً من هيئته. قضى وقته في مقصورة القيادة مع القبطان ولذا فإنّي رأيته من مسافة. عندما وصلنا جدّة جال في السفينة يلقي نظرة فاحصة، فتأكدت أنّه موفد طبّي من مركز الحجر.

أُطلقت صفارات السفينة معلنة نقطة الإحرام حوالي الساعة الرابعة والنصف مساء. إنّ ملابس الإحرام إجبارية لكل الحجّاج الذين يقتربون من مكّة من هذه النقطة، وعليهم أن يرتدوها إلى أن يؤدّوا الطواف ويقبّلوا الحجر الأسود. ولا بد من ارتدائها خلال أيّام الحجّ الثلاثة (أيّام التشريق)، وبعضهم يرتدونها طوال مدة إقامتهم في مكّة المكرّمة ككفّارة باختيارهم الخاص، وبعضهم الآخر لا يستغني عنها في زيارته لضريح الرسول الكريم في المدينة المنوّرة، مع أنّي اعتقد أنّها مكروهة عند الشافعية. إنّ الحكمة من وراء ملابس الإحرام هي النقاء والقنوت، حيث أنّ كلّ من يدخل بيت الله الحرام يكون في زيّ واحد، بغضّ النظر عن مستواه الاجتماعي أو الاقتصادي ويكون في زيّ بسيط يتلازم مع الحشمة ونقاء اللون الأبيض. تتكوّن ملابس الإحرام للرجال من ثوبين، أحدها حول الخصر والآخر للأكتاف، ولا يُسمح بقطعة أخرى، حتى الحزام غير مسموح به، ويترك الرأس مكشوفاً، ولا يُسمح باستعمال المظلاّت مع أنّه يسمح بها للمقعدين والطاعنين في السن إن شاؤوا، ويستعملها البعض الآخر بغير عذر. إنّ

القطعة السفلية من ثوب الإحرام يجب أن لا تصل أدنى بكثير من الركبتين. وأكثر أشكال زيّ الإحرام المستعملة من قبل الأثرياء تتكوّن من منشفتين تركيتي الصنع، تُصنعان بالحجم المطلوب، وقد جهّزنا أنفسنا بهذا النوع من ملابس الإحرام قبل مغادرتنا دمشق. بعض الحجّاج يختارون ارتداء ما يشبه التنّورة وكسوة من القطن بدلاً من المنشفتين. أما النساء فيرتدين ثوباً كتّانياً طويلاً يغطيهنّ تماماً من رأسهنّ إلى أخمص الأقدام، بالإضافة إلى برقع من القشّ. ومن الوقار حلق الرأس والجسد قبل ارتداء ملابس الإحرام باستثناء الصدر وطبعاً اللحية والشارب. ومن يرتدي هذه الملابس يسمّى مُحرِماً وتحرم عليه بعض الأمور التي كانت مسموحة قبلاً.

يشكّل لبس الإحرام مشقة في هذا الطقس، خصوصاً للحجّاج الآتين من المناطق الشمالية والذين لم يتعوّدوا على أشعة الشمس الحارقة في جزيرة العرب. من المدهش حقّاً أنّ نصفهم لا يموت من تعرّضه لضربة شمس. بالنسبة لي شخصياً، واجهتُ مشقة من البرد خلال الليل أكثر من الشمس الحارقة في النهار، وخلا بعض القروح في رقبتي وظهري، فلم أقاس من شيء آخر. إحدى الاعتراضات على الطريق من المدينة المنوّرة إلى مكّة المكرّمة أنّ على المسافر أن يرتدي ملابس الإحرام طوال الطريق، وحتى أغطية خيم الجمال تنزع من مكانها حتى لا توفّر حماية غير مرغوب بها.

* * *

بعد أن قمنا بتحضيرات الإحرام وقرأنا بعض الأدعية من كتيّبات صغيرة وُزّعت علينا، اجتمعنا ثانية وكانت لنا الحرية لنضحك على المهزلة التي مرّ ذكرها سابقاً. كنت شاكراً جداً أنّي لم أكتسب جماعة تحيط بي دائماً. بدا رهط من الأتراك الأوروبيّين كبيري السن كانوا قريباً منا بمظهر عجيب يوحي بأنهم أعضاء ناد أثيني أُخلوا فجأة من حمّام تركي. ولم يمنعني أدبي من السيطرة على ضحكي كلما أنظر تجاههم، ممّا جعلهم يهزّون برؤوسهم ويتأسّفون على اضمحلال الكياسة عند الشباب في يومنا الحاضر.

* * *

رسونا في جدّة الساعة الحادية عشرة صباح اليوم التالي. ولم يكن ممكناً الاقتراب أكثر من ميل واحد من الشاطئ، فاضطررنا إلى أن نخلي السفينة إلى قوارب صغيرة تجمّعت بانتظارنا. كان هناك أكثر من عشر سفن في المرسى تعرّفنا إلى بعضها من ينبُع. وقرّ الرأي على أن ننتظر إخلاء معظم الحجّاج قبل نزولنا حتى نتجنّب الزحام وإمكانية ضياع أمتعتنا بين أمتعتهم. وفي النهاية استطعنا أن نحصل على قارب دون مشاركة أحد. عند وصولنا إلى اليابسة، سُئلنا من قبل موظف الحكومة إن كنّا عرباً أم أتراكاً وسجّل إجابتنا. وحيث أنّنا وصلنا من أراض تركية لم تطلب جوازات سفرنا للتدقيق ولم تفتّش أمتعتنا. وجدنا صفاً من المطوّفين ينتظرون على رصيف الميناء ويسألون السؤال نفسه، وعندما علموا أنّنا عرب فقدوا هتمامهم بنا، فلو كنّا أتراكاً أو عجماً لكانوا لاحقونا بعروضهم لاستخدامهم. لم يعد من الممكن أن تتعرّف على جنسية الحاجّ من هندامه حيث أنّ الجميع مكتسون بنفس الطريقة. قيل لي إنّ هناك من يقف بالمرصاد لمراقبة أيّ أوروبي يحاول الدخول متخفياً، إن كان هذا صحيحاً فإنه قد فشل في مهمته هذه المرة، وما للدهشة من مكان هنا، فكما أشرت سابقاً ليس هناك من شيء يمنع الكثير من الإنكليز أن يُظنّوا أنّهم عربٌ، محرِمين كنوا أو غير محرِمين.

* * *

حيث أنّنا قرّرنا أن نمضي بضعة أيّام في هذه المدينة، فقد جدّدنا البحث عن مكان جيّد للإقامة، وفي النهاية حصلنا على ثلاث غرف ومطبخ بثمن معقول في منزل أحد الأعيان من بلاد فارس، وقد كان رجلاً لطيفاً كبيراً في السّن وجدّ محترم. ولما كان النهار قد انتصف أمضّ بنا الجوع فلم نقدر أن ننتظر طهي جعفر الذي يأخذ وقتاً طويلاً في التحضير، فتوجهنا إلى مطعم لنتناول طعام الغداء. وأفضل ما وجدنا من المطاعم كان يتكوّن من غرفة واحدة مُدّت بها مائدة طويلة في وسطها. وقُدّم نوع واحد من الطعام وهو قطع من اللحم مشكوكة على سيخ طويل تشوى فوق الجمر على قارعة الطريق حتى يتسنّى للزبائن أن يعاينوا ما سيأكلون. وقف الطاهي وهو صاحب المطعم متسلّحاً بشوكة الشوي على العتبة يمنع الزبائن من وضع اللحم تحت

المزيد من الاختبار. وعندما يختار الزبون ما يريد، تنزع الأسياخ من صاحباتها وتعطى لـه مع صحن وقطعـة من الخبز. ولم يكن الثمـن باهظاً، بل كان پنسـين اثنين فقط. إنّ صاحـب المطعم مسـيحي، لكن علقت يافطة فوق محله تعلن جـواز تناول طعامه من قبل المسلمين لأنه غير مدنّس.

يُسـمح لغير المسلمين أن يقطنوا في ينبُع وجدّة بشرط ألا يخرجوا خارج الأسوار. وثمّـة بعـض المسـيحيين وتجّار يهـود في جـدّة، وتمثّل معظـم السّـلطات الأوروپية بقنصليـات لهـا. لكنهم لا ينجون من الإسـاءة حتّى هنا. وتتجمّـع القنصليات في أبعد حيّ شمالي المدينة.

* * *

من المفترض أن تكون جدّة إحدى أقدم المدن في العالم. إنّها مكان متنوّع الألوان، خصوصـاً إذا رؤيـت مـن البحر، وكما ينبُع فهـي في حالة يرثى لها مـن الإهمال. تبدو المنـازل النحيلة العالية كأنهـا تترنّح على قواعدها، وجميع المـآذن تميل ياردات عدّة عـن خطّها العامودي. إنّ أيّ زلزال خفيف قد يحـوّل هاتين المدينتين إلى كومة ركام. أما الشوارع والأسواق فمع أنّها شعثاء فهي لا تقارن بما شاهدناه في ينبُع، فتتواجد عدّة حوانيـت جيّدة وبضعة مقاهٍ متوسّـطة الجودة. ومع أنّ الطقـس حار، فلا يمكن إعتباره غيـر صحّـي، وهو أفضل من طقس مكّة المكرّمة الذي يتحول إلى تنور مشـتعل عندما يسـكن الهواء. يساعد نسـيم البحر على تحريك الهواء باسـتمرار، ويساعد في انقشاع التلـوّث الصـادر من الحالـة غير الصحية للشـوارع والمنازل. أما الميـاه، فهي كما في ينبُع، شحيحة ومالحة. ولسوء الحظ فإن جميع أنواع الأوبئة شائعة.

يبرز المظهر الشرقي للمكان في هذا الموسم بملابس الإحرام التي يرتديها الجميع تقريباً. ومن الغريب أن ترى كلّ من حولك في الشـوارع والمقاهي مؤتزرين بمناشـف حمّام. لم أستطع أن أتغاضى عن شعوري بالعري في بادئ الأمر، إنما خبا هذا الشعور لاحقاً.

وجدنا أنفسنا في مأزق بسبب عدم تأكّدنا من وصول أحد الشيوخ من مومباسا إلى الحجّ. إنّ هذا الرجل مطلع على نيّتي دخول مكّة المكرّمة متنكّراً، وكنت أريد أن أكون في مجموعته. إنما ولأسباب متعدّدة غيّرت خططي، وعندما استقرّ رأيي ان أذهب منفرداً، رأيت من الأفضل أن أبعد انتباهه عن الفكرة ببعث رسالة له أخبره فيها انّي تخليت عن الأمر. وبالحقيقة، فهو لم يصدّق للحظة أنّي كنت جادّاً في عزمي. أما إذا حضر هو إلى الحجّ، فإنّي أرى فرص تجنّب لقائه في مكّة قليلة جداً في غضون شهر بقائنا فيها، ولذا ظننت أنّه من الأفضل ملاقاته هنا في جدّة وكشف الأمور قبل البدء بالحجّ. نويت أن أذكّره بوعده الأوّل في عدم التدخل، حتى لو لم يكن مستعدّاً للمساعدة. لم أكن واثقاً تماماً من حسن نيّته، وتوجّست خيفة من خطر حقيقيّ قد يواجهنا كما سابقاته من أخطار.

إنّ أول خطوة كانت التأكد من أنّه قد حطّ الرحال في المدينة، ولهذا الغرض أرسلت مسعودي ليستطلع المنزل المعتاد لحجّاج زنجبار. فعاد وأعلمني أنّ الشيخ لم يصل، لكنه قد بعث برسالة سابقاً وقد يصل في أيّ وقت. قرّرت أن أنتظر بضعة أيّام قبل القيام بخطوة لقائه إن وصل، فلم أكن في عجلة من أمري، لكنّي من المؤكّد أنّي أفضّل لقاءه هنا في جدّة حيث يكون الفرار ممكناً بدلاً من مكّة المكرّمة حيث تتوقّف حياتي على التصرّف الذي تمليه عليه عدّة اعتبارات أهمها سلامته الشخصية.

ولهذا، بقينا في جدة أربعة أيّام كاملة، دون اعتبار يومي الوصول والمغادرة. اغتنمنا الفرصة في يومنا الثاني لزيارة ضريح «حوّاء» نفسها، التي يقال إنّها مدفونة هنا، حيث يقع ضريحها على مسافة قريبة من السّور، وكما كان متوقعاً، كان في هيئة متواضعة. لكني أُعلمت أنّ البناء حديث نسبياً، وأنّ «آدم» ليس من أقامه، أو هكذا ظنّ محدّثي أنّي فهمت. كانت «سيدتنا حواء» ربع ميل طولاً، ولذا فان طوافاً حول ضريحها وهي ممدّدة عمل مرهق. شُيّدت قبّتان صغيرتان تحدّدان موقع رأسها وموقع قدميها بينما تحدّد قبة ثالثة منطقة أعلى البطن. كان علينا أن نتلو سورة الفاتحة عند كل قبّة من القبب الثلاث، مع أنّ الكثير من الناس يرفضون أداء دعاء وقور بهذه الطريقة. أما حارسات

الضريـح فإنهـنّ يعانين من تفكّهـات الزائرين، والتي لا تكون دومـاً مهذّبة. يبدو أنّ لا أحد يأخذ الضريح على محمل الجدّ.

* * *

وجدنـا أنّ سـمعتنا كأبطـال نجحوا في فتـح الطريق البحـريّ لنحو ألفـي حاجّ من ينبُع قد سـبقتنا، فكان يُشـار إلينا بالبنان في الشـوارع وأينما توجهنا. سـعد عبد الواحد إلـى أقصى حدّ، فلم يكن شـخصاً يحب التواضع، ومع أنّي وجدت شـهرتنا المفاجئة محرجة بعض الشيء، فقد علمت أنّنا قد نحتاجها قبل أن نرى جدّة مرّة ثانية.

* * *

في اليوم الرابع، وبعد وصول عدّة سـفن تحمل حجّاجاً من الجنوب إنما دون أنباء مـن مومباسـا، عقدت العزم علـى التوجّه إلى مكّـة المكرّمة. بدأت أشـعر بالضيق من وجودي هنا، عدا عن تساؤل الخادمين عن تأخير السفر دون أسباب واضحة.

كنت مصمّماً ألا أترك ورائي خيوطاً تفضحني، لذا أرسـلت كتاباً إلى الشـيخ أشرح فيه ما حصل وأطالبه بموقف حيادي تامّ. أودعت الكتاب لصاحب المنزل الذي قد يمرّ به الشـيخ مع تعليمات بإعطائه الكتاب إن أتى أو يسـلّم لي بعد رجوعي. وعقب ذلك اخترنـا أحد المطوّفيـن، وأخبرناه قصتنا التي انطلت على الجميع، وقرّرنا اسـتخدامه. وتبيّـن أنّ هـذا المطـوّف هـو نائب محلّي لأحـد دلاّلي مكّة الرئيسـيّين باسـم «محمّد مفتاح» والذي وعد أن يرسـل له كتاب توصية بنا. لقد أثقل ضميري بهذا حيث أنّي لم أنـو التعامـل مع الرجلين أصلاً. إنمـا لمغامرات من هذا النوع لا يسـتطيع المرء إلا أن يكون أكثر دقّة. وقمنا بالاتّفاق مع شـيخ بدوي لاستئجار جماله وإحضارها إلى منزلنا في فجر اليوم التالي.

بعـد تخطيـط تحرّكنـا القادم، أعتقـد أنّ جميعنا شـعر براحة حان أوانهـا. فالمرهق فـي المواقف الخطرة هو الانتظار، فلما تكون مسـتعداً للهجوم لا وقت لإعادة النظر، وحتمية التصرف تسـتبعد مخاوف مبهمة للمستقبل. وبما أنّ اليوم جمعة، فقد حضرنا

الخطبة قبل صلاة الظهر في الجامع الرئيس، وهو بناء مهلهل لا شأن خاصاً له، ومن ثم انتقلنا إلى مقهى شاعرين أنّنا اتّخذنا جميع التدابير الوقائية التي تفرضها الحكمة أو التقوى. فقد أقسم عبد الواحد أن يتصدّق لفقراء جدّة بثلاثة دولارات إن رجع سالماً. أخبرناه أنّه يدعو الله تعإلى أن يحقّق له ما يرغب بثمن بخس، ومن الأفضل له أن يجعل هذا القسم نذراً. إنما ما أثار سخطنا بعد رجوعنا أنّه رفض أن يفي بقسمه.

* * *

استيقظنا باكراً في صباح اليوم التالي، وكنا جاهزين قبل انبلاج ضوء النهار. وصلت جمالنا في الوقت المحدد، إنما لم أرضَ عن مظهرها. بدا الجمل المعيّن لركوبي كأنه سيقع ميتاً في أيّ لحظة. إنّ هذه الحيوانات المسكينة تواجه وقتاً عصيباً في هذا الموسم حيث أنّ أصحابها يستغلونها إلى أقصى حدّ طوال الموسم بلا راحة. لقد استأجرنا أربعة جمال لهذه الرّحلة، حيث أنّنا بعنا هودج الركوب في ينبُع ولم نر ضرورة لشراء غيره.



الفصل السابع
من جدّة إلى مكّة المكرّمة

تبعـد مكّـة المكرّمة عن جدّة أربعين ميلاً تقريباً وتتصـلان بطريق محميّة بمعاقل أو حصـون صغيـرة لا تبعد عن بعضهـا أكثر من مدى رصاص بندقية. بنـاءً على ذلك فإن السـفر المنفرد يُعدّ آمنـا ولا ضرورة للانضمام إلى قافلة. وهناك أكشـاك صغيرة تتناثر على بعد ميل واحد من بعضها، تجد فيها وجبات طعام خفيفة. يرسل الكثير من الناس أمتعتهـم وخدمهم على الجمال، ويلحقـون بهم راكبين الحمير. وقد ندمت لاحقاً أنّي لم أحذُ حذوهم.

خرجنـا من البوابة إلى سـهل رملي مسـطّح يمتدّ حوالي سـبعة أميـال وينتهي على سفح هضاب منخفضة، وامتدّ طابور الجمال إلى هذه الهضاب واختفت مقدّمته بينها. فـي هذا الموسـم من كلّ عـام ينتقل الحجّاج إلـى مكّة بأعداد ضخمـة بطوابير متّصلة علـى هـذه الطريق. لم نبعد مسـافة كبيرة حتى أحسسـتُ كأنّي أهوي ووجدتُ نفسـي فجأة مسـتقرّاً على الأرض على جزء من جسدي يتحمّل الصدمات دون أذى. كان من الواضح أن الجمل قد نفق، ولا أدري إن كان السـبب الإرهاق أو المرض. خرجنا من الطابـور إلى جانب الطريق وصببنا جام غضبنا على الجمّال لإحضاره إبلاً بهذه الحالة وهدّدنـاه بالعـودة إلى جـدّة وإلغاء التعامل معـه. كان علينا أن ننتظر سـاعة كاملة حتى يحضر جملاً غيره ولـم نعاود المسير إلا بعد الساعة الثامنة. لم ينته نصيبنا من الحوادث عند ذلك الحدّ، فقد قرّرنا أنا وعبد الواحد أن نتوقّف في أحد المقاهي الصغيرة لنتناول بعـض القهوة وندخّن ثـم نلحق بالركـب. إنّ الجمال المحمّلـة بالمتاع تقطع ميلين في

الساعة الواحدة، بينما يستطيع أن يسير المرء ثلاثة أميال في الوقت نفسه. فقضينا حوالي عشرين دقيقة في تحقيق مأربنا ثم بدأنا بالسير. كان الهواء منعشاً في الصباح الباكر، وبدأ يتحوّل إلى حار قائظ في مثل هذا الوقت، أما الشمس فكانت تضرب الرمال بقوّة وتجعل سيرنا حفاة مزعجاً. جهدنا بالسير على قدر ما نستطيع، لكن سرعان ما وجدنا أنّنا لا نلحق بالركب، بل إنّ جمالنا قد سبقتنا، وكنا قد دخلنا في الهضاب، حيث اضطرت القافلة أن تسير بخطّ منفرد من الجمال. حاولنا أن نوصل خبراً شفهياً إلى فريقنا عن طريق الحجّاج أمامنا إنما كانوا هنوداً لا يفقهون لغتنا. ولحسن الحظ تصرّف مسعودي بنباهته المعتادة حيث أنّه أحسّ بغيابنا طويلاً فأوقف الجمال في أول مكان فسيح وصل إليه، وحين التقيناه كنّا نشعر بالحرّ، متقرّحي القدمين وأكثر حكمة في التصرّف مستقبلاً. كنت تدارست قبلاً فكرة وجوب التوجّه إلى مكّة المكرّمة سيراً على الأقدام.

* * *

في حوالي الساعة الرابعة والنصف من بعد الظهر وصلنا إلى قرية «بحرية» من المفترض أن تكون في منتصف المسافة، لكنّي أظنّ شخصياً أنّها أقرب إلى جدّة منها إلى مكّة المكرّمة. تتضمّن القرية بضعة محالّ بالاستطاعة التزوّد منها بالإضافة إلى تأمين بعض العلف وحظائر الماشية. وهناك بعض مزارع النخيل بالقرب من المكان، ويوفّر الحصن الكبير والحامية وفرقة من الجيش أو أكثر الحماية اللازمة للقرية، حيث أنّ قرية البحرية تمتدّ في سهل مفتوح بضعة أميال، تحيط بها من جهة جدّة سلسلة من الهضاب الصخرية المنخفضة والتي قطعناها للتوّ، وتمتدّ بين الكثبان الرملية إلى الشرق. أما الماء فهو متوفّر ولم يكن مالحاً بشكل ملحوظ.

ضربنا مخيمنا على بعد مسافة قليلة من القرية في مكان وجدناه أكثر نظافة من غيره، ولم نتكبّد عناء نصب الخيام حيث لم نجد حاجة لها في طقس جيّد ودافئ. وعزمنا النيّة أن نواصل المسير في فجر اليوم التالي، إنما تواطأ الجمّال على تغيير خططنا وإجبارنا على المسير خلال الليل. كان عذره أنّه يودّ مساعدتنا في الوصول

إلى نهاية رحلتنا في أقصر وقت ممكن، وحتى يتسنّى له العودة إلى جدّة لخدمة المزيد من الركّاب. بالإضافة إلى مجموعتنا، كان الجمّال يؤجّر ثلاثة جمال لمصريين، رجل وامرأتين، وقد نجح في خداعهم لمواصلة المسير الساعة الحادية عشرة عند بزوغ القمر، ومن ثمّ أتى إلينا قائلاً إنّهم لن يحصلوا على إذن بدخول مكّة إلا إذا رافقناهم، فترخيص السفر لديه يحوي إذناً لعدد معين من الجمال لا بدّ وأن يتوافر عديده، وإلا فلن يُسمح للجمال بدخول مكّة. قد يكون هذا ادّعاءً كاذباً، إنما لم نكن لنرغم المسافرين المصريين على تنزيل أمتعتهم مجدّداً، فاضطررنا أن نستغلّ الوضع ونستمرّ في السير. لم أمانع في هذا الأمر كثيراً، فالسفر في ليل دافئ ساكن أفضل من التعرض لشمس حارقة تضرب رؤوسنا المحلوقة ودون حماية، فانضممنا إلى طابور الجمال الذي لا زال يتهادى شرقاً. كان الأمر سيّان ليلاً أو نهاراً، وكنّا نقترب من مكّة في سيل من البشر. عندما نفكر مليّاً أنّ نصف مليون من البشر يسافرون هذه الطريق في خلال شهر، بالإضافة إلى ما يحتاجونه من زاد وغيره، فمن السهل أن نقدّر العدد الهائل من الجمال المطلوب توظيفها للنقل.

إنّ الصمت المسيطر على المكان غريب ومؤثر. فلم نعد نسمع صراخاً، أو غناء أو إطلاق نار. يتأثّر معظم الحجّاج برهبة المكان فيهدأون، وتنسلّ الجمال على الرمال الناعمة دون صوت. من الصعب على الغريب أن يفقه كنه مشاعر المسلم عند اقترابه من مكّة المكرّمة. فبالنسبة إليه، إنّها مكان يكاد لا ينتمي إلى هذا العالم، فجلال الإله يرنو فوق الجميع مثل تابوت العهد لدى اليهود. إنّ المسلم يتوجّه إلى هذا المكان خمس مرات في اليوم طوال حياته، وهو يقترب منها الآن ليكشف كنهها وأسرارها بأم العين. بالإضافة إلى ذلك وبحسب المعتقدات، إنّ الحجّ يجلب مسؤولية على الحاجّ كما يجلب الأخطار في طيّات بركته. إنّ عمل الصالحات في مكّة المكرّمة يربو أضعافاً مضاعفة عن أيّ مكان آخر، إنما السيئات المقترفة تستجلب النار جزاءً.

في ساعات الصباح الأولى دخلنا الأراضي المقدّسة والتي يحدّدها عمودان أبيضان من الحجر مررنا بينهما. يحرم صيد أو قتل أي حيوان هنا، إلا للغذاء. وأيّ تعدٍّ جائر

على الحياة محرّم[1].

بعد أن قطعنا الحدّ الفاصل لبداية الإحرام تلونا دعاء خاصّاً تكراراً، وأحياناً جماعياً. والدعاء هو التالي:

«لبّيك اللهمّ لبّيك، لبّيك لا شريك لك لبّيك، إنّ الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك».

إنّ الكلمات «لبّيك اللهم لبّيك» تتكرّر عدّة مرات في لحن مهيب.

* * *

وجدنا الصباح بارداً ونحن في ملابس الإحرام التي لا تغني عن البرد. ولمّا بزغ الضوء، أشار إبراهيم إلى جبل النور حيث أنّه قد أدّى فروض الحجّ من قبل، وجبل النور قبّة مخروطية الشكل تعلوها منارة أُعلمتُ أنّها ضريح. إنّ الجبل من أشهر الهضاب التي تطلّ على المدينة. ثم مررنا في الساعة الثامنة على بضعة بيوت حجرية إلى جهة اليسار وقيل لنا إنّها من بيوت مكّة المكرّمة، ولذا تلونا الدعاء المناسب لرؤية مكّة المكرّمة. لقد سُلّم كلّ منا كتيّباً أدرجت فيه الأدعية الخاصّة بالحجّ بترتيب زمنيّ ولكلّ دعاء مناسبته الخاصة، مثلاً عند الإحرام، وعند رؤية مكّة المكرّمة، والدخول من بوّابة المدينة، وعند رؤية الكعبة الشريفة، وهكذا. إنّ دعاء رؤية مكّة المكرّمة هو كالتالي:

«اللهم، يا مَن أوردتنا هذا المكان بالأمن واليُسر، ردّنا بأحسن مُنقلب وخير حال». ويتابعون من القرآن الكريم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾.

لا بدّ لي من الاعتراف مع أنّي شعرت ببعض التوتّر، فقد كان عليّ أن ألتفت حولي لأرى الرّهبة تعلو وجوه معظم الحجاج من حولي. وكلّما اقتربنا من المدينة أصبحت ملاحظة التأثّر عليهم مؤلمة. سرنا لحوالي ساعة من الزمن، مارّين ببعض الأكواخ

---

(1) كتب المؤلف: يحرّم على المُحرِم ان يقتل أي نوع من الحيوان، حتى الحشرات، ما عداً العقرب ومثله الذي يعد خطراً على حياة الانسان. ويُمنع الرّفث والفسوق والجدال في الحج أيضاً.

الصغيرة وخيمة بدويّ هنا أو هناك، إلى أن أصبحت أسائل نفسي أين تختبئ مكّة. فجأة انعطفنا يساراً ورأيت أمامنا تجويفاً بين الهضاب الصخرية العالية، أحدها متوّج بحصن عظيم، آخرها شُيّد عليه مسجد، وغطّت الأبنية التي لم أكد أميّزها بقية الهضاب.

تقع مكّة على حافة أرض جبلية وعرة تمتدّ إلى داخل جزيرة العرب. وتقبع المدينة في وسط واد ضيّق لا يبين من جهة البحر فلا ترى أيّ أثر للمدينة إلا عندما تصل تقريباً إلى بوّابتها. أما الوادي فهو يمتدّ إلى الشمال الشرقي والجنوب الغربي، ولا تظهر له نهاية.

قرّرت وعبد الواحد أن نكمل سيراً على الأقدام للاستكشاف، وقد نتمكّن من العثور على مكان للسكن قبل وصول الجمال. أعطينا التعليمات لمسعودي لملاقاتنا في الشارع الرئيس في الجهة الأخرى من المدينة. كنّا نعلم أنّنا سنتعرّض لنقد لاذع من الحرّاس المرتبكين الذين ينتظروننا عند دخولنا البوابة. حثثنا الخطى ومررنا بثكنة الجيش الجديدة وهي بناء فسيح يتّسع لعدّة أفواج. وحالما عبرنا الشارع الرئيس الذي يفضي إلى مركز المدينة وجدنا كما هو متوقع صفّاً من المطوّفين، متزيّين بألوان قوس السماء (قوس قزح) ويسدّون الطريق. إنما كنّا على أتمّ الاستعداد لهم هذه المرة. عندما اقتربنا منهم، نادى عبد الواحد باسم محمّد مفتاح والذي لحسن الحظ لم يكن من بينهم، سألنا بعضهم عنه ممّا جعلهم يعتقدون أنّنا قد عقدنا صفقة مسبقة معه ولا داعي للتفكير بنا. أوقفني شيخ مسنّ، وكان رئيس المطوّفين، وسألني عن اسمي فقلت: «علي»، ثم سأل عن جنسيتي فقلت: «عربي» ثم أكملنا سيرنا. بما أنّ المئات من العرب يحملون هذا الاسم ويمرّون من هنا يومياً، توصّلت إلى نتيجة أنّ الحكومة تدفع لرئيس المطوفين ليسأل هذه الاسئلة التلقائية. على أيّ حال، تنفّستُ الصعداء مرّة أخرى، وباستطاعتي القول إنّنا لم نواجه أيّ متاعب مع المطوّفين بعد ذلك ويعود الشكر إلى أسئلة الشيخ. ولا أحتاج القول هنا إنّنا لم نتعب أنفسنا في البحث عن محمّد مفتاح بعدئذ.

شققنا طريقنا في شارع طويل، حوالي نصف ميل، يمتدّ واسعاً ومستقيماً ثم انعطفنا إلى الأروقة التي كانت مزدحمة لدرجة لم نستطع المرور. وعند خروجنا من الأروقة

وصلنا إلى شارع مستقيم آخر يفضي، كما قيل لي، إلى «مِنى»، فأكملنا سيرنا لمدة عشرين دقيقة أخرى إلى أن وصلنا إلى مبتغانا. كانت منطقة ذات شوارع هادئة ومنازل عالية بنوافذ مغلقة، بعضها يتضمّن حدائق صغيرة. قيل لنا إنّ هذه المنطقة من أفضل المناطق السكنية في المدينة يفضّلها العجم والعرب القادمون من العراق، أي بغداد وكربلاء ووادي نهر الفرات. جذبتني المنطقة خصوصاً أنّي استبعدت قدرة حجّاج زنجبار أو مسقط على الاستئجار فيها. وثمّة ميزة أخرى لفتتني هي أنّنا سنكون في أمان إن تفشّى وباء الكوليرا، فالمكان ليس مكتظّاً كغيره من أجزاء المدينة. ففي العام الفائت، لم يضرب الوباء هذه المنطقة إلا قليلاً مقارنة مع غيرها. وبما أنّي لا زلت أملك مئة جنيهاً، لم أجد ضرورة للتوفير، ولا بأس ببعض الرفاهية.

استعرضنا عدة منازل قبل أن نجد ما يرضينا. وقرّ الرأي أخيراً على جناح من ثلاث غرف، ملحق به حديقة على السطح، في منزل محمّد سعيد، وهو ضابط كبير. كانت الوحدة السكنية الأولى كبيرة، نظيفة ويدخلها الهواء، أما الوحدتان الأخريان فمقبولتان. وأعجبني مظهر صاحب المنزل وابنه، ابن الخامسة والعشرين، وهما من أهل مكّة الأصليين. بعد الكثير من المساومة، اتفقنا على إيجار مقداره سبعة جنيهات في الشهر نستطيع بمقتضاه استعمال المطبخ، والاستفادة من خدمات الرقيق الموجودين في المنزل إن احتجنا إليهم. بعد الاتفاق معهما، وجدنا أنّهما مضيافان جداً. حضّرت النسوة الطعام والقهوة بينما ساعدنا الرجال في حمل الأمتعة التي وصلت مع مسعودي والآخرين. كنت متفاجئاً لحصولي على ما نريد بثمن بخس، حيث كنت مستعداً لدفع خمسة عشر جنيهاً أو حتّى عشرين ثمناً للسكن. أطلعني محمّد سعيد على عادته في إيجار منزله بثمن منخفض للنخبة من العرب الذين يتمتّعون بالهدوء والخلق الحسن، مقارنة بالمبالغ من المال التي يمكن الحصول عليها من تأجير الهنود أو أهل جاوة. وتبيّن أنّ لديه قريباً يعيش في زنجبار وكان مهتماً تماماً بالتعرف على أحوال هذا البلد. ذكرت أمامه أنّني لا أحبذ أن يذكر موطني الأصلي لأحد لأنّي أخاف الوقوع في المشاكل مع المطوّفين، وكان طلباً منطقياً بالنسبة له وعد بتنفيذه.

قرّرنا التوجّه إلى الحرم الشريف[1] فوراً للطواف بعد أن صلحت أمورنا، وتناولنا وجبة جيّدة جداً وعلى الطريقة الأوروبية، أي على مائدة مع صحون وشوك وسكاكين، وبعد أداء الطواف يمكننا أن نبدّل ملابس الإحرام بملابسنا الاعتيادية والتي كنّا بشوق لها. أصاب مسعودي صداع حاد، فقبل نصيحة محمّد سعيد وتخلّف عن الذهاب إلى صباح اليوم التالي حيث أنّ المناسك تتضمّن الهرولة وهي متعبة تحت الشمس الحارقة.

إذن، توجّهنا أنا وعبد الواحد سوياً، وتوضأنا قبل أن نخرج. وما هي إلا عشرون دقيقة حتى كنّا على بوّابة الحرم الشريف التي دخلنا منها ووجدنا أنفسنا أخيراً في الساحة الكبيرة التي تتضمّن مجموعة الأبنية التي قدمنا لرؤيتها. هناك، أمام أعيننا، كانت الكعبة، ورداؤها الأسود دهشة لناظره بتناقضه مع لون الرخام الأبيض المتلألئ تحت أشعة الشمس. من الكعبة انتقل نظرنا الممتلئ رهبة إلى القبّة غير المزخرفة التي تغطي بئر زمزم المطهّر، ثمّ إلى الآثار التي تدلّ على مقام كلّ من الأنبياء محمّد وإبراهيم وإسماعيل، والصّفّة الحجرية التابعة للشافعية المثيرة للفضول، ومن ثمّ غرق نظرنا في متاهات الأعمدة المحيطة بالمكان.

إنّ التأثير البارز الذي يتركه هذا المشهد هو تأثير مكان غير اعتيادي، فهو ليس بالباذخ، ولا يمكن وصفه بأنّه متكلّف، إنما هو يجيش في نفس ناظره روعة الإبهار. يشعر المرء بصورة غريزية أنّه ينظر إلى شيء فريد من نوعه، فلا يماهيه أيّ شيء آخر في العالم. ولا أدري إن كانت الملائكة الحارسة للمكان تقطن المبنى نفسه أو تحوم حوله، ولا أدري إن كان هذا مجرّد إعتقاد أولده الأيمان المتعلّق بالمبنى المربّع في الوسط[2]، لا أستطيع قطع اليقين إنما هو موجود. لا همّ ما هو التفسير المقبول لهذا، إنما لا شك أنّ النتيجة شعور خارق للطبيعة. وندر أن ينظر حجّاج إلى هذا المشهد ولا يتأثرون، فهو يخضع الأشدّ طيشاً إلى صمت غير اعتيادي.

(1) كتب المؤلف: يطلق المسلمون على الحَرَم اسم المسجد الحرام، أو بيت الله الحرام.

(2) كتب المؤلف: يفسّر المسلمون لفظ «بيت الله» حرفياً وبكل معنى الكلمة. والكثير منهم يخافون ان يرفعوا نظرهم إلى الأعلى حول الكعبة وقت الحج. ويظن البعض أن أجنحة الملائكة هي ما يسبب صوت رفرفة ستار الكعبة.

صلّينا ركعتين تحية للمسجد، ثمّ جلسنا لبعض الوقت في ظلّ الأعمدة نطالع المكان في أشعة الشمس.

تمتدّ الساحة المربّعة بعرض ثلاثمئة ياردة ومثلها طولاً، أما صفّ الأعمدة المحيطة بها فتغطي عشرين ياردة[1] حولها. وهي مرتكزة على عواميد حجرية ومسقوفة بقباب صغيرة. أما الأرضية التي تقوم عليها الأعمدة فهي مصنوعة من حجر الغرانيت الخشن، أما الساحة فهي مغطّاة بالحصى ومحاطة بأرصفة للمشاة تلتقي في الوسط. تتضمّن الأبنية الكعبة الشريفة، وبئر زمزم، ومنبر الوعظ، ومقام إبراهيم عليه السلام، وقنطرة صغيرة ومقام أسماعيل، وهذا الأخير عبارة عن حائط نصف دائري مميّز الشكل قريب من الكعبة. أما الكعبة نفسها، والتي هي مكعّب بعلو أربعين قدماً، فهي مبنية من حجارة كبيرة من الغرانيت، ولها باب خشبيّ موصد بالحديد يعلو ثمانية أقدام عن الأرض، لذا لا حاجة لاستعمال سلّم لمن يريد الدخول. ويقبع البناء في حوض ضحل من الرخام، بيضاويّ الشكل يبلغ في أقصى قطر له حوالي أربعين ياردة.

أما السور الخارجي للحرم فهو من الآجرّ، تحاذيه المنازل والحوانيت فيمكن رؤية داخله من الطوابق العليا. وللسور حوالي ثماني عشرة بوّابة، تصل إلى الرئيسية منها في الناحية الشمالية عن طريق درجات من الصخر، ومن ثمّ إلى سوق صغير مخصّص لبيع الكتب وينتهي السوق على بوّابة الحرم ذاتها.

لا تمتلك أيّ من المباني أدنى جمالية في العمارة أو القيمة المادية، بل تُلاحَظ البساطة الشديدة والنقاء المفرط في تصميمها. أما الحرم فهو مبدئياً حديث البناء وقد جُدّدت الكعبة عدّة مرات. ويجد الباحث تأريخاً كاملاً لمكّة باللغة العربية.

* * *

طلبنا من أحد الدلاّلين الكثر المنتشرين حولنا أن يقودنا في أداء مناسك الحجّ،

---

(1) كتب المؤلف: أخذت هذه المقاييس بالنظر، وهي تقريبية. ويجد القارئ وصفاً تفصيلياً للمسجد في كتاب سير ريتشارد بُرتون: رحلة حج إلى المدينة ومكّة.

والتـي كان أولاهـا الطواف سبع مرّات حول الكعبة. قطعنا السـاحة إلـى دائرة الكعبة وأمسـكنا بيد الدليل وانضممنا إلى الحشد الذي يطوف حولها. كانت الساعة الثالثة ما بعـد الظهـر، أي أكثر الوقت قيظاً ولـم يكن هناك ازدحام في المسـجد، إنما من المؤكد أنّ الطائفيـن حـول الكعبة يعـدّون بالألف. لا تخلـو الكعبة من الطائفيـن حولها على مدار السنة. ويقال إنّ من فوائد الطواف أنّه يحقق بركة خاصة لمن يطوف وحيداً حول الكعبة. وقد درج بعض الخلفاء الأوائل على عادة إيجاد هذه الحالة لتخلو لهم الكعبة عن طريق إبعاد الناس، إنما لا تدخل هذه الحالة ضمن الشروط الصحيحة.

طُفنا حول الكعبة، مشـياً تارّة وهرولة تـارّة أخرى مردّدين دعاءً طويلاً وراء الدليل. بعـد الانتهـاء من الطواف السـابع كان علينا أن نقبّل الحجر الأسـود، وهـو حجر يقبع فـي زاوية البناء ويعلو حوالي أربعة أقدام عن الأرض. هناك فُرجة في السـتار الأسـود يكشـف عن الحجر وكان باسـتطاعتي ملاحظـة أنّ الحجر مكسـوّ بالفضة وما تعرّض للتقبيـل متـآكل. يقال إنّ الحجر قد هبط من السـماء، وممّا لا شـك فيـه أنّ أصوله من الفضاء الخارجي.

بعـد الطواف، أدّينا صلاة مـن ركعتين ثم تركنا الحرم وتوجهنـا إلى الصَّفا والمروة لنؤدّي منسـك السـعي، وهو هرولة بين هضبتيـن تبعدان عن بعضهمـا حوالي ثلاثمئة يـاردة. والخط الفاصل بينهما موازٍ للناحية الشـرقية من الحـرم والطريق بينهما تندمج مع الطريق المحاذية لها. هرولنا ذهاباً وإياباً مردّدين دعاءً طويلاً آخر طوال السعي. إنّ الدليل مهمّ في تلقين هذه الأدعية حيث أنّه يحفظها عن ظهر قلب، ويسعف الحاجّ من قراءتها من كتاب أو ارتجال دعائه الخاص وقد لا يقدر على ذلك. كانت طريق السعي مكتظة بالمشـاة، والجمال، والفرسان والمتسـكّعين، لذا كان سعينا بطيئاً نوعاً ما. عند الانتهاء من السـعي صلّينا عسـى أن يتقبّل الله منا مناسكنا، ثـم حُلقت دائرة صغيرة من شعورنا معلنة انتهاء المناسك. أصبحنا الآن في حرية لارتداء ملابسنا الخاصة والعيش كأهالي مكّة أنفسـهم إلى أن يحين موعد الحج. كانـت العودة إلى المنزل راحة كبيرة، حيـث كنّا مرهقين ومتقرّحـي الأقدام. إنّ الركض حفاة جيئـة وذهاباً على أرض وعرة

لـم يكن ممتعاً، وعند دوسـي على حصاة مدبّبة، مرة أو مرتيـن، خرجت مني ألفاظ لا تليق بما نفعل. لكنّ الاسـتحمام وتغيير الملابـس قد فعلا فعلهما في تغيير مزاجنا إلى الأفضل، ونظرنا إلى الأمور بإيجابية.

* * *

الفصل الثامن
مكّة المكرّمة

قضينا الأيّام التي تلت مستمتعين باستكشاف مكّة. كان هناك الكثير لفعله ورؤيته، وكانت الأسواق المكتظّة مصدر اهتمام ومتعة فائقين. إنّ مكّة أكبر بكثير من المدينة المنوّرة، فتعداد سكانها دون الحجيج يصل إلى سبعين ألفاً، مع إنّي شخصياً أستطيع أن أزيد على هذا العدد بحرية. لا بدّ من التذكير هنا أنّ عديد الحجّاج في هذا الأسبوع وصل إلى خمسمئة ألف، ويجب إيجاد مساكن لمعظمهم، لذلك فإنّ المباني المتواجدة في المدينة تفوق حاجة السكان بالعادة. أما الشوارع فهي واسعة ونظيفة بشكل عام، وجميع المنازل تتكوّن من ثلاثة أو أربعة طوابق، وأحياناً أكثر. أما السوق الرئيسة فهي مسقوفة، كما في دمشق، ومع أنّها لا تقارن بذاك المكان عدداً ونوعية، فإنّ بعضاً منها لا بأس به. يقدّم التجّار الوجبات للحجّاج بشكل كامل تقريباً، وبعض منهم يحبّ أن يأخذ معه تذكاراً من رحلته تلك. أما الصناعة المحلية فغير متوفرة هنا، ولقد فشلتُ في إيجاد أيّة سلعة تحمل خاصية المكان، حيث أنّ البضائع تستورد من جميع أنحاء الشرق، مثل الحرائر من سوريا، السجّاد من تركية وبلاد فارس، النحاس المشغول من الهند ومصر، وكلّ هذه البضائع تلاقي رواجاً عند الحجّاج، إنما تكون مصدر يأس عند المسافر الذي يدرك أن باستطاعته الحصول على نفس البضائع، بجودة أعلى وثمن أقل في أماكن يسهل الوصول إليها غير مكّة المكرّمة. وبالإضافة إلى التجّار المحلّيين، يتوافد إلى مكّة تجّار من جميع أنحاء العالم الإسلامي عارضين بضائعهم في موسم الحجّ، ومتأكدين أنّهم في سوق استهلاكي مربح.

إنّ حكومة مكّة متميّزة، فهي في الواقع مقاطعة شبه مستقلة عن تركية، وتحت حكم «الشـريف» الذي يُختار دوماً من نسـل عليّ وفاطمة. يُعدّ هذا الشريف كملك مستقلّ، فهو يقطن في قصر، ولديه حامية من الحراس، ونظرياً لديه سـلطة مطلقة داخل حدود ملكيته الضيقة. وتقدّم له التشريفات ذاتها التي تقدّم لسلطان تركية أو أي عاهل شرقيّ آخر. تُعدّ سلالة العائلات الشريفة عريقة ولا عيب فيها، فنرى فيهم العربي كما كان أيّام الرسول، وقبل أن تدخل الفتوحات الإسلامية الأعراق التي تبدو ملامحها واضحة في معظم العرب الآن. والشـريف الحالي رجل خمسينيّ أسمر، مربوع القامة قوي البنية، ولديه ملامح متّسقة، ولحية طويلة يشوبها الشيب.

* * *

يملك الأتراك كتيبة كبيرة في مكّة المكرّمة، لكنّي لم أكن قادراً على التثبّت من العدد الصحيح لفرقها. والحصن المطلّ على المدينة من جهتها الجنوبية الغربية باسـتطاعته أن يضـمّ ألفـي جندي على أقل تقديـر. يبدو على هذا الحصن أنّـه منيع، ومن الصعب اقتحامـه، إنما بالطبع لا يمكنه تحمّل قصف سـلاح المدفعية. لقد ولّى زمن الحصون الآن بالسـرعة نفسـها التي اختفت فيها البوارج الحربية. أما مباني مكّة العامّة فتتضمّن المحكمـة، ومركز البريد والبرق ومكاتب حكومية أخرى. ولا تتواجد معالم مهمة إلا مـا ترك الرسـول مـن آثار وقد تكون غير صحيحة النسـبة وسـآتي علـى ذكرها لاحقاً. ويتواجد مسجد واحد غير الحرم الشريف نفسه.

إن طقس مكّة ليس بالطقس الجيّد مع أنّه لا يُعدّ غير صحي، فهو حارّ طوال السـنة وجافّ جداً. تتساقط الأمطار مرّة أو مرّتين في السنة فقط، لكن عندما تهطل فإنها تعوّض مـا فاتهـا[1]. تغوص المدينة بين الهضاب المحيطة بها بشـكل يمنع النسـيم أن يصلها، فتزيد الحرارة المنعكسـة من سـطح الهضاب الصخريّ الوهج في النهار وتجعل الجو خانقاً في الليل. وفي السـنين التي يصادف موسـم الحجّ فيها في الشتاء، درجت العادة

(1) كتب المؤلف: في السنة التالية لرحلتي هطلت الامطار وتسببت بسيول في الحرم الشريف وأغرقت عدّة أشخاص.

أن تتوجّـه الحكومة والطبقـة الغنية من المواطنين إلى الطائـف، وهي مدينة تبعد ثلاثة أيّام إلى الجنوب الشـرقي، وهي أكثر بـرودة من مكّة وفيها وفرة من الماء وذات أرض خصبة نسبياً. إنّ تربة مكّة قفراء بالكامل تقريباً، فلا ينبت فيها أو حولها أي نبات. يعتمد سـكانها كلياً في مؤنهم على مصادر خارجية، وما فتئتُ مندهشاً من كيفية تأمين الغذاء والعلف لكلّ هذه الجمال المتوافدة. وأعتقد أنها تجد مكاناً للرعي ما بين الجبال.

إنّ البئـر الحقيقـي الوحيـد فـي مكّـة يقع في الحرم الشـريف ويسـمى «زمـزم» أما المـاء الذي تحتاجـه المدينة فهو نابع من جبل عرفات. تنقل المـاء إلى مكّة عن طريق قنوات تحت الأرض، وتجمع في حُفر تشـبه الآبار. وسُـقاة المـاء هم من طبقة خاصّة فـي المجتمع، فهم يحملون الماء فـي جراب ويبيعون الماء للمنازل بثمن معيّن. وهذا الماء جيد النوعية عندما لا يكون ملوثاً، وعادة ما يكون متوفّراً إلا عندما تُسـدّ القنوات وعادة ما يحصل هذا.

هنالـك عـدّة مقاهٍ جيدة تنشـط في هذا الموسـم، وتقدّم طعاماً طازجـاً، مثل اللحم والدجـاج والخضار، وبأسـعار معقولة، إنما الفواكه نادرة ثمينـة. وبعد أن تجوّلت في المكان، أعتقد أنّي أفضّل أن أعيش في المدينة المنوّرة بدلاً من هنا.

* * *

تعـوّدت أن أتجّـول مـع عبد الواحد، فلم يكـن ظهوري مع مسـعودي محبّذاً. وكنا عادة ما نذهب إلى الحرم الشريف لصلاة الظهر، ومن ثمّ لصلاة العشاء، وبعد أن أدّينا الطواف كاملاً، أصبح بإمكاننا أن نطوف ساعة نشاء حول الكعبة تالين أيّ دعاء نرغب، أو حتّـى بغيـر دعاء. وخـلال إقامتي في مكّـة المكرّمة لمدة شـهر كامـل كان بإمكاني تفحّص كلّ الأمور المميّزة، وجمع ما أرغب من معلومات عنها إنما لن يتسـع المقال لها هنا.

ابتعـت بعـض الصور من مكتبة في الشـارع القصير الذي يؤدّي إلى البوّابة الرئيسـة للحرم. وأخبرني صاحب المكتبة، الذي ولد فيها، قصّة الصور.

إنّ النـاس أنفسـهم هم بالحقيقة المعلّـم الأكثر إثارة للانتباه في هـذا المكان. فكلّ مـا قيل عن وصف الحجيج في المدينة المنـوّرة ينطبق هنا أيضاً، إنما بفيض، حيث أنّ الحجّ فرض على كلّ مسلم ما استطاع إليه سبيلاً، إنما الزيارة إلى المدينة المنوّرة وقف على من يسـتطيعها، ويصل أقل من ربع حجّاج مكّـة المكرّمة إلى المدينة المنوّرة. أما الحشد المتجمّع لصلاة ظهر الجمعة في أسبوع الحجّ فهو مشهد مميّز.

لفتنـي أكثـر مـا لفتني مـن الحجّـاج، أهـل جـاوة. إنهـم لا يختلفون فـي مظهرهم وعاداتهم عن اليابانيين. ولديهم نفس الطبع المولع بالاكتساب والتقليد، وهم شديدو الحشـرية لمـا لا يعرفون، وسـريعو اقتبـاس ما يرونه نافعـاً لهم. إنهـم يغايرون العرب بهـذه الخصـال، وبالحقيقة فهم ليسـوا مثل معظم الشـرقيين الذين لم يتطوّروا بسـبب خاصيـة المحافظـة المتطرّفة لديهم. وبالرغم مـن أنّ اليابانيين قد وافقـوا ظاهرياً على اتّخـاذ إنكلتـرا مثلاً أعلـى لهـم، فإنّ أهل جـاوة يحاولون أن يتماهوا بالعـرب. فأوّل ما يفعلون عندما يصلون هو التزيّي باللباس المحلي، والذي، بالمناسبة لا يليق بهم أبداً. وقد قيل لي إنّ هناك الكثير من الناس يرتدون الزيّ العربي في جاوة لدرجة أنّ الغريب يظـنّ نفسـه في الحجـاز. يبدو الغنى علـى معظمهم، وهـم ينفقون في مكّة أكثـر من أيّة طبقـة أخـرى من الحجّاج. وعادة مـا يدفعون مبلغ مئة جنيه لكراء منـزل لثلاثة أيّام في مِنى. وهم متحمّسـون لإسـلامهم، بارعون باللغة، ومطّلعون على ما يجري في العالم أكثـر بكثير مـن العرب أو حتى الأتراك. وقد ألقى شـاب تعرّفنا إليه لاحقاً يسـمّى عبد الرّحمـن، ملاحظـات عـن العرب والأتـراك لفتت نظري. فقـد قال: «إنّنـا نعقد الأمل عليهـم ولِيـس على الأتراك. فهم يملكـون كلّ الخصائص التـي نفتقدها نحن العرب، وسيقتبسـون من الأوروبيين اختراعاتهم ويستعملونها ضد الأعداء، تماماً مثلما فعلت اليابان مع روسيا».

لا أعرف أكثر ممّا يعرف هو عن الشـرق، إنما ما هو مؤكد وجود ملايين المسـلمين في الصّين، وجاوة وأرخبيل جزر الملايو وأنّ الإسلام سريع الانتشار هناك. إذن، يبدو أنّه محقّ في افتراض أنّ الفروع الجديدة في الشرق الأدنى ستكون مصدر قوّة للإسلام

في القريب العاجل. وبالرغم من انتشار الجرائد، تغيب أوروپا عن معرفة بعض الأمور بطريقة أو بأخرى، فقد نظر سلفنا إلى اليابانيين بنفس النظرة التي نرى فيها قبائل الزولو الآن. وقد يؤنّبنا الجيل الجديد على قصر نظرنا في حوادث مماثلة. يظهر الكثير من الناس رضاً ذاتياً عندما يتكلّمون في مواضيع تتعلّق بالشعوب الحاكمة والشعوب المحكومة، وقد يكونون محقّين في افتراضهم أنّ القوة وحضارة العالم ستظلّ متمركزة في شعوب أوروپا الغربية لفترة من الزمن، إنما ليس هناك من برهان لهذا الافتراض. إنّ التفكير الاستقرائي المبنيّ على ما نعرف من تاريخ العالم، يحتّم نتيجة مختلفة. وإنّ نظريّتهم المتحيّزة للأعراق الحاكمة مبنيّة على افتراضات غير مبرّرة.

* * *

أقمنا عدّة صداقات خلال الأسبوع الأوّل، معظمها من معارف عبد الواحد القدامى. أحدهم كان ضابطاً في كتيبة بغداد وهو الذي عرّفنا على عبد الرّحمن السابق الذكر. كان الأخير رجلاً كبيراً في السّن من أهالي مكّة، مسؤولاً عن السّقاة الذين يوزّعون الماء من البئر المطهّر وعن الحشد الغفير الذي يوزّع الماء داخل الحرم. ومن أوجه الإحسان المرغوب أن تنقد السقاة مقابل الماء الموزّع ليتمكن الوافدون من الحصول عليه مجاناً[1]. وبما أنّ المحسنين يدفعون بوفرة فقد أصبح إلحاح السقاة مزعجاً، فهم لا ينأون عن عرض الماء المطهّر لنفس الشخص كلّ دقيقتين، ومع أنّ الماء يجلب الحكمة وبركات عديدة أخرى، فمذاقه ثقيل. ولسبب ما، إنّ البئر مالح، لكن يعدّ المعتقدون بالخرافات أنّه ترياق لأمراض الجسد والروح. وأفضل هدية تبعث من مكّة هي الأوعية الدائرية الغريبة الشكل التي تحتوى على نصف لتر منها، والاعتراض الوحيد لنقل الماء من مكّة يأتي من موظفي مركز الحجر الطبّي الذين قد يرمونها في البحر.

---

(1) كتب المؤلف: يطلب الكثير من الناس أن يصل الماء إلى منازلهم لغسلهم وتنظيف ملابسهم، وقد أعطى هذا فكرة عن المسلمين أنهم يستحمون في البئر نفسها. وهذا خطأ شائع، فهم لا يفعلون ذلك. إن البئر بعمق أربعين قدماً فقط، مع ان الماء صالح للوضوء.

إنّ هذه الوظيفة تؤمّن دخلاً إضافياً لعائلة عبد الرّحمن، كما فعلت لأجيال مضت. وقد أثبت أنّ معرفته ذات منافع عدة. لقد أمر لنا بمكان قريب منه ومن أصدقائه في الحرم، حيث مُدّت لنا الحصر في ظلّ ظليل بين صفّ الأعمدة في النهار، تُنقل إلى الخارج في المساء. كانت هذه وسيلة راحة ملائمة جداً خصوصاً أيّام الجمعة، حين يضطر الناس الحضور إلى الحرم باكراً جداً للحصول على مكان في الظلّ، وإلا يضطرّون البقاء في الساحة المفتوحة في قيظ شمس الظهيرة. أما نحن، فكان باستطاعتنا أنّ نتوجّه إلى الحرم ساعة نشاء، ونكون متأكّدين من وجود مكان جيّد حفظه لنا خدم عبد الرحمن التوّاقون لإرضائه، وكلّ هذا كان مقابل لا شيء إلا بعض البقشيش الذي لا بدّ منه. دعاني عبد الرّحمن إلى منزله الذي يطلّ على الحرم الشريف، وقد ذهبت هناك مرّتين لتناول الشاي. كان مضيافاً جداً، وقبل مغادرتي منزله كان عليّ أن أسطر كلمات في دفتر الزيارة، حيث أنّ جمع التواقيع كان من هواياته. وكما تبيّن لي، كان عبد الرّحمن من الرجال الذين يبغضون النساء، وكان لا زال عازباً، ممّا يُعدّ غريباً في الشرق. وقد أفضى لي أنّ طبع أخته السيّء كان السبب في كرهه للنساء عامّة، وأخته ترعى له منزله. ويبدو أنّه لا يتعاطف مع البرلمانات أو الدستور الجديد بأي شكل من الأشكال. إنما أبدى إعجاباً عميقاً بعبد الحميد، وهو يفضّل النظام القديم متمنيّاً ومتوقّعاً عودته إلى بلاده قريباً. توطّدت أواصر المعرفة بيننا لأنّي كنت قادراً على موافقته على أفكاره السياسية تلك. إنما في زيارتي الثانية له، تعدّت أسئلته عن عائلتي وأمور أخرى إلى حدّ الإحراج فقرّرت أن أرفض دعواته في المستقبل، شاعراً أنّ قدرتي على اختلاق الأكاذيب تتوقّف عند هذا الحد.

* * *

قمنا بزيارات عدّة إلى سوق النخاسة[1]. أعتقد أنّ مكّة هي إحدى الأمكنة القليلة التي لا زالت تمارس النخاسة في العلن. يصطفّ العبيد، الذين يوضعون في غرف عرض خاصة، على مقعد واطئ فوق مصطبة مرتفعة. وهم جميعهم نساء، يمكن شراء العبيد الرجال والخصيان باتّفاقات خاصة، إنما لا يُعرضون في السوق. يقاد الشاري

(1) كتب المؤلف: ألغي سوق النخاسة لاحقاً.

من قبل المالك إلى كلّ غرفة، حيث يسهب في شرح مزايا بضائعه والثمن البخس الذي يطلبه بالمقابل. وباستطاعة أحدهم إن شاء أن ينخزهن، ويتفحّص أسنانهن أو يقوم بأي عمل يرضيه عن صحتهنّ وعقلهنّ، وهذا يضمنه المالك إن طلب منه ذلك. وليس من المعتاد ضمان خلوّهن من النقائص، بالإضافة أنّ ذلك يسبب إنقاص قيمتهن.

ولإتمام الشراء، على المشتري أن يقبل بالثمن المطلوب، أو يقدّم عرضاً، يُسجّل عند المالك ويُقبل إن لم يكن له بديل في زمن معين. وهذه هي الطريقة المتبعة في التجارة لجميع البضائع في البلاد الشرقية.

وثمن الجواري النساء يتراوح بين عشرين جنيهاً إلى مئة جنيه. ويزداد المبلغ في حالة بيع نساء كرجيّات (من جورجيا) أو چركسيّات واللاتي يملكن مفاتن خاصة وقدرات علمية. استفسرت عن هؤلاء فأُعلمت بعدم وجودهنّ هذه السنة بسبب تفشّي داء الكوليرا بينهنّ في السنة الفائتة. وقد عرض عليّ كل التجار تأمين واحدة لي إن تركت طلباً بهذا الأمر لديهم، وكفالة وجود المواصفات المطلوبة بها، إنما لم أرغب أن أقوم بالشراء بهذه الشروط. ولم أجد بين الحاضرات اللواتي تفحّصت من تصلح أن تكون هدية.

قد يفهم القارئ أنّ الرقّ المذكور هنا هو ببساطة تجارة المحظيات القانوني. إنّ هؤلاء الفتيات بعن من قبل عائلاتهن، ومع أنّ هذا المبدأ خاطئ، فهو يظلّ الحل العمليّ الوحيد للنظام الذي يعيشون في كنفه. وكما أشير سابقاً، إنّ المجتمع الإسلامي مبنيّ على مبدأ يختلف عن الفكر الغربي في تحديد العلاقة بين الجنسين. لا يتواجد الرقّ من حيث كونه عملاً غير مدفوع الأجر ومفروضاً غصباً في أيّامنا هذه، حيث أنّ العبد إن لم يرض عن ظروف عمله باستطاعته الهرب بكل سهولة.

إنّ تصرف الفتيات عند الخضوع لعملية الفحص المضنية كان كما هو متوقع. فالفتيات الصغيرات يخجلن ويقهقهن ويتظاهرن أنّهن يخبئن وجوههن. عندما يكون الشاري أيضاً صغيراً في السنّ ولديه روح الفكاهة، فإنه قادر على أن يشارك في المرح. أما الكبيرات في السن واللواتي فقدن جمالهن، وفقدن الأمل في العثور على شار، فيجلسن شاخصات البصر فاقدات الاهتمام بما يجري حولهن. إنّ تعابير اليأس

والتعب على وجوههن تجعل أحدهم يشتريهن بدافع الشفقة المطلقة، وهو ما يتكرّر من قبل المحسنين. إنما دون وجود منزل يأويهن يعني هذا إعطاءهنّ حريتهنّ ليمتن من الجوع. وسرعان ما يرجعن إلى سيّدهنّ الأوّل فيضمنّ على الأقل طعاماً وملجأ، ويصبح المحسن الذي أعطاهنّ حريتهنّ غبياً لفعل ذلك.

لا يشجع الإسلام الرقّ بأي حال من الأحوال، فهو بالكاد محتمل، وتحت شروط قاسية جداً. وإذا كان لدى عبد أيّة شكوى من إساءة ما فان القاضي سرعان ما يصلح الأمر، وفي قضايا الإساءة الفظّة، قد تُعطى الحريّة للعبد المساء إليه من قبل مالكه. إنّ القانون يرعى الرقيق أفضل من قوانين البلاد الأخرى المتعلّقة بالخدم الاعتيادي. وبالطبع لا يخلو الأمر من إساءات، إنّما يعود اللوم على تطبيق القانون وليس على القانون نفسه. وغاية ما يجول بخاطر كل عبد في السوق هو أن يجد له سيداً بأسرع وقت ممكن[1].

* * *

صادف مسعودى أحد معارفه القدماء بعد أسبوع من قدومنا إلى مكّة المكرّمة. كان فتى في الثالثة عشرة من عمره، واسمه «كيپي» Kepi وقد قدم مع والده، الشيخ محمّد، إلى بور سعيد من مومباسا على نفس السفينة التي كنّا عليها، متّجهين إلى المدينة المنوّرة عن طريق ينبُع وينويان المكوث فيها إلى حين وقت الحجّ، إنما توفّي الشيخ محمّد عند دخوله مكّة وذلك قبل شهر من وصولنا وترك كيپي لقدره خلاله. وجد كيپي بعض مواطنيه الذين أعطوه بعض المال وكان يعيش على أمل أن يجد مجموعة من الحجّاج يرافقهم إلى زنجبار.

هناك عدد لا بأس به من السّواحليين والعرب الذين يعيشون في مكّة، وبالطبع كنت حريصاً ألا أتقابل مع أي منهم، إنما لم يتمكن مسعودي من فعل ذلك بعد أن كشف

(1) كتب المؤلف: على الرغم من كل محاولات المنع، والقوانين الصارمة في موانئ مصر والسودان، فإن عدداً كبيراً من الأطفال يُجلبون إلى مكّة من إفريقيا كل سنة كعبيد ويباعون في الاسواق. والخطف في مكّة نفسها ليس بالنادر، ولا يسأل تجار النخاسة أسئلة حول هذا الأمر، حيث أنهم غير بريئين بأغلب الاحوال.

أمر وجوده. وكان أن ذهب مع كيبي لمقابلة كبيرهم وبالطبع رأى الكثيرين منهم، وقد أعلمهم أنّه أتى إلى هنا مع اثنين من أغنياء العرب، أحدهما بغدادي والآخر من مسقط، وهو يعيش معهما، وبما أنّه في منزلة خادم لهما لم يكن باستطاعته أن يدعو أحد لزيارته. وبما إنّ كيبي كان قريباً لبعض أصدقائي من مومباسا، رأيت أن أبرّه بأخذه معنا عند مغادرتنا. أبلغه مسعودي أنّ راعيه القادم من مسقط سمع عن سوء حظه وقرّر أن يعيده إلى بلاده على نفقته الخاصة، وأن يصرف عليه إلى حين سفره.

سُرّ كيبي بالطبع، وتطوّع أن ينضمّ إلينا ويعمل خادماً لنا طوال مدة إقامتنا. إنما رفض مسعودي عرضه قائلاً إنّ لدينا الكثير من الخدم والحشم. كان كيبي يذكر هيئتي لذا فلم يكن مسموحاً له أن يدخل المنزل إلى حين وقت المغادرة. ولو كان الفتى يتقن بعض العربية وبعض المنطق السليم، لكان طلب من أيّ من الحجيج الأغنياء المساعدة، وكانت فرصة حصوله عليها عالية جداً. أيّ إحسان حقيقي خلال الحج وفي مكّة المكرّمة بالذات يُعدّ أنّه يمحو السيّئات أضعافاً مضاعفة، ومعظم الناس يتحيّنون الفرص لحالات مثل هذه لإغداق كرمهم عليها. بالإضافة إلى أنّ الأيتام هم دائماً موضع رحمة عند العرب.

عاد مسعودي إلى المنزل في ظهر أحد الأيّام، بعد التقائه بكيبي، حاملاً معه أفضل الأنباء. فلقد وصلت رسالة من شيخ مومباسا، والذي انتظرناه طويلاً في جدّة، تُعلمنا أنه لن يأتي إلى الحجّ هذه السنة ولا أيّ من مرافقيه. محت هذه الرسالة أسوأ مخاوفنا. كنت أعرف أن لا أحد سيشكّ بكوني أوروبياً إذا أعطي دافعاً خارجياً لذلك، ووصول مجموعة كبيرة قد تتعرّف إليّ بمجرد التقائي في أيّ وقت يشكّل عاملاً محفوفاً بالمخاطر، ومبدّداً للمتعة التي نجتنيها من وجودنا هنا، بالطبع مع شرط إقناع الشيخ نفسه بالسكوت عنّا، وهو ما لم يكن مضموناً. تأكّدت الآن من عدم وصول أيّ حجيج قد يتعرّفون إليّ، ولا أرى أيّ خطر عليّ إلا من الحجّاج الأربعة الذين التقيناهم في المدينة المنوّرة، والذين قد حان وصولهم، مع أنّي لم أر صعوبة في تجنّبهم في مكان كبير مثل مكّة.

* * *

كرّسنا صباح أحد الأيّام للجولة المعتادة في المدن، والتي تشمل هنا زيارة آثار النبي وآله، وممّا أعتقد أنّها ليست موثوقة. إنّ أول مكان مثير للاهتمام زرته كان مجموعة من الأضرحة على بُعد قليل من المدينة على يسار الطريق إلى مِنى. دُفنت هنا السيدة خديجة، الزوجة الأولى للنبي، وعمّه العباس، وأبو طالب والد علي المعروف، وآخرون مغمورون. تشبه هذه الأضرحة ما رأيناه في البقيع في المدينة المنوّرة، إنما تحظى باهتمام أكثر. هناك بعض الجدال حول أبي طالب، حيث أنّ أنّ وفاته كانت على غير الإسلام، وبالرّغم من هذا، فإنه ينال قراءة سورة الفاتحة بناء على روح التسامح المعمول بها. وفي خلال زيارتنا للأضرحة أحاط بنا المتسولّون الذين رفضوا إطلاقنا بعد التعلّق بملابسنا إلى أن نقدناهم ما يرغبون. من الضروريّ أن يقدّم المرء لنفسه بحفنة من عملة معروفة «بالنحاسة» وألف منها تساوي دولاراً واحداً.

في طريقنا، التقينا بمجموعة من الهنود واتّفقنا أن نقتسم معهم أجرة مطوّف يقودنا بين الأضرحة وأماكن أخرى علينا زيارتها. أحد هؤلاء الهنود كان رجلاً بديناً ضخماً يتزيّا بالزيّ الأوروبي، وأعلمنا أنّه كان نائباً لقنصل بريطانيا في أحد البلاد على الخليج العربي. تحادث مع عبد الواحد طوال الوقت باللغة الإنكليزية وكان يترجم لي من حين لآخر. إنّ هذا المواطن الهندي يتقن الإنكليزية لدرجة لا يمكن معها تصديق أنّه أجنبيّ إلا من هيئته، وبدا أنّه مثقف وكثير الترحال بين البلاد بما فيها إنكلترا وزنجبار. وسألني إن أجد عدم إتقاني للغة الإنكليزية غير مزعج لي، وكان ردّي أنّي عزمت النيّة على تعلّم اللغة إنما تراجعت عن ذلك لمعرفتي صعوبة أصول القواعد.

إنّ ذلاقة اللسان تلك كانت في غير محلّها. وأعتقد، وقبل أن نتخلّص منه، أنه كان قد استنتج خلاصة عن فريقنا لم تكن بعيدة عن الحقيقة. إنما بعد افتراقنا لم نسمع عنه شيئاً آخر.

* * *

محطّتنا التالية كانت مسقط رأس النبي، منزله حيث ولد. شاهدنا غرفة في الطابق السفي يتوسّطها هيكل معدني صغير معلّق عليه ستائر. جثونا على ركبنا، واحداً تلو

الآخر، واضعين رؤوسنا خلال الفتحة في الستائر لتقبيل الموضع المذكور[1]. إنّ المنزل نفسه حديث البناء، ومعظم الناس يشكّون في صدق نسبته. ولأسباب واضحة، ليست للقصص المرويّة عن حياة الرسول الأولى المصداقيّة ذاتها التي تتسم بها سيرة حياته اللاحقة، حيث أنّها موثقة تاريخيّاً.

زرنا بعدئذ منزل عليّ، حيث ولد، وكرّرنا السلوك ذاته. وممّا علمت عنه أنّه ولد في الكعبة، وقد وافق دليلنا على أنّه ما من اتفاق حول هذا الموضوع. وأخيراً مررنا بمنزل الرسول حيث عاش مع زوجته خديجة سنوات عديدة، ومن المفترض أن يكون الموقع حقيقياً، مع أنّ البناء أيضاً حديث. بني المنزل في منخفض من الأرض، لذا كان ضرورياً هبوط درج للوصول إلى المنزل التاريخيّ المكوّن من ثلاث غرف، وفي إحداها صلّينا ركعتين وقرأنا مقطعاً من الكتيّب الذي يحمله الدليل. ولم يكن هناك أيّ شيء ذا قيمة لمشاهدته.

لقد فاتني أن أذكر المسجد ما تحت الأرض المخصّص لصلاة الجنّ الصّالح[2] ولا يصحّ فيه أيّ توصيف. إنّ مظهره والشعور العام الذي يضفيه يذكّر بالحفرة السوداء المخيفة في كالكوتا.

والمكان الآخر والوحيد الذي يستحق الزيارة في مكّة هو المسجد المشيّد على قمة جبل أبي قُبيس Abbais، إنما وكما قيل لي ليس هناك من شيء لرؤيته، ويحتاج الوصول إليه إلى تسلّق قاس، لذا فلم نذهب إليه. كان هذا اليوم عطلة عامّة احتفالاً بابتداء عمل البرلمان التركيّ. وعند الظهيرة وفي منتصف الليل أُطلقت المدافع تحيّة لهذا الحدث، وكان هناك محاولة للتزيين وبعض الألعاب النارية، وعزفت فرقة بعض الموسيقى على عتبه منزل الشريف حيث تجمهر بعض الناس وأنير المكان بالمشاعل.

---

(1) كتب المؤلف: يوجد في بيت لحم موضع مشابه.

(2) هو مسجد الجن في منطقة الحجون إلى الشمال الشرقي من المسجد الحرام، سمّي بذلك لأنّ الله عزّ وجلّ أوحى إلى الرّسول ﷺ في هذا الموضع بأنّ الجنّ قد استمعوا إليه وآمنوا به. وقد بني المسجد في أوائل القرن الثالث الهجري، وعمارته الحالية مجددة بالطبع.

لم تبدُ مكّة مهتمّة كثيراً بالدستور، كما الحال في المدينة المنوّرة ودمشق. ولا يُذكر الحدث بين الناس، وتضجّر معظم من تكلمت معهم بالموضوع. مع أنّ الجريدة المحلية كانت مليئة بمدائح مفرطة عن الحرية الجديدة وما شابه. إنّ الجريدة ابتكار جديد في مكّة، تصدر أسبوعياً تحت عنوان «الحجاز»، وتتكوّن من أربع صفحات نصفها باللغة التركية والنصف الآخر باللغة العربية. وإن قرّر رئيس التحرير أن يلتزم بأخبار فعلية، خصوصاً بما يتعلق بالأخبار الخارجية فإنه يضيف عبارة "long-feltwant" إنّ انباء العالم الخارجي تتسرّب ببطء إلى داخل مكّة، وعادة ما يتشوّه نصها خلال انتقالها. وكما هو الحالُ إن التلغراف ضعيف الاستعمال ومعظم أخباره عن الحرية لا تؤخذ على محمل الجدّ، بالإضافة إلى أنباء المخطّطات العظيمة لتحسين مكّة نفسها والتي إن تحققت فإنّها تطمس المعالم الفريدة للمكان.

* * *

واجهتُ بعض المتاعب في صرف نقودي، حيث أنّ الصرّاف الذي حُوّلت للتعامل معه رفض أن يصادق على الحوالة بسبب بعض المشاكل التي حصلت، فأوقف أيّ أعمال مع عبد الله وريدي. فما حصل سابقاً، بعد أن استلم الأخير الإشعار المدين، كتب له مستفسراً وبانتظار الردّ رفض أن يمارس أيّ عمل يتعلق به. لحسن الحظ، وصلت رسالة من عبد الله تحتوي على حوالة قبل أن تنفد نقودي، كاد الموقف أن يكون محرجاً. قرّرت بعدها أنّ حمل المال نقداً أقلّ خطراً من الحوالات.

لا تتواجد المصارف في الحجاز ويعود ذلك إلى الاعتقاد بأنّ التعامل مع المصارف محرّم في القرآن الكريم. إنّ هذا الادّعاء غير مبرّر، وحوربت هذه الفكرة من قبل من يملكون المنطق. إنّ الربا في القرآن هو المحرّم، ومن الواضح إنّه لم يكن مقصوداً أن يُطبّق على فوائد المبالغ المودعة للأعمال. من الغريب أنّ أياً باستطاعته أن يفتتح مصرفاً بشرط ألا يدفع أيّة فوائد على الإطلاق! ليس إيداع المال في المصرف ما يُعدّ غير أخلاقي، بل قبض الفائدة منه. والأغرب من ذلك، أنّ أعمال الصرّافين المنتشرين بالمئات في مكّة والمدينة تتضمّن العمل عينه. إنّهم يربحون مالاً عن طريق تبديل

الأوراق المالية بأسعار تختلف عن سعر الصرف. ولذا فعند شراء روبّية بالدولار يتقاضون سنتاً كعمولة، وأعتقد أنّ أعمالهم تدرّ عليهم أرباحاً لا بأس بها.

***

وصل الكثير من الحملداريّة من العراق، وبعضهم يعرف عبد الواحد وعائلته. إنّ الحملداري Hameldari هو ضرب من عمل الدليل والمتعهد مجتمعين، والذي يكسب قوته عن طريق نقل الحجّاج إلى مكّة المكرّمة، مهتماً بكل ما يحتاجونه، من خدم ووسائل نقل وغيره، ويشابه عمله عمل المهتمين بالسفاري في شرق إفريقيا. ويعتمد الكثير من الأغنياء، خصوصاً من غير العرب، هذه الطريقة في أداء الحجّ، وهم من الذين لا يعرفون البلد أو اللغة، وهي طريقة أقلّ نفقة وأكثر راحة للسفر. وسرعان ما تكوّنت لدينا حلقة كبيرة من المعارف من هؤلاء الحملداريين والمجموعات التي يهتمّون بها، فحضرنا عدة دعوات للعشاء، وكانت دعواتنا ناجحة جداً يعود الشكر فيها لطهي جعفر الممتاز. وفي آخر دعوة وأكثرها حماسة تجمّع لدينا ما لا يقل عن اثني عشر ضيفاً.

أحد الضيوف كان الحاجّ ماجد، رئيس الحملداريّين البغداديين، والذي يمارس مهنته على نطاق واسع، ويتعامل مع مئات الحجّاج سنوياً. وهناك أيضاً عربيّان من أهل مكّة، وهما صديقان شخصيان لي، وقائد المشاة البغدادي، ومحمّد سعيد، وتاجران عجميان أدخلا حجر الفيروز الكريم إلى مكّة، وثلاثة حاملداريين أخر، عربيان من البصرة، وجميع من سبق ذكرهم كانوا من المجموعة التي حضرت مع الحاجّ ماجد.

أعارنا العجميّان اللذان يقطنان في الطابق فوقنا، وبكل كرم خادماً وآنية فخارية للطهي. واستأجرنا خادماً آخر لتلك الأمسية، بالإضافة إلى المزيد من النرجيلات وعدّة أخرى احتجناها. وانهمك عبد الواحد طوال النهار في التحضير للوليمة. اكتمل شمل المجموعة بعد صلاة العشاء، أي حوالي ربع ساعة بعد الثامنة مساء[1]. ولم

---

(1) كتب المؤلف: لم يكن التوقيت معتاداً، فمعظم الناس يتناولون طعام العشاء بعد صلاة المغرب.

يستطع عبد الرحمن، للأسف، تلبية الدعوة. جلست وعبد الواحد في آخر الغرفة نستقبل المدعوين، بينما كان مسعودي مسؤولاً عن الإجراءات العملية. عندما يحضر أحدهم يتقدّم لتحيّتنا، ثم يتراجع إلى آخر الغرفة بكلّ تواضع إلى أن يُطلب منه أن ينتقل إلى عمق الغرفة. أعطي الحاجّ ماجد وأحد العجميين، والذي كان من سلالة النبي، صدر المكان إلى يميننا ويسارنا. ومن ثمّ جلس بجانبنا أحد جند المشاة الثانويين ثم أحد أصدقائي المكّيين، وباقي المدعوين اختاروا أماكنهم كيفما اتفق. بعد جلوس الجميع، رُشّ عليهم ماء الورد ووزّعت السجائر، بينما كان مفرش مطرّز، مستأجر للمناسبة، يُمدّ على الأرض في وسط الغرفة. وأُحضرت أطباق الطعام جميعها دفعة واحدة كما هي العادة المتبّعة، وصُفّت في دوائر منتظمة. تكوّنت الأطباق من الپيلاڤ، والكباب مع الطماطم، الباذنجان، لحم الدجاج البارد، لحم الحوار المشوي ونوع من الحساء، بالإضافة إلى أربعة أنواع مختلفة من الحلويات، الزلابية وقوالب الكعك المختلفة، وجميع أنواع الفاكهة الموسمية. إنّ الپيلاڤ هو الطبق الرئيس، ويتكوّن من الفراخ المجلّلة بمزيج من الأرز المخبوز، والمكسّرات، واللوز، والزبيب، والتوابل من جميع الأنواع[1]. وحُضّرت جميع أنواع المشروبات المثلّجة البعيدة كلّ البعد عن الكحوليّات والمتساوية في الرداءة حسب الطلب.

عندما تمّ تحضير كلّ شيء، أعطيت الإشارة وتقدّم الجميع إلى المفرش وبدأنا بالبسملة المعتادة ما قبل تناول الطعام. وكنا بالطبع قد غسلنا أيدينا بماء أُحضر لهذا الغرض ما قبل التوجه إلى تناول الطعام. ولا أشك أنّ تناول الطعام بالأصابع يعزى إلى التقاليد القديمة التي لا زالت متّبعة في زنجبار، إنما السبب الرئيس هو أنّني لم استطع أن أحصل على عدد كاف من الشوك والسكاكين للجميع.

أحضرت النرجيلات ما بعد الانتهاء من تناول الطعام، بالإضافة إلى السجائر

(1) كتب المؤلف: يوجد في مكّة مصنع صغير للثلج، والمثلجات، أو بالاحرى مزيج مثلج من الحليب المعلب، وماء ملتات، وبكتيريا الكوليرا، وتباع منتجاته في الاسواق. أما المشروبات الأخرى فيمكن الحصول عليها إن عرف المرء أين يطلبها.

والقهوة، فدخّنا وتحادثنا حوالي الساعة، حين غادر الجمع مرّة واحدة، والسبب في مغادرة الجميع مرّة واحدة هي إراحة المضيف من توديع ضيوفه فرادى.

إنّ الحاجّ ماجد صديق لشريف مكّة، والذي وعدني أن يعرّفني عليه. إنما للأسف اضطر إن يغادر إلى المدينة في اليوم التالي، موفداً بمهمة سريّة إلى القبائل، ولذا فلم أكن محظوظاً بالتعرف إليه.

سَرَت إشاعات متناقضة كثيرة عن الأمور في المدينة المنوّرة. أحدها تدّعي أنّ اتّفاقاً حصل بين المجموعات المتحاربة. في أوائل الشهر الجديد، توجّه ما تبقّى من قافلة انطلقت قبل ثلاثة أسابيع عائدة إلى مكّة المكرّمة وذلك لأنّها هوجمت ونهبت عند وصولها على مرمى حجر من المدينة المنوّرة. يبدو أنّ البدو اللطفاء الذين يهتمون بالقافلة، انطلقوا مستكشفين أمامها، وتبعهم حوالي نصف القافلة خلافاً للأوامر. ألقي القبض على هذا النصف، وتمكّن النصف الآخر من النجاة والعودة إلى مكّة. ونتيجة لتدخّل الشريف، تمّ الاتّفاق المؤقّت على السلام، لكنّي لست قادراً على سرد شروطه، ولا يظنّ أحد أنّه سيدوم طويلاً.

* * *

تسبّب ظهور القمر الجديد بكثير من الانفعال والنزاع. فإن رؤي الهلال في المساء الأوّل بعد التغيير فهو يجعل يوم عرفة يوم جمعة، حيث يُعدّ الحدّ حينها حدث عظيم، وتعادل الحجّة سبعة أضعاف في غيرها من السنين. ليس من المؤكّد إن كان الهلال سيبدو واضحاً في اليوم التالي للقمر الجديد، ولذا فلا يعرف الناس على وجه اليقين تاريخ يوم عرفة، وحتى لا يختار الحجّاج سنة حجّهم. في هذه الحالة، تسبّبت هذه المسألة في نقاش واسع النطاق. كان بعض الناس مستعدّين للشهادة بأنّهم رأوا الهلال، بينما ادّعى غيرهم أنّ هذا أمر مستحيل. وأجمع الأمر الوسط على الرأي الأوّل، والذي كان يبدو مسنوداً، وما فتئ الشريف أن أعلن هذا الأمر، فسعد الجميع بذلك.

خلال كلّ هذا الوقت توافدت أعداد هائلة من الحجّاج إلى المدينة، وازداد اكتظاظ

الشـوارع يومياً. منذ أسـبوع فقط، كان التنقّل في الشـوارع صعباً. أما صلاة الجمعة في الحرم فكانت حدثاً يفرض نفسـه على الرائي، فلا يوجد يارد مربع واحد من المسـاحة الكبيرة فارغاً، والحركة المتناغمة للحشد خلال الصلاة، والهدوء الغريب الذي يسود المـكان، يحاكي الخيال. ففي خلال السـجود، حين تلامس الجباه الأرض، لا تسـمع إلا هديل الحمام يقطع السـكينة، ثم حين يسـتوي مئات آلاف المصلين وقوفاً للركعة الثانية، تسمع خفخفة الملابس وقعقعة الأسلحة في فورة واحدة. وحين تنتهي الصلاة يندفع الجمع لأداء الطواف، وبعد دقائق قليلة يسمع هدير الدوامة البشرية حول الكعبة من مسافة بعيدة عن الحرم.

يطيـر هنا حمام مثلما ما يوجد في سـاحة سـان ماركو في ڤينيسـيا، وهـو أليف مثله تمامـاً، وتبـاع الحبوب في الحرم خصيصـاً لإطعامه، إنما يحصل الحمـام على الكثير مـن الطعام، فقليلاً مـا تنجح في إطعامه. دوّن بُرتون Burton مقولة أنّ الحمام لا يلوّث الكعبة كما هو متوقّع، وأعتقد أنّ هذا الكلام حقيقي، بغضّ النظر عن السبب فيه.

***

في أول يوم من شهر الإحرام، لُفّت عصبة قطنية بيضاء حول غطاء الكعبة الشريفة. وتبقى هذه العصبة في مكانها إلى يوم العيد، حين تُغيّر الكسوة نفسها. وترسل الكسوة الجديـدة مـع المحمل المصري سـنوياً حيـث أنّها تخاط فـي القسـطنطينية ويقال إنّها تكلّف 3,600 جنيهاً. تخاط الكسوة من قماش مزيح من الحرير والقطن، باللون الأسود الداكن، وتطرّز بلفظ الجلالة بخيوط من الحرير الأسـود على مسـافة قدم مربّع واحد. أما الكسوة القديمة فإنّها تقصّ إلى قطع صغيرة من أحجام مختلفة، وتباع، ويُستفاد من ثمنها لصيانة المسجد والبرّ والإحسان.

إنّ المسـجد في الحرم مميّـز حيث أنّه لا يحتوى على علامة للقبلـة. بما أنّ الكعبة نفسها هي الوجهة التي يولّيها المصلّون وجوههم، فإنّهم يشكّلون حولها حلقات حين الصلاة بـدلاً من الصفوف المرصوصة المعتادة في المسـاجد والمتوجّهة صوب مكّة المكرّمة.

من الممكن الدخول إلى الكعبة نفسها في مناسبات معيّنة، وقد نويت أن أفعل هذا. إنما القوانين المتعلّقة بالدخول أصبحت مشدّدة أكثر من ذي قبل. وقد أخبرني عبد الرحمن أنّ من يُسمح له بالدخول هو الرجل العاقل طاهر الذيل. وليس من المقبول الدخول إلى الكعبة دون النيّة لتكريس النفس للعمل الديني وترك ملاذ الدنيا ومتاعها ونبذ الشيطان. لم يكن هناك أي شيء داخل الكعبة ما عدا عمود وحيد من الخشب، ولم يحدث أن فُتح باب الكعبة في وجودي، إنما قال مسعودي إنّه رآها مفتوحة في مناسبتين مختلفتين، في أحدها دخل الشريف وحاكم مكّة إليها وكَنَسا داخلها.

***

وصل المحمل من مصر في بداية الشهر، ووصل معه وفد كبير من الجنود المصريين. كان من الغريب مشاهدة جنود باللباس الرسمي المعتاد وشرائط الميداليّات. سررت لملاحظة أنّ وصولهم كان متأنقاً أكثر من وصول الفرق التركية التي وصلت مع المحمل الشامي. إنّ هذا يترك أثراً إيجابياً للمناهج البريطانية حيث أنّها صنعت جنوداً جيدين من أناس مثل المصريين المعاصرين غير المولعين بالحرب. ولقد أعجب الجميع بتأنقهم وانضباط تدريبهم.

***

حان وقت التحضير لأداء مناسك الحجّ. كان علينا أن نفارق مكّة لأربعة أيّام كاملة، وعلينا تحضير مواصلاتنا وزادنا. اتفقنا أن لا حاجة للاقتصاد تحت هذه الظروف، وأنّ العدّة التي سنحضّرها علينا أن تكون على مستوى ما عُرف عني من مركز وثروة. فقرّرنا استئجار ثلاثة أباعر وثلاثة حمير للركوب، وإضافة خادم وخيمة ثانية كبيرة لاستقبال الزوّار. أعطيت عبد الواحد كامل الصلاحيات لمتابعة أمور المؤن، وبالطبع كان عمله باعثاً على الفخر. كنّا قد فقدنا مساعدة إبراهيم حيث أنّه كان يقوم بأداء مناسك الحج بالنيابة. باستطاعة المرء أن يقوم بالحجّ بالنيابة عن شخص متوفٍّ، وفي حالات معينة بالنيابة عن شخص لا زال على قيد الحياة. عندما وصل إلى مكّة المكرّمة، قام بالطواف منفرداً، وعلى الحاجّ أن يخرج من المدينة ويُحرِم من نقطة

خارجها. ولذا فإنه يقوم بكل الصلوات والشعائر الدينية باسم الشخص الذي ينوب عنه. ويؤمن الكثير من الطائفة الشيعية بفعالية هذا الأمر.

تتكوّن مناسك الحجّ من الآتي: في يوم معيّن من كل سنة، الثامن من شهر ذي الحجة، يترك كلّ مسلم عاقل صحيح الجسم المدينة قبل حلول الليل ويتوجّه إلى قرية اسمها مِنى، تبعد خمسة أميال إلى الشمال، ويبيت فيها ثم يتوجّه في صباح اليوم التالي للوقوف على جبل عرفة ويبعد تسعة أميال أخرى، ويبقى هناك إلى مغيب الشمس، وعند العودة، يبيت في «نمرة» وهي مكان وسط بين عرفة ومِنى. أما في اليوم الثالث فعليه أن يعود إلى مِنى في الصباح لرمي الجمرات على الشيطان ثلاث مرّات ثم يتوجّه إلى مكّة المكرّمة لأداء الطواف والسّعي، ويعود إلى مِنى للمبيت فيها. أما اليوم الرابع فهو يوم عيد ويُقضى في مِنى. وفي ظهيرة اليوم الخامس يعود إلى مكّة حيث يرمي الجمرات مرة أخرى.

ويستمرّ الإحرام من أول خروج من مكّة إلى أول عودة إليها، حينئذ ينزع الإحرام ويبدّل بأفضل هندام يستطيعه الحاجّ، ويكون جديداً ما استطاع. وعندما تكتمل تلك الشعائر، يُطلق على المرء لقب «الحاجّ» قبل اسمه أو بعده، ويميّز في حياته بعدئذ برداء الرأس والذي يختلف من بلد إلى آخر. ففي مصر يعتمرون العمامة الخضراء، أما في زنجبار فيرتدون قبّعات من القشّ الملوّن وعمامات تشابه ما يعتمر المطوّف، وهكذا دواليك. ولم أميّز أبداً الوقت المحدّد الذي يطلق فيه على المرء لقب الحاجّ. يعدّ البعض أنّ الوصول إلى عرفات هو الفصل في هذا، والبعض الآخر يؤرخ إطلاق اللقب عند تقبيل الحجر الأسود بعد الانتهاء من الطواف في اليوم الثالث. فالمريض الذي يزور مكّة في غير موسم الحجّ، أو أيّهم مُنع من مراسم الحجّ في وقتها بسبب المرض، لا يحصل على هذا اللقب. ولا يعفى سكّان مكّة من الحجّ كلّ سنة. فعليهم أن يقوموا بالرّحلة مع باقي الحجّاج، ولذلك فإنّ المدينة تبدو كالمهجورة في هذين اليومين.

ليس بالإمكان بحث أصول هذه المراسم في هذا المقام حتى لو كنت قادراً على

ذلك. وسأكتفي بالقول إنّ هناك سبباً لها، وغالباً ما يقال إنّ الأسباب غير مهمّة، إنما هذه هي مقولة المشكّكين دائماً في أي شعيرة دينية. وينطبق هذا على «العشاء الإلهي» عند المسيحيين وعيد الفصح عند اليهود، فكل ما سبق يقام تكريماً لأحداث سابقة ولديها مدلولات رمزية. وليس أسهل من التفكه فيها جميعها.

* * *

ما يشغل بال الجميع قبل الحجّ هو المرض، مثل وبائي الطاعون أو الكوليرا. وفي هذا الموسم بالذات كان الخطر مهيمناً أكثر من العادة، قياساً لما حصل في الموسم السابق. يبدو أنّ الوباء بدأ قبل شهر من الخروج من مكّة، واشتدّ أمره تدريجياً، إلى يوم عرفة حين اتخذ المرض صفة الوباء الفعلي. حينئذ أصبح خبيثاً جداً، وحصد في مِنى وخلال الأسبوع الذي تلا ألفاً يومياً. يواجه الخطر الدوري للأوبئة الفتّاكة وحصيلة الوفيّات بقوانين صارمة تمنع الناس الخروج إلى مكّة دون وقاية، وبتحسين الظروف الصحية على الفور. إنّ حالة الحجر الصحي الحالية لا تغني ولا تشبع من جوع.

وتعتبر الحالة الصحية هذه السنة جيدة، فالطقس بارد على غير عادة، وعديد الحجّاج ليس بالكبير، أما الحجّاج من الطبقة الفقيرة والذين يخيّمون في الهواء الطلق وفي ظروف غير صحية ويكونون مركز العدوى فهم أقلّ من المعتاد. وما عُرف عن الأمراض وقت «النّفور» هو لا حالات من الكوليرا أو الطاعون حصلت في مكّة مع أنّ حالتين من الطاعون سُجّلتا في جدّة. وإذا تفشّى الطاعون، مع أنّه قاتل أيضاً، فلا تخشى عاقبته مثل الكوليرا[1] وذلك بسبب بطء انتشاره والحشود المجتمعة في مكّة وهي مركز الخطر، تتفرّق فوراً بعد الحجّ.

* * *

توجّه بعض الناس إلى مِنى باكراً، يوم الثلاثاء، وفي ظهيرة يوم الأربعاء ازدحم الشارع المؤدي إلى مِنى والقريب من منزلنا بسلسلة متصلة من الجمال توافدت طوال

(1) كتب المؤلف: إذا ظهر الطاعون كوباء، فإن نتائجه ستكون وخيمة حقاً.

الليل وصباح اليوم التالي. أغلقت معظم المحلات والأسواق في مساء الأربعاء مع أنّ بعـض الحوانيت تابعت أعمالها إلى يوم الخميس، لكن في ظهيرة ذلك اليوم، توقّفت جميع أنواع الأعمال في السوق.

قرّرنا أن نؤخر خروجنا قدر المستطاع، أي إلى مساء الخميس. وتمركزنا على سطح المنـزل حيـث كان بإمكاننـا أن نرى الطريق والمشـهد الغريب فيه ذلـك اليوم. حوالي السـاعة الثانية بعد الظهر، مرّ المحمل الشامي، مرافقاً بكتيبة من الجيش وفرقة أخرى، حيث كان الجنود أيضاً مُحرِمين. وبعد فترة قليلة مرّ سـمو السـيد حسين، شريف مكّة، علـى جواد أبيض ووراءه وعلى مسـافة تدلّ علـى الاحترام، عائلتـه وأصحاب المقام الرّفيع، ومن ثم تبعهم حشد من حملة الرّماح على الهجن سريعة العدو الشهيرة، والتي تمتدّ سـلالاتها إلى زمن يماهي أصل الشـريف نفسـه. حين مرّ الشريف، حيّاه من كان واقفـاً على الطريق بسـلام خافت، ولاحظـتُ أنّه كان مهتماً بردّ السـلام على الجميع. ومع أنّه لم يكن يرتدي إلا مناشف الإحرام، فما فتئ الجلال يلوح على مُحيّاه.

أما المحمل المصري وحاشـيته فقد مرّ بعد فترة قصيرة من الزمن على ألحان نشيد «صخور عدن الجرداء» "Barren Rocks of Aden"، وتلته فرق الجيش التركية بألوانها وصوت موسيقاها.



الفصل التاسع
رحلة الحجّ

في حوالي الساعة الخامسة، ارتدينا إحرامنا بعد أن بدأنا بنيّة الحج. وكانت أمتعتنا وخدمنا قد انطلقت في الصباح، آملين أن نجد كل شيء حاضراً عند وصولنا.

ركبنا الحمير، والتي كانت دواباً حسنة كبيرة الحجم يزيد ارتفاعها عن إحدى عشرة قبضة، وانطلقنا مرافقين مع الحملداري الذي استخدمناه، واسمه جعفر[1] Jaffa، وابنه، والعجم الثلاثة القاطنين فوقنا. كان التقدّم بطيئاً في البداية بسبب ضيق الطريق، إنما بعد مغادرة المدينة، اتّسعت الطريق، وتسارعت خطواتنا حتى أنّ حميرنا استطاعت الخبب بعض الوقت. تميل الطريق صعوداً خفيفاً بين هضاب صخرية، وهي مرصوفة في بعض الأماكن إنما تفتقر إلى الاهتمام التامّ في بعضها الآخر. وصلنا إلى مِنى بُعيد الظلام، ووجدنا الطاهي، جعفر، منتظراً على الطريق.

اقتُدنا إلى خيمنا التي نصبت على مسافة قريبة وفي النطاق الخارجي للمخيّم الرئيس، وليس ببعيد عن المشاعل المتّقدة التي تحدّد مقرّ الشريف. وتناولنا طعام العشاء في رفاهية، ثم استمعنا إلى تلاوة من قائد مجموعة العجم، والذي كان من سلالة الرسول الكريم، وكان مثقفاً جداً. كان من الواجب أن نتوجه إلى جامع مِنى لصلاة العشاء، إنما قليل من يفعل هذه الأيّام حيث من السهل أن يتوه المرء وهو أمر غير محبّذ ما بعد هبوط الظلام. خلدنا إلى النوم باكراً مدركين أنّ اليوم التالي سيختبر قدرة تحمّلنا.

---

(1) كذا يرد الاسم بالحروف اللاتينية في أصل الكتاب: Jaffa، وأظنه محرّفاً عن جعفر فأثبتّه كذلك.

حللنـا المخيـم عند الفجر وأرسـلنا الخـدم والمتاع قبلنـا على الجمـال. لم أتوقع أن أجدهـم مـرة أخرى بعـد أن افترقنا، لكن بـدا جعفر الحملداري، الذي اسـتلم هذه المسـؤولية، واثقاً من سـير الأمور على ما يرام. توجّهنا إلى مِنى وانتظرنا سـاعتين في أحـد المقاهي قبل المتابعة. وأخيراً، انطلقنا حوالي السـاعة الثامنة. يغادر المرء القرية على طريق تتجه شـرقاً، باتسـاع حوالي نصف ميل، ما عدا فـي نقطتين حيث تقطع في ممـرّ بيـن الجبال، وتضيق إلى أن يصبـح عرضها مئتي ياردة فقط. بعد المسـير حوالي الساعة، توقّفنا عند أحد الأكشاك المنتشرة طوال الطريق لتناول طعام الإفطار.

يتطلّب إعطاء المشـهد حقّه من الوصـف مهارة لا أمتلكها. وأفضل توصيف يمكن الحصول عليه هو معرفة أنّ نصف مليون يجتازون مسـافة تسـعة أميال ما بين الشروق والساعة العاشرة من ذلك اليوم، وحوالي نصفهم راكبون مطيّاتهم ويرافق العديد منهم حمـار لأمتعتهـم. إنّ الهديـر المتصاعد من هـذا الطابور يضاهي صوت تكسّـر أمواج البحر، أما الغبار المتصاعد فهو يغطّي المكان على مسافة أميال. عند مرورنا بالمضيق الثانـي بين الجبال، أصبح جبل عرفات في مرمى الرؤية، وكان المشـهد أكثر غرابة من غيره. لقد غطّى الناس الهضبة بالسـواد ونبتت الخيم حولها بتسـارع في دائرة ما فتئت تتّسـع. وكلّما اقتربنا تعالى صوت النداء: «لبّيك اللّهم لبّيك» الذي كنّا نسـمعه منذ فترة من الزمن، إلى درجة أنّه غطّى على أيّ صوت آخر. كان من بعد يُسمع كأنه إنذار خطر من قوة ما، وكأنه همهمة زلزال يقترب.

أمّا جبل عرفات فهو هضبة بعلو أربعمئة قدم، هرمية الشـكل، تتناثر عليها الصخور الكبيـرة. وتنبع من سـفحها الينابيـع التي تغذّي مكّة بالماء. نُصبـت على القمة مصطبة مرصوفـة يعلوهـا بنـاء حجـري متطـاول. إنّ الأرض ما حـول عرفات وعـرة وجبلية، خصوصاً إلى الشـرق، إنما جبل عرفات نفسـه يقف منفرداً في وسـط السـهل المغطّى بالشـجيرات القصيـرة، يُنصـب المخيـم فيـه وحـول الهضبـة، ويمتد لمئـات الأميال المربّعة.

وجدنـا خيمنا على الفور، ويعـود الفضل لمهارة جعفر في الترتيب والدقّة في تنفيذ

أوامره. كان الموقع على حافة المخيّم، وهو أفضل مكان لأسباب عدّة، وكان الكثير من معارفنا مخيّمين قريباً منا. سيطر المرح على الجميع، ولم يكن هناك بوادر تجمّع ديني في تصرفات الحشود، بل كان الجو يقترح تجمعاً لحفلة في الهواء الطلق أكثر من أيّ شيء آخر.

استرحنا ساعة في ظلّ خيمتنا، ثم تسلّقنا إلى القمة لصلاة ركعتين نافلتين على المصطبة. لقد تجمّع الحجيج كلهم الآن، والمشهد من علو يعطي فكرة عن عددهم الكبير. من الغريب مقارنة هدوء هذه القمة وخلوّها من الناس في الأمس وهو ما ستكون عليه غداً وكيف ستبقى خلال السنة القادمة بما هي عليه الآن. وفي الحقيقة سيكون صعباً على أيّ مجموعة في أي يوم آخر القدوم هنا على طريق موبوءة باللصوص.

* * *

حانت صلاة الظهر عندما كنّا لا زلنا على قمة الجبل. أطلقت تحية عسكرية من ثلاثة وستين مدفعاً، وصدعت موسيقى من عدّة فرق، وصات الحشود إلى أن فقدت صوتها. كانت الفرق العسكرية تضمّ ثلاثة مدافع ذوات الست طلقات، وأسلحة مخصصة للجبال محمولة على البغال.

عند نزولنا من الجبل، لاحظنا بعض الأحواض الكبيرة الممتلئة بماء الينابيع، يستحمّ فيها الناس. عمّت الفوضى كلّ مكان على سفح الهضبة حيث يتجمع الحجّاج فقراء الحال، حتى الماء الذي كانوا يستحمّون فيه كان آسناً جداً. ليس من العجب العجاب أن تنتشر الأمراض المعدية في هكذا حالة، إنما من الغريب أنّ وباء الكوليرا، عندما يبدأ انتشاره، لا يحصد الحجيج أجمعين.

نُصبت سوق تبيع ألوان الطعام، بالإضافة إلى خيم المرطبات. تجوّلنا لبعض الوقت، إنما وجدنا أنّ شمس الظهيرة مرهقة فوق رؤوسنا العارية، فعدنا أدراجنا إلى خيمتنا لتناول طعام الغداء.

* * *

سرت إشاعة خلال النهار، وتأكّدت حقيقة في هذا الوقت. يبدو أنّ الطائفة الإمامية كانت مستاءة من حكم الشريف في القمر الجديد، وتوصّلت إلى نتيجة أنّ هذا اليوم هو ليس التاسع من الشهر، بل الثامن، ولذا فإنّ إقامة الشعائر في هذا اليوم باطلة. ولذا قررت الطائفة الإماميّة أن تبيت على عرفات وتنتظر على الجبل إلى مغيب اليوم التالي.

كان من الصعب تصديق أنّ رجالاً مثقفين واعين، مثل العجم الإمامية الذين تعرّفنا عليهم، يذعنون لأمر مثل هذا بكل تشدّد. إنّ العقل العجمي صعب دائماً في كشف كنهه. ومع أنّهم أكثر تحضراً في أمور كثيرة، فهم أكثر تعصباً وأقلّ منطقاً من غيرهم في معتقدهم الديني. أحد أحبّ ممارساتهم هي الحسينيات حيث يرثون موت الحسين، ويقرأونها أو يردّدها كبارهم بينما يجلس الباقون حولهم وهم ينوحون بحزن. ولكل مقطع بكاؤه الخاص، فعند سماع أحد المقاطع، عليك أن تنشق، وبعد قليل تجهش بالبكاء وهكذا. ولم يحاول أحد أن يدافع عن مقتل الحسين الذي هو بالفعل قصّة مأساوية، إنما تعدّ الطوائف الأخرى في الإسلام هذه الممارسات شيئاً غير مستحبّ. ولدى بعض الفرق الإمامية ممارسات خاصة في شهر محرّم: فهم من جملة أمور أخرى، يضربون أنفسهم ضرباً مبرحاً ويشقّون رؤوسهم بالسكاكين، ويقومون بأشياء أخرى كثيرة.

إنّ ضعف الإسلام سياسياً يرجع إلى الخلاف القائم حول موت هؤلاء الرجال ودفنهم منذ أكثر من ألف سنة مضت. وما هو منافٍ للعقل، لا بدّ من القول إنّ المسيحية اليوم منقسمة انقساماً شديداً حول مسائل من نوع تثبيت مركز البابا وعصمته، وهو موضوع يستجرّ نفس الموقف من المسلمين.

نتيجة للقرار المتّخذ من قبل مشايخ الإماميّة، بقي حجّاجهم، الذين يقاربون ربع الحجيج المتواجد هذه السنة، في مكانهم بينما رجع الباقون إلى نمرة. نصبت الخيم وحُمّلت الجمال في وقت قصير، إنما لن يغادر أحد حتى مغيب الشمس التامّ. وأخيراً، عندما أعطى الشريف إشارة الرحيل، أطلقت تحية من المدافع، وفي دقائق

قليلة تدفّق الجميع في السهل وتجمّعوا على أول ممرّ علينا اختراقه. كان هناك جمهور هائل محتشد في الأجزاء الضيّقة مع تهديد بفقد الحياة أو تكسير أطراف، إنما نجحنا في البقاء معاً والنجاة من الأخطار. وصلنا إلى فسحة أمام مسجد نمرة بعد رحلة دامت ساعتين حيث حططنا الرحال إنما لم ننصب الخيام. ولم يجتمع شمل الحجّاج عند منتصف الليل، ولو لم نكن جدّ متعبين لكان الضجيج والغبار منعا عنا النوم منعاً باتاً.

***

توجّهنا إلى مِنى قبل شروق الشمس ووصلنا حوالي الساعة السابعة والنصف، وكنا محظوظين في تأمين مكان مناسب لخيمنا غير بعيد من خيمة الشريف ومقر الجيش. أول الشعائر التي علينا قضاؤها كانت رمي الجمرة الكبرى، حيث جمع جعفر ومسعودي الحصى في الليلة السابقة من نمرة، ثلاثة وستون حصاة للشخص الواحد. إنّ الرمي يكون على ثلاث مراحل: الأكبر والأصغر والأوسط، في مواقع كانت بها ثلاثة أصنام دمّرت على يد الرسول. إنّ شعيرة رجم الشيطان هذه ترمز إلى إنكار الأوثان والتبرّؤ منها. وأعتقد أنّها بدأت بعد أن واجه الرسول صعوبة في اجتثاث الاعتقاد بالخرافات بشكل تام. ومع أنّ الناس قد صبأوا عن آلهتهم، فما زال بعض الخوف منهم يتملّكهم ولم يكونوا مستعدّين تماماً أن لا يظهروا بعض الاحترام لهم. ولذا فإن الرسول حمل أتباعه على رمي الجمرات على رموز الجاهلية ليقنعهم ببطلان هذه المخاوف.

إنّ الموقعين الأوّلين للشيطان في الشارع الرئيس في مِنى، أما الثالث فهو يبعد قليلاً إلى جهة اليمين على الشارع المؤدّي إلى مكّة. تتكوّن المواقع هذه من عواميد من الحجر تنتصب في حوض مثل حوض نافورة الماء. وحين وصلنا لنأخذ دورنا كانت المواقع محاطة بحشود متزاحمة ترتفع منها أيد ملوّحة وتغطّى بسحابة من الحصى. وقد مرّ وقت طويل قبل أن نتمكّن من أن نكون في مجال الرّماية، وفي النهاية اضطررنا أن نرمي من مسافة بعيدة وبقوّة وكانت النتيجة أنّ معظم ما رميت لم يصل هدفه. ليس هناك من ضرورة أن تصل الحصيّات إلى هدفها، إنما إن لم تصل، فلا بدّ أن تصيب

أحدهم. والمتحمّسـون الذين يقتربون كثيراً في الصفوف الأمامية كثيراً ما يعانون وقتاً عصيباً، أحدهم كان قريباً مني شُقّ خدّه وأصيب مسعودي بجرح في أذنه.

كان الزحـام شـديداً لدرجـة أنّنا احتجنـا إلى أكثر من سـاعة لنصل إلـى موقع رمي الجمرات، ولم نعد إلى خيمتنا إلاّ عند الظهيرة. أخذنا قسـطاً من الراحة وتناولنا طعام الإفطـار قبـل أن نخرج ثانيـة لنضحّي. على كل حـاجّ أن يذبح أضحية فـي هذا اليوم، وعـادة مـا تكون خروفاً أو ماعـزاً. ولا حرج في أكل لحوم الأضاحـي أو توزيعها على الفقراء. عندما بيّن الرسول هذه القاعدة لم يكن ليعرف الأبعاد التي سيصل إليها الحجّ، حيث أنّه في هذه الأيّام تُذبح أعداد هائلة من الحيوانات دون فائدة. كانت الذبائح تترك للعفن في مكانها من قبل، والنتيجة أن تصبح مِنى غير صالحة للسـكن لبعض الوقت. إنما في السنين السابقة، حُضّرت حفرة كبيرة لاستقبال الذبائح في آخر النهار.

ومـن جرّاء وبـاء الكوليرا في العام الفائـت اتُّخذت تدابير وقائية غيـر اعتيادية لهذه المناسبة. فقد جُمعت الحيوانات في بقعة معينة تبعد حوالي ربع ميل من خيمتنا. على صاحـب الذبيحـة أن يتصرّف فيها فـوراً وإلا رميت في إحدى الحفر، ولا يُسـمح لأيّ كان أن يخرج حيواناً حياً من المكان. اتُّبع هذا الأمر لمنع الذبح في المخيم لما فيه من مخاطـر على الصحة. وجُعل عدة حراس في نقاط مختلفـة لفرض هذا النظام الممتاز مع أنّه كان مزعجاً.

أردنـا تنـاول بعـض اللحوم، وكان من السـهل أن تسـوق حيواناً علـى قدميه من أن تحمله ميتاً مسافة ربع ميل. وقع نظري وابن الحملداري جعفر على خروف سمين جداً وقرّرنـا أن نأخـذه معنا، وبما أنّنا لا ننوي أن نحمله فقد رشـونا أحد الحراس ليتغاضى عن مروره. إنما لسـوء الحظ، وفي طريق العودة لفتنا نظر أحد الأطبّاء المسـؤولين عن الترتيبـات الصحية، فهرع إلينا على ظهر جواده، وأسـاء لنا بالـكلام وأجبرنا أن نرجعه من حيث أتى، ووعدنا أن يذيقنا طعم لسـع السـوط إن عدنا إلى هذا ثانية، وأعترف أنّ براقش جنت على نفسها. وبالطبع، اضطررنا أن نرسل الخدم لإحضار بعض اللحم.

تكلّف الشاة دولاراً واحداً وما فوق، وتباع من قبل الرعاة البدو القادمين من المناطق

المحيطة والذين يريدون الاستفادة من الموسم، حيث يضحّى بنصف مليون من الشياه على الأقل كل سنة في هذا اليوم.

ثمّة حادثة شهدها جعفر في العام الفائت هنا توضّح حالة انعدام الاستقرار في هذا البلد. لقد أحضر تركيّ شاة، وحين كان يدفع ثمنها، أظهر حزاماً متخماً بالنقود، فانتزع البدوي الحزام منه على فجاءة، والتقط حافته وحاول تحريره من صاحبه. تمسّك التركي بقوّة بالحزام إنما شهر عليه البدوي خنجراً وشقّ بطنه طولاً بضربة واحدة وأخذ الحزام واختفى بين الناس. حصلت هذه الحادثة في مخيم من نصف مليون من الناس، وبوجود حرس وخفر في الأنحاء! أطلق بعض الناس النار على المجرم، إنما أخطأوه واصابوا من غيره مقتلاً، وبالطبع لم يكن أحد يفكر باللحاق به في الزحام.

* * *

انتهى عملنا في مِنى عند إنتهائنا من ذبح الأضحية ومن غير الضروري أن نقوم بالذبح بأنفسنا، وأصبح باستطاعتنا التوجّه عائدين إلى مكّة. أحضرت حميرنا وانطلقنا ظهراً مباشرة بعد الصلاة. وبالطبع كانت الطريق مكتظّة واضطررنا إلى أن نسير ببطء شديد في النصف ساعة الأولى.

كان مظهر المدينة غريباً حقاً: كل شيء كان مغلقا، أقفلت الحوانيت والبيوت بالمزلاج، إنما كانت الشوارع مزدحمة بالناس. وصلنا إلى الحرم مغبرّين ونشعر بالحرّ الشديد، اتفقنا مع مطوّف وأدّينا طواف الوداع ثلاثتنا. وكانت لدينا صعوبة في تقبيل الحجر الأسود، حيث أنّ الكعبة قد ارتدت رداءها الجديد ولم يترك حول الحجر إلا فجوة صغيرة تتسع لرأس واحد. تجمّع حول الحجر مجموعة من العرب البدو الذين شققنا طريقاً لنا من بينهم، إنما لم يكن عبد الواحد مستعداً أن يكسر ضلعاً في هذه المغامرة فبقي بعيداً. ذكّرني الموقف برياضة كرة القدم الإنكليزية في ونشستر. أخيراً، تمكنت من إدخال رأسي وقبّلت الحجر، إنما العنف في ذلك ترك ندبة في رأسي وحرمني من بعض الجلد في مناطق مختلفة من جسدي، وخسرت غطاء كتفي. كنت أكثر حظّاً من بعضهم، حيث فقد قطعتي الإحرام وخرج عارياً تماماً مثيراً ضحك من حوله.

استردّ مسعودي ثوبي ثم توجّهنا لأداء السّعي بين الصَّفا والمروة. هذا السّعي هو تكرار لما قمنا به عند وصولنا، إنّما سنحتاج إلى وقت أكثر لقضائه بسبب الزحام، حيث لم نستطع في بعض الأحيان أن نتقدم خطوة. اختلطت الأصوات بعضها ببعض، فمنهم من يتلو دعاءً، ومنهم من يطلق التوجيهات للبقاء معاً، ونسوة يعترضن على مدافعتهنّ في الزحام، ورجال يتمتمون، : «اللهم إنّك تعلم - ما لم نعلم - على مهلك يا أخي! - لا حول ولا قوّة إلا بالله! - إهدنا الصراط المستقيم» وهكذا. تبعنا أحدهم، وهو هندي، يبدو أنّه أضاع مطوّفه، فبقي وراءنا فترة من الزمن يثغو كأنه شاة ضائعة: «اللهم، احشرني مع الأشرار». وبالطبع كان يقصد بقوله العكس تماماً (مع الأخيار).

بعد إتمامنا السعي السابع أخذنا إلى شيخ كبير في السن يحمل بيده شفرة، وبعد أن سأل عن إسمي وطائفتي حلق إنشاً مربعاً من شعري فوق هامتي، مرتلاً دعاءً كان عليّ أن أردّده وراءه. كان الدعاء لنهاية حالة الإحرام والعودة إلى الحالة المدنية المعتادة. وبعد أن انتهى منّي، أعاد العمل عينه مع مسعودي. وعدنا أدراجنا إلى المنزل مشياً على الأقدام بعد أن نقدناه والمطوّف على خدماتهما، حيث كانت الحمير قد غادرت لتناول طعامها.

* * *

كنا أول العائدين إلى المنزل، فجيراننا العجم ما زالوا على عرفات، ولم يكن في المنزل إلا عبد أسود مسؤول في غياب أصحابه. واجهنا صعوبة في الحصول على الماء اللازم للاستحمام الذي كنّا نحلم به، فالأنابيب كانت مسدودة. لذا اضطررنا أخيراً أن ندفع روبية واحدة للحصول على جرابين من الماء. تنفّست الصعداء عندما خلعت ملابس الإحرام، والتي من الممكن استعمالها كمناشف، مع أنّ بعض الناس يفضّلون أن يحتفظوا بها كذكرى لهذه المناسبة العظيمة، فيغسلونها بماء من البئر المطهّر. لا ريب أنّ هذا الزيّ غير مريح أبداً، وإذا كان المغزى منه هو المعاناة، فإنه يخدم هدفه بالتأكيد. كان ظهري محروقاً من التعرّض للشمس وكذلك رأسي.

علينا الآن أن نرتدي أفضل ملابسنا، وقد حُضّرت لنا بذلات جديدة للمناسبة تبعاً

للعادة. يعود هذا إكراماً للعيد من ناحية، ومن ناحية أخرى للاعتقاد بأن الحاجّ الجديد لا بد وأن يبدأ حياته بثوب نقيّ، حيث أنّه قد غُفر له ما تقدّم من ذنبه، والثوب النقي يرمز إلى حالته الروحانية الجديدة. إنّ أداء الحج لهو مناسبة جيّدة لتغيير العادات القديمة والبدء من جديد.

ارتديتُ ثوباً أبيض اللون، وجبّة سوداء، وحزاماً ذهبياً مزيّناً بخنجر، أما مسعودي فقد ارتدى زيّاً مناسباً من زنجبار ويدعى كانزو Kanzu، مكون من معطف عسكري (قديم الطراز بالطبع، حيث أنّي كنت قد دفعت فيه عشرة جنيهات من سنين خلت) بالإضافة إلى ثوب مطرّز بالذهب خاص بمسقط والبلاد التي كانت تتبع إليها ويسمى joho. أما عبد الواحد فقد بدا صفراوياً بقفطان أصفر اللون اشتراه من دمشق.

* * *

عادت الحمير إلى المنزل، فتوجهنا إلى مِنى قبيل مغيب الشمس. ولم نكد نبتعد كثيراً حتى وقع مسعودي مغبّراً أناقة مظهره، وفوراً تبعه عبد الواحد في السقوط وكانت سقطته السابعة في ثلاثة أيّام. كانت الحمير مرهقة للغاية تجرّ أقدامها جرّاً. وعندما أسرعنا الخطو كان دوري في السقوط. إنّ الحمير هنا لا تُسرج ولا يوضع لها ركاب، إنما تربط كومة من قطع القماش، عادة ما تكون مطرّزة بألوان زاهية، على ظهرها، وهي أكثر راحة من السرج، إنما ليس بالسهل التشبّث بها خصوصاً عندما يكون الركوب على جانب واحد حفاظاً على الزيّ.

وصلنا إلى مِنى مع تحية المدافع معلنة صلاة العشاء. تطلق إحدى وعشرون طلقة من كل فرقة على أوقات الصلوات الخمس كل يوم خلال أيّام العيد. وبما أنّنا كنّا متعبين جداً، فقد توجهنا إلى النوم مباشرة بعد تناول طعام العشاء.

كبيرة هي خيمتنا، بقطر خمسة عشرة قدماً، ونام ثلاثتنا بنفس الطريقة: رؤوسنا إلى الحلقة الخارجية، وأقدامنا متوجّهة إلى الوسط. جمعنا ما نحمل من أمتعة واغراض متفرّقة في وسط الخيمة، وأهمها كان كيساً بنّيّ اللون فيه حوالي خمسة جنيهات من

الذهب، ومصحف جميل الصنع اشتريته بثلاثين شلناً قبل خروجنا بيومين، ومسبحة من الكهرمان، بالإضافة إلى مسدسين احتياطيين. ويبدو أنّنا استغرقنا في نوم عميق، حيث أنّ مسعودي، الذي استفاق أوّلاً، لم يجد الكيس في مكانه، بالإضافة إلى أشياء أخرى مفقودة منها عمامته الجميلة الجديدة. دلّت الآثار على الرمال والفجوة في جانب الخيمة على كيفية دخول اللص إلينا. أسقط في يدنا، فلم يكن بمقدورنا أن نفعل أيّ شيء، إنما هذه الحادثة تثبت جرأة اللصوص. فالدخول إلى خيمة فيها ثلاثة رجال مسلّحين نائمين في مخيّم جيّد الحراسة وتجريدهم من ممتلكاتهم يُعدّ عملاً ذا جرأة لا متناهية. وبالحقيقة، كنّا محظوظين، فلو تحرّك أحدنا بينما كان اللص داخل الخيمة، فإن طعنة خنجر ستطيل نومه إلى يوم القيامة. وهذا هو السبب في عدم تحرّك النائم الذي يعيش في أماكن مماثلة عند استيقاظه حتى يستعيد وعيه تماماً. وليس من الآمن أن تمسّ عربياً من الصحراء تريد إيقاظه. وبالطبع، لو كنّا ذوي حظّ لكشف السارق في حينه، ولكان أردي قتيلاً بطلقات نارية. لقد حُذّرنا عدة مرات من هذه الأخطار، ولم ننم أبداً بغير أسلحة جاهزة للاستعمال قريبة منا.

في طريق إيابنا، مررنا بمجموعة من تسعة عشر لصاً مقيدين بعضهم بالآخر ومتجهين إلى مكّة. أعدم ستة منهم رمياً بالرصاص، وقطعت أيدي الباقين. تعتبر هذه الطريقة بربرية عند الأوروپيين إنما يصادق عليها من يتّبع المنطق في هذه البلاد. فلا بد من إجراءات عنيفة عند التعامل مع آفات خطرة.

كان فقدان الكيس مزعجاً جداً، حيث لم يكن باستطاعتي أن أعوّض ما كان فيه. كانت تلك السبحة التاسعة عشرة التي فقدت في هذه الرّحلة. وكان تقصيراً مني تركها مرمية أينما كان، وأصبح الأمر محطّ كلام لمسعودي.

* * *

كان يوم الأحد يوم العيد. ارتدى الجميع أفضل ما عندهم، واكتسى المخيّم بأبهى المظاهر. توجّهنا في الصباح لنشهد تقديم الهدايا للشريف. كان مخيّمه على مصطبة مرتفعة، ويشتمل على أربع خيام كبيرة وعدّة خيام صغيرة. اصطفّ الحرس

صفـاً واحداً مكوّناً ممراً يمنع تدافع الحشـود. وتجوّلت الفرق الموسـيقية في المكان المفتوح بين صفّي الحرس. وصل الأعيان واحداً تلو الآخر مع مرافقيهم، واسـتقبلهم الشـريف جلوسـاً على منصة في صدر أكبر الخيم. تكوّن القادمون من وفود من البلاد الإسـلامية، وحاكـم مكّـة، وبعض الملوك المسـلمين من الهند وغيرهـا، وغيرهم من مرموقـي المناصـب. عندما اجتمع الجميع وجلسـوا، وصل موفد تركـي مع هدية من السـلطان محمولة على طبق من ذهب. ليس باسـتطاعتي معرفة ما كانت الهدية، حيث غُطّيت بقطعة من القماش، إنما قيل لي إنّ العادة المتّبعة أن تكون بضعة آلاف نقداً. قام الشريف إلى حافة المنصّة لاستقبال زائره ثم رافقه إلى مجلسه.

حينما انتهت المراسيم ورحل الموفد التركي، تقدّم أشراف مكّة والحجّاج من بلاد أخرى لتحيّة الشريف. في الحقيقة كانت هناك ترتيبات جيّدة لاستقبال من يودّ السلام عليه. توجّه مسـعودي إلى منصّة الاسـتقبال إنما أحجمت أنا أن اذهب خوفاً من أسئلة عن شخصي تحرجني.

إنّ الشـريف، السيّد حسـين، رجل محبوب. لقد استلم منصبه منذ مدة قصيرة خلفاً لأخيـه الذي اسـتغنت الحكومة التركية عن خدماته. وممّا شـهدته، أعتقد أنّه يسـتحق التقديـر الـذي هـو عليه. فهـو جمع بيـن مهابة مركـزه، وتقاليـد الرسـول القديمة كما الخلفاء الراشـدين الذين كانوا منفتحين على الجميع مطبّقين نظرية الإخاء والمسـاواة التي علّمها القرآن. إنّ الشـرفاء الذين سـبقوا السـيّد حسـين لم يكونوا ليسمحوا لأحد أن يجلـس فـي حضرتهم، وكانوا ميالـيـن إلى أن يعاملوا من هم أدنـى منهم رتبة كأنّهم سَقَط.

كنا نجلس في خيمتنا ندخّن ونسـتمع إلى رواية مسـعودي عن اسـتقبال الشـريف، عندمـا هبطت علينـا مصيبة. كان جانـب الخيمة مفتوحاً فـي حرّ النهـار كالعادة، وكنا جالسـين القرفصاء على الحصيرة. سمعت شـهقة تعجّب من مسعودي ورأيته متسمراً يحملق ما فوق كتفي. اسـتدرت لأرى سـبب تصرّفه، فرأيت على بعد بضعة أقدام منا ثلاثة رجال من مومباسـا السّـواحليّة هم الذين صادفناهم في المدينة المنوّرة، ومعهم

كيبي ورجل آخر لا أعرفه. كان من المستحيل أن يخطئوا رؤية مسعودي، وإن فعلوا فسيدخلون الخيمة لتحيته، حينها سيتعرف عليّ احدهم بكل تأكيد. أما الهروب فهو مستحيل، كنت على ثقة أنّ النهاية قد حانت. إنما كانت الشمس تبهر أبصارهم فلم يروا شيئاً، وبعد لحظة صمت تابعوا مسيرهم. وعندما أداروا ظهورهم لنا أسرع كلانا وخرجنا من الخيمة واختلطنا بالجمع.

كنت على علم بوصول هؤلاء، فقد تحقّق مسعودي من وصولهم مع المحمل الشامي. وفي هذا الحشد، هنا في مِنى، كانت فرصة الالتقاء بهم نادرة جداً، فلم أتّخذ التدابير اللازمة لتجنّب رؤيتي مع مسعودي. لا أستطيع التكهّن بما قد يحصل إن رأوني. لم تكن نقودنا قد نفدت بعد، ولا أظنّ ثمّة صعوبة في إيجاد وسيلة ما لشراء صمتهم، على كل حال لدينا كافة الأسباب لنكون شاكرين أنّ الحاجة لهذه الوسيلة لم تأت.

* * *

بالرغم أنّي لم أتعرّف على الشريف شخصياً، فقد حصلت على دعوة منه لنفسي ومن يرافقني للانضمام إلى أتباعه في الصلاة. إنّ الدعوة هذه تُقدّم إلى عدد كبير من علية القوم من الحجّاج، وربما ندين بها إلى بعض أصدقائنا من أهل مكّة أو حتى إلى الحملداري.

خلال فترة بعد الظهر، استقبلنا بعض الزوار الذين قدّموا التهاني بما يشبه تهاني العيد المجيد، ولتهنئة الحاجّ علي والحاجّ مسعودي على أداء فريضة الحجّ بنجاح. كان الموضوع الرئيس للمحادثة لون العلم المرفرف فوق مبنى الحجر الصحي. فالعلم الأحمر يعنى أنّ كل شيء على ما يرام، أما إذا تغير إلى الأصفر فهو يعني تفشّي داء الكوليرا أو الطاعون. وهذا يؤثّر على الجميع بنفس الطريقة عدا عن خطر المرض نفسه، فعلى الكل أن يخضع لقوانين حجر صحية مزعجة عند الرحيل. أما إذا كان الحاجّ «نظيفا» فان هذه القوانين تلين كثيراً.

* * *

سرنا في المساء إلى القرية ورمينا الجمرات مرّة أخرى. وصادفنا الشريف ومجموعته عائداً بعد الانتهاء من هذه الشعيرة. كان الجميع مرتدياً أبهى الحلل، فالشريف وبقية العرب ارتدوا الأثواب المطرّزة بالذّهب، والأتراك في بزّتهم العسكرية، والباقون في الزيّ الشعبي لبلده.

إنّ مجموعة البدو الهجّانة الذين يرافقون الشريف دائماً، رجال لا بأس بهم. أما الهجن فهي من نوع معروف بسرعتها وجمالها وتختلف في مظهرها عن الجمل العادي كما يختلف الجواد الذي يفوز بالسباق عن الحصان الذي يجرّ العربات. إنّها تحمل البريد من مكّة إلى جدة في حوالي ثلاث ساعات. إنه لمنظر جميل أن ترى محارباً عربياً على جمله، مدجّجاً، مع أني لا أعرف كيف يمكنه أن يلتزم مكانه عندما تعدو الجمال بسرعة فائقة.

استفسرت إن كان ممكناً ابتياع أحد هذه الجمال، وقيل لي إنّه ممكن إنما مع بعض الصعوبة، وإنّ ثمن هجين صغير (قاعود) من أجود الأنواع قد يصل إلى مئة وخمسين جنيهاً. مع أنّ جمل الركوب من أفضل الأنواع قد يصل ثمنه إلى خمسين جنيهاً.

بعد رمي الجمرات الأخير، زرنا مسجد مِنى الذي لم يكن مثيراً للاهتمام. كانت ساحته مزدحمة بالفقراء المخيّمين هناك، وكانت معكّرة جداً. في العام الفائت كانت الساحة مليئة بالمرضى والأموات، وكانت مركزاً حاضراً للعدوى. من الغريب أن يسمح للناس أن يلوثوا مكاناً بالطريقة المقززة التي يقومون بها. وتكاثرت الشكاوى عن هذا الموضوع في الأعوام السابقة إنما ما من اجراءات اتّخذت.

أطلقت الألعاب النارية في المساء، ولفتت النظر بكميتها لا بنوعيتها، وعلا الغناء والموسيقى إلى ساعة متأخرة من الليل.

* * *

كان اليوم التالي يوم الإفاضة إلى مكّة، إنما لا يغادر أحد إلا بعد صلاة الظهر. وعندما أطلقت تسعون طلقة من المدفعية معلنة دخول وقت الصلاة تدافع الجميع

للرحيل. اكتظت شـوارع مِنى الضيقة وكان المرور صعباً، وأصيب الكثير من التدافع. انطلـق ثلاثتنا على الحمير مع بعضنا، إنما سـرعان ما تفرّقنـا. نجا عبد الواحد بصعوبة بعـد أن وقع حمـاره، ورمي هو تحت أقـدام جمل مرّ من فوقـه، وكان محظوظاً أنّه لـم يدسـه. كان علينا أن نرمي الجمرات مرة أخرى، إنما تحت ظروف أصعب وأخطر من قبل. تركنا مِنى قبل الواحدة بربع سـاعة، إنما لـم نصل إلى منزلنا إلا عند الخامسـة بعد الظهـر تقريبـاً. كان عبد الواحـد الأوّل في الوصول وآخرنا مسـعودي الذي وقع وفقد حمـاره فـي المعمعة. كنت أكثر حظّاً من كليهما، حيـث أنّي وصلت دون أيّ خدوش. ولـم تصل جمالنا إلا بعد هبوط الليل، وكنا محظوظين أنّها وصلت، بالمقارنة مع حالة الطريق.

إنّ السـبب لهـذه المخاطر يعود إلى أنّ وجوب خـروج الحجاج من مِنى بعد صلاة الظهر وقبل المغيب. كان هذا معقولاً عندما كان عديدهـم بضعة آلاف، إنما التقيد بهذه القاعدة الآن أصبح محالاً. يصاب كل سـنة الكثير من الناس دون أسباب. وينطبق هذا على كثير من الشعائر الأخرى مثل الأضحية التي تضيع هدراً في اليوم الثالث. إن دُفع مـال الأضاحي نقداً لجهة برّ وإحسـان أو صُرف في أعمال أخـرى لكان أفضل بكثير، وإن كان على الحيوانات تلك ان تذبح، فلها أن توزع على مدار السـنة وتكفي لإطعام كل فقـراء جزيرة العرب. ومن الواضح أن الرسـول لم يكـن ليقصد من تبيانه للأمر أن تكـون الأضحية هي الخطـر العام على الناس كما هو الحال عليه الآن، وعلى الأرجح أن ما قصده منها كان تأمين الطعام للجميع يوم العيد.

* * *

يختتـم الحـجّ بالإفاضـة إلى مكّة، وسـأمرّ علـى الوقت الـذي قضيناه هنـاك مرور الكـرام. كنت مسـتاءً لمعرفتي أنّنا لن نسـتطيع المغادرة كما خطّطنـا، أو حتى في اليوم التالي. وكان السـبب أنّ معظم الفرق العسكرية التي تحمي الحصون على الطريق إلى جدّة طُلبت إلى مكّة لأسـبوع كامل، وتُعدّ الطريق دون حراسـة غير آمنة. كنت مصممّاً علـى المجازفة والخروج على طريق دون حراسـة، إنما كانـت الأوامر صارمة في منع

أحد من ترك المدينة حتى إشعار آخر، وأُكّد لي أننا سنُمنع من السفر ونُجبر أن نعود أدراجنا إن حاولنا. كان هذا إجراءً جيداً حيث أن الخطر لم يكن وهمياً بأي حال من الأحوال، ولدى الحكومة كل الحق في اتّخاذ التدابير التي تراها مناسبة للحفاظ على أمن الحجّاج الذين يعتمدون عليها في ذلك، إنما ما فتئت هذه التدابير مزعجة.

لم يكن هناك أيّ شيء نفعله، فقد رأينا كلّ ما كان هناك للرؤية ولديّ أسباب جيّدة حتى لا أحبّذ التأخير. وما زاد الأمور تعقيداً أنّ الحاكم قرر أنّ عدم تفشّي أيّ أمراض في المدينة سبب لإعطاء رجاله الذين كدّوا في العمل يومين من الراحة قبل متابعة أعمالهم. فلو تفشّت الكوليرا، لكانت رغبت السلطات في التخلص من وجود الحجّاج بأسرع الطرق، ولم يكن هناك حاجة لتلك السرعة هذه السنة.

وكانت النتيجة أن نتأخر بالرّحيل ستة أيّام كاملة، والتي لم تكن سيئة إجمالاً، ففي الحقيقة، عدا عن رغبتي العارمة في ترك المكان، كان عليّ أن أتمتع بالبقاء. لقد أصبح لدينا عدة أصدقاء ولم أعد أشعر أنّي غريب أو أنّه علي أن أتصرّف بشكل رسمي كما كنت من قبل. ابتعت تذكاراً أو اثنين بما تبقى من مالي الذي ينفد سريعاً، من بينها سجادة جميلة الصنع جُلبت من بغداد من قبل أحد الحملداريين. في الحقيقة حصلت عليها كهدية إنما من النوع الذي يُقبل وعلى صاحبها رد الهدية بالمقابل بنفس الثمن أو بأثمنه.

صُعقت عندما عرفت تكلفة رحلة الحجّ الإجمالية. فبعد دفع تكلفة الحمير، والجمال، والخيام، والخدم، وما دفعت للحملداري مقابل خدماته القيّمة، وعدة مصاريف أخرى تتعلق بالحج، كانت الفاتورة كبيرة. عندما سدّدت كلّ ما عليّ، تبقّى معي عشرون جنيهاً فقط عليّ أن أدفعها أجرة طريق العودة إلى جدّة ومن ثمّ كلّ إلى بلده. أنفق مسعودي مدخّراته القليلة على الصدقة، أما عبد الواحد فقد أنفق ماله جميعه منذ فترة حين ابتاع هدايا لأصدقائه في ألمانيا، ولم يكن باستطاعتي أن أعتمد عليهم في مساعدة مالية. كان باستطاعتي أن أستدين المال اللازم، إنما فضّلت ان أجمع المال في جدّة، ووجود كيبي معنا كان نفقة إضافية، إنما كنت مصمماً على الوفاء إذ وعدته بذلك.

الحادثـة الوحيدة التي تُذكر في هذه الفتـرة هي إلقاء القبض مجموعة الحملداريين الآتين من بغداد وإيداعهم السّجن. لم أعرف السبب لذلك، إنما أظن أنّه حول مخالفة قانـون الحكومة بالنسـبة لاستئجار الجمال من البـدو. ثم أطلق سـراحهم جميعاً قبل مغادرتنا. كان هناك عدد لا بأس به من الحجاج متوجّها إلى المدينة المنورة، من بينهم معظم العجم الذين أرجأوا زيارتهم للمدينة لما بعد الحج. لا أشـك أن صديقنا حمزة استفاد من وجودهم هناك. وبما أنّنا قد قمنا بزيارتنا مسـبقاً، فقد كثرت استشـارتنا عن أفضل المنازل وأمور اخرى، وكان من دواعي سرورنا أن ننصح بمنزل إيمان.

* * *

أخيراً، في مسـاء يوم الجمعة، أعلن المنادي أن من يود التوجّه إلى جدّة باسـتطاعته أن يفعـل فـي أي وقت شـاء. كنّا قد أنهينـا إجراءات السـفر ولذا كان ممكناً أن نسـافر في فجر اليوم التالي. ولأسـباب عدّة، قرّرت أن اسـافر مع عبد الواحد راكبين الحمير، وأدع مسـعودي وكيپـي يصلـون مع الأمتعة على الجمـال الثلاثة. أعلـم أنّ عدد الأيّام أصبح مهماً الآن بالنسـبة لموعدي بلقـاء أخي في مصر، وأملت إن كنت في عداد أول الواصلين أن أكون مستعداً للصعود إلى السفينة حين وصول مسعودي.

أُبلـغ كيپـي أن يكون مسـتعداً منذ عـدة أيّام، وأحضره مسـعودي إلـى المنزل تلك الليلـة. لـم يتعرّف علي مباشـرة، إنما فـي النهاية عرفني عندما كنّا في جدّة. اسـتخدمنا أحـد أصحاب جعفر العرب لمرافقة مسـعودي، الذي كان مفتقراً إلى المال، فدفعنا له دولاراً واحـداً وأعطيناه جملاً للركوب. استحسـنت الفكرة لأنه يعرف ما يجب فعله، على النقيض من مسـعودي، ولحسـن الحظّ كان هذا التدبير مناسباً فلو لم أفعل لكانوا تأخّـروا في الوصول عـدة أيّام. إنّ الجمّالين، كما علمنا عنهـم بالتجربة، هم مجموعة من أسوأ اللصوص، ويفتعلون المشاكل للكسب في أيّ فرصة تسنح لهم.

قمنـا بـوداع الحـرم الشـريف متفرقين تلـك الليلة، فقـد كنّا منهمكين فـي توضيب أغراضنـا والتحضيرات الأخيرة للرحيل. نقدنا جعفـراً الطاهي، وإبراهيم وبقية الخدم مالهـم، وسـررنا أن نعـرف أنّهم وجـدوا عملاً مـع مجموعة من الحجّـاج عائدين إلى

المدينـة المنـورة. كانت خدمة جعفـر وإبراهيم جيدة جداً، ونكهة طعـام جعفر تحثّني علـى التجـوال في بلاد فارس. وعوّضت عـن النقص في مواردنا الماليـة ببيع بندقيتي ومختلف عدّة التخييم التي ما عدت بحاجة إليها.

***

انتظرنـا مسـعودي في صبـاح اليوم التالي ليحمّل الجمال ويسـير فـي طريقه، وبعد أن ودّعنـا محمّـد سـعيد ووعدنـاه أن ننزل عنده في سـفرنا القادم، بدأنا سـفرنا. كانت حميرنـا حيوانـات جيدة، مجزوزة بطريقـة خاصة متّبعة في مكّـة، وحاصلة على عناية كافية. اسـتخدم البدوي المسـؤول عنها حماراً أصغر حجماً، وكالعادة جعل من نفسه مصدر إزعاج كلما سنحت له الفرصة. كان عليّ أن أدفع جنيهاً واحداً لكلّ من الحمير، لكن بما أنّي كنت آمل أن أصل في يوم واحد، فقد كانت الحمير تستحقّ كلفتها.

أوّل المصاعب تعلّقـت بتصاريح الحمير، وكانت نتيجة لخطّة بارعة وضعها الفتى المسؤول عنها ليبتزّ منا روبيّتين. لم أمانع في الدفع لتسيير الأمور، إنما كان عبد الواحد مستعداً للشهادة في سبيل أن لا يخدع لدفع «نحاسة» واحدة، مع أنّه لم يكن من الأبطال كما قد ظهر من أحداث هذه القصة. ثار الجدال فيما بيننا وأخيراً اشـتكينا للشيخ الذي أرسـلنا للمديـر الذي لم يكن موجـوداً، وهكذا دواليك. أضعنا سـاعة كاملة لحلّ هذه المسألة.

انطلقنا مرة اخرى، وسرنا في الشارع المستقيم الطويل المؤدي إلى المدينة، ومررنا بالحراس الذين تأكّدوا من سلامة أوراقنا، وألفينا أنفسنا على الطريق العام الذي يقودنا إلى أوطاننا.

***

اسـتمتعت بالقسـم الأول من الرّحلة، فقد كان الصباح مبترداً وعذباً، وحميرنا قوية وحاضرة، والسـرعة مناسـبة. بالإضافة إلى ذلك، كنت مستمتعاً بمعرفة أنا هذه الرّحلة هي القسـم الأخير من مغامـرة كادت أن لا ترى النجاح، ففي المسـتقبل القريب راحة

وأمان، بينما كانت الأخطار والمعاناة وراءنا. عندما أتفكّر في هذه التجربة، أرى نسبة كبيرة من نجاحها تعزى إلى مجرد حظ جيد، ولا أملك إلا أن أكون شاكراً لنجاتي.

مع أنّنا انطلقنا باكراً، لم نكن أول مغادري مكّة المكرّمة. فقد غادر الكثير من الحجّاج خلال الليل، بالإضافة إلى المحمل المصري الذي مررنا به قرب منطقة البحرية. قيل لنا إن المحمل سيغادر بحراً إلى ينبُع ومن ثم إلى المدينة المنورة. في السنين العادية السابقة، اعتاد المحمل أن يسافر إلى القاهرة برّاً، مروراً بالمدينة المنورة قبل الحج، إنما غيّر طريقه هذه السنة بسبب القلاقل في البلد.

وصلنا ظهراً إلى البحرية حيث استرحنا لمدة ساعة من الوقت وتناولنا طعام الغداء. وعندما انطلقنا ثانية وجدنا أننا سبقنا كل الجمال التي بدأت رحلتها قبلنا، وأصبحنا نسافر في طريق خالٍ. لحقنا بمجموعة من ثمانية تجار من جدّة مسافرين على الحمير مثلنا، وقرّرنا مرافقتهم حماية لنا من أي قطاع طرق. ومع أن الطريق محميّة الآن كالعادة، فهي لا زالت غير آمنة لمجموعات صغيرة من المسافرين، خصوصاً قبيل الغروب. سرنا بسرعة ستة أميال في الساعة بين السير العادي والخبب، إلى ما قبيل غروب الشمس حين خرجنا من الهضاب وأصبح بالإمكان رؤية مآذن جدة عبر الأرض المنبسطة أمامنا.

كانت الرّحلة تسير على ما يرام، وتوقعنا أن ندخل المدينة قبل الظلام. ويبدو أن حميرنا تدرك هدفها، فأسرعت الخطى. لكن خيبة الأمل كانت بالانتظار، فعند وصولنا إلى أحد الحصون، خرج جندي مسرعاً ورمى نفسه على الطريق فاتحاً ذراعيه، فأجبرنا على التوقف. أخبرنا أن الأوامر صدرت بعدم السماح لأي كان بالسفر تحت جنح الظلام، وكان لزاماً علينا التوقف حيث كنا، وتحت حماية معقل الحرس. بالطبع، علا صوت احتجاجنا إنما دون فائدة، والقائد الذي استجاب لندائنا قال ان أوامره صريحة. استعنّا بالرشوة، إنما لم تجد فائدة، لأول مرة. وأخيراً، استجاب لاقتراحي أن يدعنا نمرّ بعد أن نوقّع على إقرار بمسؤوليتنا الخاصة في تحمل المخاطر، فكتبنا الإقرار بسرعة ووقّعنا عليه، إنما قبل أن ننتهي منه، غيّر رأيه ومنعنا من التحرك تحت عقوبة التعرّض لإطلاق النار.

لـم نمانع كثيراً في التأخر بهذه الطريقة، إنما كان الأمر مزعجاً جداً للمسـافرين من أهـل جدة الذيـن تنتظرهم منازل مريحة وموائد شـهية على بعد سـاعة واحدة. صوّت بعضنـا لتجاوز الحاجز، فلم نكن مقتنعين أن الحرس سـيطلقون النار علينا، وان فعلوا فلـن يصيبـوا أحـداً. إنما خسـرنا أمـام الغالبية، فـكان علينا فـي النهاية أن نسـتفيد من الأمـر وأن نعسـكر فـي العراء حيث كنـا. كان هناك كـوخ تعيش فيه بدويـة تبيع القهوة للمسـافرين، وبعض المؤن مثـل البيض وبعض الخبز القديم. اسـتفاد عبد الواحد من سرعة بديهته باستغلال الجدال مع القائد ووضع يده على كل ما لدى البدوية من مؤن، لدرجـة أن كلينا نجحنا في تحمل مسـؤوليتنا. وقبل الخلود إلـى النوم تحادثنا مع أحد الجنـود الذي أخبرنا أن أحد الفتيان المسـؤولين عن الحميـر قد قُتل عند مغادرته جدّة في الصباح على يد أحد قطاع الطرق غير بعيد من الثكنة. وأسـلوب اللصوص المعتاد هو قنص المسافرين من مسافة تبعد مئتين أو ثلاثمئة ياردة، فإن أصيب يهرعون لاغتنام مـا يملك، مغامرين بكشـفهم واطلاق النار عليهم من الجنـود القريبين منهم في مجال الرّمايـة. إن انشـاء المزيد من الحصون على الطريق قد يكون تحسـناً في هذا المجال، خصوصـاً ان كانت حصونـاً صغيرة ودون تبذير. والحصون المتواجـدة حالياً متباعدة عن بعضها البعض، ولذا فهي لا تخدم هدفها جيداً. وتوصيف هذا الجندي للحياة التي يعيشونها في الفلاء يذكرني بالأمور في جنوب إفريقيا.

* * *

بعـد أن أمضينـا ليلـة بـاردة وغير مريحـة انطلقنا فـي الصبـاح عند أول خيـط من ضوء الفجر، ودخلنا جدّة قبل شـروق الشـمس. توجهنا أولاً إلى مكان إقامتنا السـابق، ووجدنا أن صاحـب المنـزل قـد توجه إلى مكّـة المكرّمة، وترك لنا رسـالة مفادهـا أن غرفنا تنتظرنا إن أردناهـا. وضعنـا أغراضنا في أنظف مـكان وجدناه حيث أن المالك قـد غادر في الليلة السـابقة ولم تُنظف الغرف ولم يُزل غبارها. إن الغبار يتراكم بسـرعة في جدّة، كما غيره من الأمور حسب ما تعلمت لاحقاً. إن عدم ارتياحي لهذا حملني على تفقّد قدمي لأجد مقداراً كبيـراً من البراغيث يغزوني. هرعت لمعالجة نفسـي وتوجهت إلـى أقرب صيدلية وابتعت

كمية كبيرة من الدواء المستعمل محلياً ضد البراغيث. إنما لم تسعفني أدوية العلم كلها من التعرّض الشديد لقرصها. انضمّ إلي عبد الواحد بعد أن استعاد أمتعتنا من المكان، وتناولنا طعام الإفطار مع أحد الأصدقاء القدامى وهو التاجر المسيحي، ثم بحثنا عن مكان جديد للإقامة. وأخيراً وجدنا غرفة مناسبة يبدو أنها نظيفة، مع أننا اضطررنا إلى أن ندفع ثمناً باهظاً لها. علمت أن ما بقي من النقود لن يكفي لدفع ثمن إيابنا إلى أوطاننا، وبما أن علي أن أجد مصدراً مالياً، فلم أعد أفكر بأيّة مصاريف أخرى.

أدركنا كم أن الأمر سيكون صعباً عندما بدأنا بتأمين أمور السفر. كنّا قد سمعنا اشاعة في مكّة لا تصدق، تقول الإشاعة إنه لا يسمح لأيّ حجّاج بدخول مصر إلا الحجاج المصريين ومن يحمل جواز سفر مصرياً إلى ما بعد وصول المحمل المصري، وسيكون ذلك بعد حوالي شهرين. صعقنا عندما علمنا ان تلك الإشاعة كانت خبراً صحيحاً. فقد رفض وكلاء السفن أن يصدروا لنا تذاكر لاي ميناء مصري، ومن باب اللياقة، حذّرونا من حماقة شراء التذاكر ومحاولة التوجه إلى أي ميناء مصري حيث أننا سنُمنع من النزول وسنعود أدراجنا.

استشرنا عسكرياً تركياً كبيراً في السن كان يجلس في أحد المقاهي، قائلين إن لدينا أعمالاً ملحة في مصر، وسائلين نصيحته لكيفية دخول البلد. أسرّ لنا بطريقين لا يعرف لهما ثالثة، أولاها شراء جوازات سفر من بعض المصريين الفقراء ممّا كان عملاً سهلاً، والسفر متنكّرين كمصريين، إنما هزّ رأسه مظهراً ضعف احتمال خداع السلطات المصرية في الميناء، حيث أن كلينا لا تبدو عليه الملامح المصرية. والطريقة الثانية هي السفر إلى بيروت وتغيير جوازات سفرنا بأخرى لا تحمل ختم دخول مكّة، ومن ثم التوجه إلى بور سعيد. وقال إن السلطات ستتغاضى عن ذلك حيث أن الموظفين لا يوافقون على هذا القرار. إن الاعتراض هو وجوب تواجدنا في الحجز الطبي لمدة عشرة أيّام في جدّة، وأربعة أيّام في بيروت وأربعة اخرى في بور سعيد، ممّا كان مروّعاً، ان هذا الحجز سيضيّع علي رحلة القنص التي خطّطت لها مع أخي في السودان.

* * *

لـم يصل مسـعودي في موعده ممّـا أقلقني. بالإضافة إلـى انزعاجنا من عدم وجود أمتعتنـا معنـا، حيث كنّـا بغاية الحاجة إلـى الاسـتحمام وملابس نظيفـة. أمضينا وقتنا ندخّـن في المقاهي وفي وضع خطة لدخول مصـر. وصلنا إلى نتيجة مفادها أن نتوجّه إلى عدن، ونسافر على إحدى السفن من موانئها. إنما الاعتراض على هذه الخطة كان الحجر الصحي والمصاريف المطلوبة. ثم فكرت بالتوجه مباشـرة إلى «سـواكن» إنما لم يكن هناك اي قارب متوجه إليها تلك الليلة، ولا بد أن ننتظر عشـرة أيّام في الحجر الطبي هناك، بالإضافة إلى أن مجموعة الحجاج السودانيين، ومعظمهم من السّود، لم يكونوا أفضل رفقاء الطريق. ولو كان لدي المال الكافي، لكنت استأجرت قارباً خاصاً وأبحرت هناك، ملفقاً رواية أتلوها على السلطات عند الوصول.

وصل مسـعودي بعد ظهر اليوم الثانـي. إن مكائد الجمالين التي بدأت منذ أن أدرنا ظهورنا، كانت السبب في ساعات طويلة من التأخير. لقد طالبوا بقبض كل الأجرة قبل مغادرتهم مكّة، وأنزلوا الأمتعة من على ظهور الجمال تأكيداً لمطالبهم. كان مسعودي مستعداً ان يلقّنهم بعض اللياقة بسيفه، إنما العربي الذي استخدمناه أظهر حسن تقدير، فرفض اسـتئجار جمالهم وسـاعد بنفسـه في إنـزال الأمتعة عن ظهورهـا، وتوجّه إلى المدير الذي ألقى القبض على المخلّين بالاتفاق، وأجبرهم على إعادة المال المدفوع وإصدار عقوبة بحقهم كتذكرة مستقبلية.

كان مـن الضروري إيجـاد بديل لهؤلاء الجمالين وعقد اتفاق جديد، ممّا اسـتغرق وقتاً. وعلى كل حال، كنت مسروراً بأن أراه يعود سالماً والتذمّر من التأخير كان ليجوز لو كان الخطأ خطأه.

* * *

وهكـذا، وصلت قصة رحلتنا هذه إلى نهايتهـا، حيث أنّنا انفصلنا كلّ في طريقه في جـدّة. توجّـه مسـعودي وكيبي إلى مومباسـا، وعبد الواحـد إلى بلاد فـارس، وأنا إلى مصر. وقد تخطّينا مسألة الحجر الصحي بنجاح، ولا يعود الشكر إلى نباهتي، إنما إلى لطف أحد الإنكليز.

قـد يبدو للقـارئ الكريم، الذي شـرّفني بمتابعة الرّحلة إلى الآن، أنّ سـكان المدن المقدّسـة وغيرهـا والذين قابلناهم خلال رحلتنا في أربعة أشـهر لـم يكونوا ذوي دقّة ملاحظـة، أو أنّنـي كنت خبيراً في فنّ التنكّر. لم يكن الأمر كذلك في الحالتين كليهما، إنّ نجاحي في فرض هذا الأمر على من قابلته يعود إلى جهلهم بالعالم الخارجي وعدم اهتمامهم به، حتى الاهتمام بالبلاد التي تدين بالإسـلام. وهناك فِرَق كثيرة في الإسلام وينتشر المسلمون في بلاد مختلفة، لدرجة أنه إذا اخترع أحدهم موطناً له ولغة جديدة، وتوجّه إلى مكّة المكرّمة، لن يعرف أحد معلومات كافية في الجغرافيا ليكشف أمره.

إنمـا لننصفهم القول، لدى القوم سـرعة بديهـة في التصرّف في الأمـور، فإنّ خطر لأحد المطوّفين أن يدوّن كتاباً في الأنثروپولوجيا وعلاقتها بالإسلام الحالي، وتوصيف مختلف الأعراق التي تحجّ إلى مكّة، فإنّ الخداع الذي مارستُه سيكون مستحيلاً. إنما لا يوجـد مثـل هذه الكتب، والإصـدارات الممتازة من مطابع بيـروت غير رائجة لدى المسـلمين العرب الذين يظهـرون عدم اهتمام وحتى ازدراءً للعلـم من أيّ نوع ما عدا اللغات. إنّ نظرتهم إلى المثقف هو من يعرف لغات عدّة. ولم يكن هذا مقصد الرّسول حين قال: «اطلبوا العلم ولو في الصين».

إن المقصـود بهـذا مجـرّد التعميـم الإجمالي لا أكثـر، وكذلك التوصيف السّـلبي الذي بدر عني في مجالات أخرى. ولا ريب أن هناك اسـتثناءات عديدة، فترى مثقّفين ونشطاء عديدن في مكّة، وكذلك من يعيش حياة معتدلة وفاضلة.

وكمـا ذكرت سـابقاً، فقـد أثرنا بعض الشـكوك هنا وهنـاك، أوّلها عنـد الخادمَين، مـع أنّهمـا من بلاد فـارس ولا يفقهـان العربية إنما لا بدّ أن يكونا قد شـكّا فـي أمر ما. ولـو تبلورت هذه الشـكوك إلى حقيقة لسـرعان ما عرفنا بها عن طريـق المطالبة بمال للسـكوت عنها. ولا بدّ من التذكرة أنّ الثناء العظيم يوجّه إلى من يكتشـف كافراً ويبلّغ عنه.

وما أنصح به لمن يودّ التوجه إلى مكّة المكرّمة أن يفعل ذلك خلال موسـم الحجّ، حيـث يكون من السـهل التوجّه إلـى هناك من ناحيـة، وأكثر إثارة للاهتمـام من ناحية

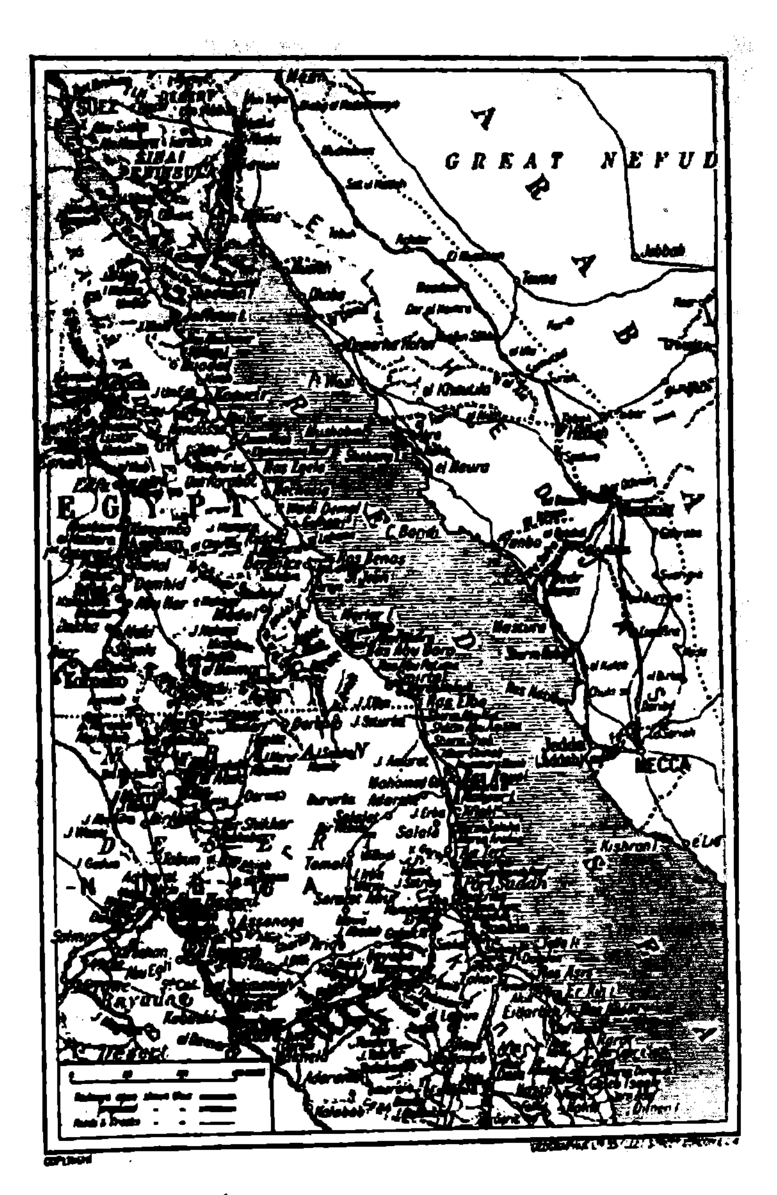
أخرى. لقد أتقنتُ اللغة وتقليد الزيّ وغيرهما، ولا أعتقد انّي أستطيع الزيادة على ذلك. على أي حال، أنصح المسافر أن يدخل البلاد متنكّراً لا أن ينتظر أن يغيّر زيّه بعد وصوله الميناء. إنّ الإهمال في هذا التدبير الوقائي قد قاد الكثير ممن يرغب بالتواجد في وقت الحد أن يُكتشف أمره في جدّة ويُعاد أدراجه مهاناً. بينما على المسافر في مكّة أن يكون حريصاً في تجنّب مجموعات الحجّاج الآتية من البلد التي سمّى نفسه منها، وعليه ألا يسمح للمطوّف أن يطأ منزله لأي سبب من الأسباب، ومن الأفضل ألا يستخدم نفس المطوّف مرّتين. فكلّما قلّ احتكاك المطوّف بالمسافر كان أفضل، حيث أنّهم شديدو الذكاء.

عند اتّباع التدابير الوقائية تلك، مع معرفة مقبولة باللغة العربية والشعائر الإسلامية والحذر المناسب، تكون رحلة الحجّ إلى مكّة تحت التنكّر آمنة وخالية من المجازفات.

إنّ المدينة المنوّرة هي أكثر المدينتين خطراً، والمسافر غير المتمكّن من العادات الشرقية عليه ألا يغامر بوجوده فيها. هذا وإنّني مقتنع، محللاً ما سمعته، بأنّ نجاتنا تعزى إلى حُسن الطالع وليس إلى براعتي في التدبير.

وأخيراً، نظرة القانون إلى هذا الموضوع. فإنّ الحكومة العثمانية تحتفظ لنفسها بحق رفض الوافدين الأجانب إلى الحجاز، وإخراجهم بالقوّة إن تواجدوا، بينما تتنكّر لمسؤولية ما قد يحصل بسبب وجودهم. موقف الحكومة هذا مقبول عملياً من قبل بقية القوى في المنطقة، مع أنّ ممثليهم غير مسؤولين عن كشف أيّ شخص يقوم بهذه الرّحلة متخفياً إن عرفوا به. ليس ثمّة خرق للقانون في التوجّه إلى تلك الأماكن، إنما هو خرق للأعراف والتقاليد. إنما بالطبع تتضّمن الفكرة مخالفة «رغبات ونصائح» السلطات، ممّا يُعدّ جريمة كبرى في بعض الأوساط.

* * *



خريطة الحجاز وساحله على البحر الأحمر

فهرس

رحلة الحاج المعاصر إلى مكة

عام 1908م

آرثر جون واڤل، هذا الرحالة البريطاني الطريف الخفيف الظل عاش فترة من عمره في مدينة مومباسا بكينيا قريباً من زنجبار على ساحل أفريقيا الشرقيّة، قام برحلة عام 1908 إلى مكة المكرّمة وارتدى ملابس المسلمين وتكنّى باسم (الحاج علي الزنجباري) فروى لنا وقائع مسلية حول رحلته ضمن قالب ممتع من المغامرات والمواقف الطريفة، مع وصف حيّ ودقيق لجميع المناطق التي زارها. والجدير بالذكر أنه التزم جانب الحياد والاحترام والموضوعيّة فيما كتبه.

وكان آخر رحالة أوروبي يزور المدن المكرّمة قبيل زوال الحكم العثماني عنها، لكنه سرعان ما لقي حتفه في أفريقيا بعد ثماني سنوات من رحلته، خلال القتال مع القوات الألمانيّة في الحرب العالمية الأولى. كتاب فريد نادر جدير بالقراءة.

السعر 60 درهماً


9 789948 019718

